دولة فلسطين
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة
محمد صلى الله عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1436هـ - 2015 م

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

هدية

القدس
1436هـ - 2015 م

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فأعداء الإسلام ما زالوا يتطاولون على الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، ومحاولاتهم اليائسة لإطفاء نور الله بأفواههم ما زالت متقدة، وكرههم الأعمى لهذا الدين ما زال يتعاظم، ولما أصبح العمل للذود عن ديننا الحنيف ونبينا الأكرم واجباً أكبر، وغاية أسمى، فإن دار الإفتاء الفلسطينية تصدر الجزء الثامن من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض جوانب من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تميزت ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

ويسرني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتميز، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عزوجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

فإن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل برّه وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس : 1436هـ / 2015م

الفصل الأول
عقيدة

	الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم	
.1	ينعى على من لم يدخل الجنة بر والديه	5
.2	يستغيث الله/ الحلقة الأولى	10
.3	يستغيث الله/ الحلقة الثانية	15
.4	يستغيث الله/ الحلقة الثالثة والأخيرة	20
.5	أعانه الله تعالى على الشيطان	25
.6	أمره الله تعالى أن يعبده حتى يأتيه الموت	30
.7	يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين/ الحلقة الأولى	35
.8	يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين/ الحلقة الثانية	40
.9	يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين/ الحلقة الثالثة والأخيرة	45
.10	استقام لأمر ربه ولم يجاوز حدوده	50
.11	ودعاؤه عند الشدائد	55
.12	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الأولى	60
.13	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الثانية	65
.14	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الثالثة	70
.15	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الرابعة والأخيرة	75

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
ينعى على من لم يدخل الجنة ببر والديه

عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، قِيلَ: من يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: من أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أو كِلَيْهِمَا، فلم يَدْخُلْ الْجَنَّةَ). [1]

يحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف من تضييع فرصة ذهبية تتاح للمرء، لو انتهزها على الوجه المرضي والصحيح لدخل الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والوجوه فيها ناضرة، إلى ربها ناظرة، وتلكم الفرصة تتمثل في إدراك الأبوين، أو أحدهما، والقيام ببرهما، فإن حصل ذلك عن إيمان، وعلى الوجه الصحيح، فالجزاء عظيم، جنة عرضها السماوات والأرض، وأما إن ضيعت هذه الفرصة، فالخسارة بينة، بفوت الجائزة، التي لم يوفق من كان هذا حاله لنيلها، وإذا كان الذي يفقد جائزة صغيرة أو كبيرة من جوائز الدنيا، يتحسر كثيراً، ويحزن بالغاً، والدنيا بجوائزها جميعاً لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فكيف ستكون الحسرة؟! وكم سيبلغ مداها حين تفقد جائزة الآخرة؟! وقوله (رَغِمَ أَنْفُ): قال أهل اللغة معناه ذل، وقيل كره وخزي، وأصله لصق أنفه بالرغام، وهو تراب مختلط برمل، وفيه الحث على بر الوالدين، وعظم ثوابه، ومعناه أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك، سبب لدخول الجنة، فمن قصر في ذلك، فاته دخول الجنة، وأرغم الله أنفه.[2]

والملاحظ أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كرر هذا التعبير ثلاث مرات في مقدمة هذا

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 108/16-109.

الحديث الشريف، مما يشير إلى تشديد التنفير من الوقوع في هذه الخسارة الفظيعة. كما أن الحديث ذكر إدراك الوالدين أو أحدهما، في مرحلة عمرية حرجة وهي الكبر، كون رعايتهما عند بلوغ المراحل المتقدمة في العمر تكون الحاجة إليها ماسة، وقد يكون النفور منهما في هذه المرحلة وارداً بسبب التبعات المطلوبة، وطبيعة الحال، فالشاب اليافع ليس كالعجوز، في الحركة والسمع والنظر، وحتى في الوعي والإدراك، وما يتبع ذلك من تداعيات، مما يتطلب مزيداً من الصبر، والتحمل تجاه ما يصدر عن العجوز من سلوك، فمن صبر على ذلك، وأدى المطلوب على أكمل وجه، فقد ربح الجنة، ومن فاتته الفرصة، فضيع أبويه في كبرهما، فقد خسر الجائزة، ورغم أنفه مرات ومرات، كناية عن التوغل في وحل الخسران إلى درجات متقدمة، والعياذ بالله.

فضل بر الوالدين

فضائل بر الوالدين كثيرة، منها ذكرته الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، وآثار السلف الصالح، ومنها ما يشاهده الناس في حياتهم من شواهد لآثار البر، وفي مقابلها شواهد آثار العقوق، ومن أكبر فضائل بر الوالدين أنه يقود صاحبه إلى الفوز بالجنة، ومن فضائله الأخرى أنه سبب من أسباب تفريج الكرب، وأنه من دواعي الإحساس بالبركة في العمر، والمال، والحياة، فرَسُول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ له في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)(*). وأنه كذلك زرع لحصاد يؤتي أكله يوم يكون للولد أبناء، فيؤدون حق أبيهم من البر، مثلما أدى هو حق أبويه من قبل، وصور ذلك يشاهدها الناس في حياتهم وعلاقاتهم.

فالبر إلى الوالدين، والإحسان إليهما واجب حتى لو كانا على غير ملة الحق، وحتى لو حاولا ثني ابنهما عن إيمانه وإسلامه، فالله تعالى يقول: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا

*. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم.

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ...}[1].

إثم العقوق وعقوبته

كما أن لبر الوالدين فضائل كثيرة، فإن لعقوقهما آثاراً وخيمة، فالعقوق من أكبر كبائر الإثم، ومن أبرز أسباب خسران الآخرة، ودخول نار جهنم، والعياذ بالله، والنبي، صلى الله عليه وسلم، نهى عن العقوق، فعن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ، قال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وكان مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فقال: ألا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، ألا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فما زَالَ يَقُولُهَا حتى قلت لا يَسْكُتُ)[2]، ويقول صلى الله عليه وسلم: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ)[3]، والعقوق كذلك دين في عنق صاحبه، يقضيه أبناؤه له، فكما تدين تدان، فيروى عن الأصمعي: أن رجلاً من الأعراب حدثه، قال: خرجت من الحي أطلب أعقَّ الناس، وأبرَّ الناس، فكنت أطوف بالأحياء حتى انتهيت إلى شيخ في عنقه حبل، يستقي بدلو لا تطيقه الإبل في الهاجرة، والحرِّ الشديد، وخلفه شاب في يده رشاء (أي حبل) ملوي يضربه به، قد شق ظهره بذلك الحبل، فقلت: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف؟! أما يكفيه ما هو فيه من هذا الحبل حتى تضربه؟! قال: إنه مع هذا أبي. فقلت: فلا جزاك الله خيرًا. قال: اسكت، فهكذا كان هو يصنع بأبيه. فانظر كيف قيض الله لهذا الوالد العاق من أبنائه مَن يعقه! والجزاء من جنس العمل: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ}.[4]

وللعقوق صور مادية ومعنوية كثيرة، والله سبحانه وتعالى بعد أن أمر بالإحسان إلى الوالدين، نهى عن العقوق في صورتيه المادية والمعنوية، فقال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ

1.لقمان: 15.

2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.

3 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع.

4. فصلت:46.

إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً}[1]، فتوجيه أصغر ألفاظ الاحتقار والإساءة لهما أو لأحدهما حرام وإثم، فكيف بنهرهما، وزجرهما، وسبهما، وضربهما، أو قتلهما؟!!!

ومن لطائف هذه الآية الكريمة أنها ذكرت لفظ {عِندَكَ} في إشارة إلى أن البر الكامل بالوالدين يكون حين يصحبهما الولد في سكنه ومعاشه، سواء في البيت نفسه، أو في جواره، مع المحافظة على التواصل الدائم معهما، مما يعني التنفير من إسكانهما بعيداً عن إقامة الولد، أو إنزالهما الملاجئ دون حاجة ملحة.

ومن صور العقوق شتم آباء الناس أو أمهاتهم، فيردون بشتم والدي الشاتم أو أحدهما، فقد عد الرسول، صلى الله عليه وسلم، فعل التسبب باستجلاب السب والشتم للوالدين من كبائر الإثم والذنب، فقال: (من الْكَبَائِرِ؛ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قال: نعم؛ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ).[2]

وثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (لَعَنَ الله من لَعَنَ وَالِدَهُ).[3]

ومن الشعر المؤثر في آفة عقوق الوالدين، ما نسب إلى أمية بن أبي الصلت[4]:

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعُلْتُكَ يَافِعًا ... تَعُل بما أجني عَلَيك وَتَنْهَلُ

إِذَا لَيْلَةٌ نابَتْكَ بِالشكو لَمْ أَبِتْ ... لِشَكواكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ

كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... طُرِقْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَيَّ تَهْمَلُ

تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّنِي ... لأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ حَتم مُؤَجَّلُ...

فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ... إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أُؤَمَّلُ

جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ

1. الإسراء: 23.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.
3. صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله.
4. ديوان أمية بن أبي الصلت، 180-183.

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يفْعَلُ
فأوليتني حقّ الْجوار ولَم تكن عليّ بِمالي دونَ مالِكَ تبخل
زَعَمتَ بِأَنّي قَد كَبِرتُ وَعِبتَني لَم يَمِض لي في السِنُ سِتونَ كُمَّلُ
وَسميتني بِاسم المفنَّدِ رَأيُه وَفي رَأيِكَ التفنيد لَو كُنْتَ تَعْقِلُ
تُراقِبُ مِنِّي عَثْرَةً أو تَنالُها هَبَلتَ وهذا مِنْكَ رَأيٌ مُضَلَّلُ

هدانا الله تعالى إلى حسن طاعته، والإحسان إلى آبائنا وأمهاتنا في حياتهم، ومن بعد موتهم، ونجّانا من شر كفره، وعصيان أمره، ومن عقوق الوالدين، وصلى الله وسلم على رسولنا الأكرم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يستغيث الله الحلقة الأولى

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ: (أَنَّ رَجُلاً دخل الْمَسْجِدَ يوم جُمُعَةٍ من بَابٍ كان نحو دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قَائِمًا، ثُمَّ قال: يا رَسُولَ اللهِ؛ هَلَكَتْ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يغثنا، فَرَفَعَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَدَيْهِ، ثُمَّ قال: اللهم أَغِثْنَا، اللهم أَغِثْنَا، اللهم أَغِثْنَا، قال أَنَسٌ: ولا والله، ما نَرَى في السَّمَاءِ من سَحَابٍ، ولا قَزَعَةً، وما بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ من بَيْتٍ، ولا دَارٍ، قال: فَطَلَعَتْ من وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فلما تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، فلا والله، ما رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دخل رَجُلٌ من ذلك الْبَابِ في الْجُمُعَةِ، يعني الثانية، وَرَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ هَلَكَتْ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا، قال: فَرَفَعَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَدَيْهِ ثُمَّ قال: اللهم حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنَا، اللهم على الآكَامِ، وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قال: فَأَقْلَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي في الشَّمْسِ، قال شَرِيكٌ: سَأَلْتُ أَنَسَ بن مَالِكٍ: أَهُوَ الرَّجُلُ الأَوَّلُ؟ فقال: ما أَدْرِي).(*)

يظهر هذا الحديث النبوي الشريف صورة لحال الناس حين ينحبس عنهم قطر السماء، كما حالنا في هذه الأيام؛ حيث يتهددنا الجفاف والقحط من قلة الأمطار، ومن أبرز دلالات الحديث الذي بين أيدينا، بيانه لتصرف المسلمين عند الشدائد والمحن، فهم العابدون الحامدون، الذين يعرفون الله في الرخاء والشدة، وهم الصابرون على الضراء، الشاكرون على السراء، فلما ابتلوا بانحباس الغيث، توجهوا إلى معينه، وسلكوا أسباب جلبه، فجاءوا

*. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة.

الرسول، صلى الله عليه وسلم، يستغيثون، وقدموا بين يدي استغاثتهم التذلل لله، وأفصحوا عن حاجتهم إلى عونه، في إشارة واضحة لعمق الإيمان المختزن في أعماق قلوبهم، ولا شك أن قلة الأمطار تحدث خللاً في مستوى العيش، وتؤثر سلباً على الأموال والممتلكات، وحتى على صحة الأبدان، وقد اختزل الصحابة، رضي الله عنهم، التعبير عن هذا التأثير بهلاك الأموال، وانقطاع السبل، إذن ما العمل؟ هم لم يسألوا عن المطلوب عمله، بل عرفوا بموجب إيمانهم أن الحل عند الله، وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه، وهو قريب من عباده، لا يحول بينه وبينهم حاجز يمنع صوتهم من الوصول إلى سمعه سبحانه، وهو القائل جل شأنه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.[1]

فلم يتردد الصحابة عن التوجه إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، طالبين دعاءه الله أن يغيثهم، وفي هذا دلالة إيمانية أخرى، فعسر حالهم لم ينسهم أن العون والغوث بيد الله وحده، ورغم ما للرسول، صلى الله عليه وسلم، من مكانة عَلِيّة، ومقام محمود عند الله، إلا أنه لا يملك من الأمر شيئاً، وفي هذا يخاطب الله تعالى نبيه الأكرم، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}(آل عمران: 128)، فالأمر لله من قبل ومن بعد، يحيي ويميت، وينزل القطر من السماء أو يحبسه، وإن شاء جعله غيثاً أو أجاجاً، والله تعالى يقول:{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}.[2]

فالصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يتطلعون إلى أن يغيثهم الله بالماء، وهم يدركون أن نزوله من السماء قد يستخدم للعذاب، كما حصل لقوم نوح، الذين أغرقهم الله بماء

1. البقرة: 186.
2. الواقعة: 68-70.

السماء المنهمر، وأنجى نوحاً ومن آمن معه، وفي ذلك يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ* وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}.[1]

ويصف الله تعالى كيف انصاع ماء السماء لأمر الله في النزول والكف، فيقول جل شأنه:{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[2]

اللهم أغثنا

لم يتوانَ الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الاستجابة لطلب سائليه دعاء الله أن يغيثهم، فعلمهم وإيانا والمسلمين عبر الزمان أفضل كيفيات الدعاء، فَرَفَعَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَدَيْهِ، ثُمَّ قال: (اللهم أَغِثْنَا، اللهم أَغِثْنَا، اللهم أَغِثْنَا)، فرفع اليدين في دعاء الاستسقاء سنة نبينا، صلى الله عليه وسلم، بل كان يبالغ في رفع يديه فيه، حتى يظهر بياض إبطيه، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ في شَيْءٍ من دُعَائِهِ، إلا في الاسْتِسْقَاءِ، وَإِنَّهُ يَرْفَعُ حتى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ). [3]

وما نفاه أنس، رضي الله عنه، في هذه الرواية أثبته صحابة آخرون، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في مسألة رفع اليدين في الدعاء، دون حصر لذلك في الاستسقاء، ففي صحيح البخاري، بَاب رَفْعِ الأَيْدِي في الدُّعَاءِ، قال أبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ: (دَعَا النبي، صلى الله عليه

1. القمر: 9 – 16.
2. هود: 44.
3. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب رفع الإمام يده في الاستسقاء.

وسلم، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ). [1]

وعن أبي مُوسَى، قال: (دَعَا النبي، صلى الله عليه وسلم، بِمَاءٍ، فَتَوَضَّأَ بِهِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: اللهم اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أبي عَامِرٍ، وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، فقال، اللهم اجْعَلْهُ يوم الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ من خَلْقِكَ من الناس). [2]

الاستجابة الربانية

من دواعي النظر والتدبر أن لفظ الاستجابة المنسوبة إلى الله تعالى، وردت في القرآن الكريم أربع مرات، كلها في سورة الأنبياء، ولحق حرف الفاء الذي يفيد الترتيب والفورية في بداياتها جميعها، ورد ذلك في سياق الرد على دعاء أربعة أنبياء، هم: نوح، وأيوب، و(ذا النون)، وزكريا، عليهم السلام، ففي دعاء نوح، عليه السلام وإجابته، يقول تعالى: {وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمَ}. [3]

وفي دعاء أيوب، عليه السلام وإجابته، يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}. [4]

وفي دعاء (ذا النون)، عليه السلام، وإجابته، يقول تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}. [5]

وفي دعاء زكريا، عليه السلام، وإجابته، يقول تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ*فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب رفع الأيدي في الدعاء.
2. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الوضوء.
3. الأنبياء: 76.
4. الأنبياء: 83-84.
5. الأنبياء: 87-88.

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.[1]

فلم يحل وقت بين الدعاء والاستجابة في الحالات المشار إليها في الآيات سالفة الذكر، وإنما كانت الاستجابة متابعة وفورية، وما ذلك على الله ببعيد، فهو سبحانه إذا أراد أمراً، فإنما يقول له كن فيكون، ولكن الناس يستعجلون.

وهذه الحقيقة الإيمانية تلهم المبتلين بالشدائد والمحن، بما يوطد عزائمهم، ويثبت أقدامهم على درب مبادئهم، والتشبث بحقوقهم المشروعة، فإن ينصرهم الله فلن يغلبوا؛ مصداقاً لوعده سبحانه، إذ يقول جل شأنه: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.[2]

وإلى لقاء آخر لمتابعة جوانب من الاستغاثة بالله من قبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الأنبياء: 89-90.
2. آل عمران: 160.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يستغيث الله الحلقة الثانية

عن أَنَسٍ قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يَخْطُبُ يوم جُمُعَةٍ، فَقَامَ الناس فَصَاحُوا، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ قَحَطَ الْمَطَرُ، وَاحْمَرَّتْ الشَّجَرُ، وَهَلَكَتْ الْبَهَائِمُ، فَادْعُ اللهَ أن يَسْقِينَا، فقال: اللهم اسْقِنَا مَرَّتَيْنِ، وأيم اللهِ ما نَرَى في السَّمَاءِ قَزَعَةً من سَحَابٍ، فَنَشَأَتْ سَحَابَةٌ وَأَمْطَرَتْ، وَنَزَلَ عن الْمِنْبَرِ، فَصَلَّى، فلما انْصَرَفَ لم تَزَلْ تُمْطِرُ إلى الْجُمُعَةِ التي تَلِيهَا، فلما قام النبي، صلى الله عليه وسلم، يَخْطُبُ، صَاحُوا إليه، تَهَدَّمَتْ الْبُيُوتُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يَحْبِسْهَا عَنَّا، فَتَبَسَّمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: اللهم حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنَا، فَكَشَطَتْ الْمَدِينَةُ، فَجَعَلَتْ تُمْطِرُ حَوْلَهَا، ولا تُمْطِرُ بِالْمَدِينَةِ قَطْرَةً، فَنَظَرْتُ إلى الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهَا لَفِي مِثْلِ الإِكْلِيلِ). [1]

هذه رواية أخرى صحيحة عن حادثة القدوم إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، لطلب دعائه بسبب القحط، جراء انحباس المطر، وفي رواية الحلقة السابقة عبر السائل عن هذا القحط بنتائجه، فقال: (هَلَكَتْ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ)، وفي هذه الرواية نطق بلفظ القحط، فقال: (قَحَطَ الْمَطَرُ)؛ أي قل.

وفي عمدة القاري، أن قوله: (وَاحْمَرَّتْ الشَّجَرُ) يعني تغير لونها عن الخضرة إلى الحمرة من اليبس. قوله: (وَهَلَكَتْ الْبَهَائِمُ) ويروى المواشي، وهي الدواب والأنعام. قوله: (مَرَّتَيْنِ) ظرف للقول لا للسقي. وقوله: (قَزَعَةً من سَحَابٍ)؛ أي قطعة منه. وقوله : (فَكَشَطَتْ الْمَدِينَةُ)؛ أي تكشفت. وقوله: (الإِكْلِيلِ) بكسر الهمزة وهو شيء مثل عصابة تزين بالجواهر، ويسمى التاج إكليلاً. [2]

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الدعاء إذا كثر المطر حوالينا ولا علينا.
2. عمدة القاري: 458/10.

صفة صلاة الاستسقاء

الاستسقاء هو طلب السقيا، ولصلاته وجوه، منها أن يتقدم الإمام، ويصلي بالمسلمين ركعتين بلا أذان، ولا إقامة، يكبر في الأولى سبعاً غير تكبيرة الإحرام، ثم يقرأ الفاتحة، وسورة من القرآن جهراً، ثم يركع ويسجد، ثم يقوم، فيكبر في الركعة الثانية خمساً، سوى تكبيرة القيام، ثم يقرأ الفاتحة، وسورة من القرآن جهراً، فإذا صلى الركعتين تشهد، ثم سلم[1]، وتسن في كل وقت إلا أوقات الكراهة.

ومن الأحاديث الصحيحة التي تثبت صفة صلاة الاستسقاء، ما روي عن عَبَّاد بن تَمِيمٍ: (أَنَّ عَمَّهُ وكان من أَصْحَابِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أخبره أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقِي لهم، فَقَامَ، فَدَعَا اللهَ قَائِمًا، ثُمَّ تَوَجَّهَ قِبَلَ الْقِبْلَةِ، وَحَوَّلَ رِدَاءَهُ، فسقوا)[2]

فهذا الحديث يثبت أن النبي، صلى الله عليه وسلم، خرج بالناس، يعني إلى المصلى، كما ورد صريحاً في حديث آخر، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ إلى الْمُصَلَّى يَسْتَسْقِي، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَقَلَبَ رِدَاءَهُ. [3]

ثم يقلب الإمام والمأموم أرديتهم، ويتوجهون إلى القبلة، ويجتهد في الدعاء إلى الله، ويحثهم على التوبة والاستغفار، ففي صحيح البخاري، (أن النبي، صلى الله عليه وسلم، خرج يَسْتَسْقِي، فَتَوَجَّهَ إلى الْقِبْلَةِ يَدْعُو، وَحَوَّلَ رِدَاءَهُ، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ، جَهَرَ فِيهِمَا بِالْقِرَاءَةِ).[4]

المقصود بتحويل الرداء أو قلبه فيها؛ أي جعل يمينه على يساره، ويساره على يمينه[5]، ويفسر بعض العلماء ذلك بأنه تعبير عن التفاؤل بأن يحول الله القحط إلى الخصب، ويحول الشدة إلى الرخاء.

1. الموسوعة الفقهية: 312/3.
2. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء قائماً.
3. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المصلى.
4. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الجهر بالقراءة في الاستسقاء
5. عمدة القاري: 34/7.

واختلف الفقهاء بالنسبة إلى التكبيرات فيها، فيرى الشافعية والحنابلة أنها تصلى مثل صلاة العيد، يكبر في الأولى سبعاً، وخمساً في الثانية، أما المالكية وفقهاء آخرون فيرون أنها تصلى ركعتين كصلاة النافلة والتطوع دون تكبير زائد، وقد روى الحاكم في المستدرك عن طلحة بن يحيى، قال: (أرسلني مروان إلى ابن عباس أسأله عن سنة الاستسقاء، فقال: سنة الاستسقاء سنة الصلاة في العيدين، إلا أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قلب رداءه، فجعل يمينه على يساره، ويساره على يمينه، فصلى الركعتين، يكبر في الأولى سبع تكبيرات، وقرأ {سبح اسم ربك الأعلى}، وقرأ في الثانية {هل أتاك حديث الغاشية}، وكبر فيها خمس تكبيرات).(*)

وبالنسبة إلى الخطبة في الاستسقاء، فيجوز أن تكون قبل الصلاة كالجمعة، أو بعدها كالعيد، ويجوز الاكتفاء بخطبة الجمعة، إذ المقصود بالاستسقاء الدعاء والتضرع إلى الله، غير أن الوارد أن قلب الأردية لا يكون خلال خطبة الجمعة.

حوالينا ولا علينا

تتضافر الأحاديث الصحيحة في تأكيد خبر الاستجابة الربانية لدعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي تضمن طلب الغيث بعد معاناة الناس من انحباس المطر، وكانت الاستجابة الربانية فورية، لكن الناس واجهتم مشكلة جديدة جراء نزول ماء السماء المنهمر، كما يحدث عادة عند نزول الأمطار الغزيرة بشكل متلاحق، فتحدث إرباكاً للناس، وبخاصة المزارعين منهم، وقد تلحق بهم وبممتلكاتهم أضراراً جسيمة، فبعد تواصل نزول الأمطار فترة أسبوع كامل، رجع الناس إلى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، طالبين دعاءه بوقف هطول المطر، فتبسم النبي، صلى الله عليه وسلم، ودعا الله بألفاظ أصبحت مشهورة، يكررها المسلمون في مثل هذا الظرف، فقال: (اللهم حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنَا، فَكَشَطَتْ المَدِينَةُ، فَجَعَلَتْ تَمْطُرُ حَوْلَهَا، ولا تَمْطُرُ

*. المستدرك على الصحيحين: 473/1، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

بِالْمَدِينَةِ قَطْرَةٌ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهَا لَفِي مِثْلِ الإِكْلِيلِ). قوله :(فَكَشَطَتْ)؛ أي تكشفت. وقوله: (الإِكْلِيلِ) وهو شيء مثل عصابة تزين بالجواهر، ويسمى التاج إكليلاً.[1]

جاء في فتح الباري، أن قوله: (اللهم حَوَالَيْنَا)، فيه حذف تقديره اجعل أو أمطر، والمراد به صرف المطر عن الأبنية والدور. قوله: (ولا عَلَيْنَا) فيه بيان للمراد بقوله حوالينا؛ لأنها تشمل الطرق التي حولهم، فأراد إخراجها بقوله: (ولا عَلَيْنَا) قال الطيبي: في إدخال الواو هنا معنى لطيف، وذلك أنه لو أسقطها لكان مستسقياً للآكام وما معها فقط، ودخول الواو يقتضي أن طلب المطر على المذكورات ليس مقصوداً لعينه، ولكن ليكون وقاية من أذى المطر، فليست الواو مخلصة للعطف، ولكنها للتعليل.[2]

وفي شرح الزرقاني، استنباط بعض الدروس والعبر من هذا الحديث الشريف، ومنها:

1. إن دعاء تحول نزول الماء إلى الآكام والظراب وبطون الأودية، حتى يبعد عن الطريق المسلوكة وعن البيوت، ووقوع المطر في بقعة دون بقعة كثير، ولو كانت تجاورها، وإذا جاز ذلك جاز أن يوجد للمواشي أماكن تكنها، وترعى فيها، بحيث لا يضرها ذلك المطر.

2. الأدب في الدعاء، حيث إنه صلى الله عليه وسلم، لم يدع برفع المطر مطلقاً؛ لاحتمال الاحتياج إلى استمراره، فاحترز فيه بما يقضي رفع الضرر، وإبقاء النفع.

3. ويستنبط منه كذلك أن من أنعم الله عليه بنعمة لا ينبغي له أن يسخطها لعارض يعرض فيها، بل يسأل الله رفع العارض، وإبقاء النعمة.

4. وفيه أن الدعاء برفع الضر لا ينافي التوكل، وإن كان مقام الأفضل التفويض؛ لأنه كان عالماً بما وقع لهم من الجدب، وآخر السؤال تفويضاً لربه، ثم أجابهم بما سألوه بياناً للجواز، وتقريراً لسنة هذه العبادة الخاصة.

---

1. عمدة القاري: 458/10.
2. فتح الباري: 505/2.

5. وفيه قيام الواحد بأمر الجماعة، وإنما لم يباشر ذلك أكابر الصحابة؛ لسلوكهم الأدب بالتسليم، وترك الابتداء بالسؤال، ومنه قول أنس كان يعجبنا أن يجيء الرجل من البادية، فيسأله.

6. وفيه علم من أعلام النبوة في إجابة دعائه عقبه أو معه ابتداء في الاستسقاء، وانتهاء في الاستصحاء، وامتثال السحاب أمره بمجرد الإشارة. (*)

وبعد عرض بعض متعلقات صلاة الاستسقاء في هذه الحلقة، والتي سبقتها، نسأل الله العلي القدير أن يعين للوقوف عند دور الاستغفار، والتوبة، والإنابة إلى الله تعالى في تحقيق استجابة الدعاء، ومنه الاستجابة إلى طلب غيث السماء، ليسقى به الخلق وزروعهم ومواشيهم، فإلى ذلك اللقاء من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. شرح الزرقاني: 1/546-547.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يستغيث الله الحلقة الثالثة والأخيرة

عن مَسْرُوقٍ، قال: (جاء إلى عبد اللهِ رَجُلٌ، فقال: تَرَكْتُ في الْمَسْجِدِ رَجُلاً يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ، يُفَسِّرُ هذه الآيَةَ {يوم تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} قال: يَأْتِي الناس يوم الْقِيَامَةِ دُخَانٌ، فَيَأْخُذُ بِأَنْفَاسِهِمْ، حتى يَأْخُذَهُمْ منه كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ. فقال عبد اللهِ: من عَلِمَ عِلْمًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لم يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ الله أَعْلَمُ، فإن من فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لا عِلْمَ له بِهِ الله أَعْلَمُ، إنما كان هذا أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ على النبي، صلى الله عليه وسلم، دَعَا عليهم بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ، حتى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إلى السَّمَاءِ، فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ من الْجَهْدِ، وَحَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، رَجُلٌ، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ اسْتَغْفِرْ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهُمْ قد هَلَكُوا، فقال: لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، قال: فَدَعَا اللهَ لهم، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {إِنَّا كاشفو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} قال: فَمُطِرُوا، فلما أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَةُ، قال: عَادُوا إلى ما كَانُوا عليه، قال: فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {فَارْتَقِبْ يوم تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ* يَغْشَى الناس هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ} {يوم نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}، قال: يَعْنِي يوم بَدْرٍ).[1]

الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود في هذا الحديث يدحض تفسير (الدُخَان المُبِينِ) الذي أشارت إليه الآية الكريمة بأنه عذاب يكون يوم القيامة، وتبنى القول: إنه عذاب يقع في الدنيا، يتمثل في القحط والجَهْدِ[2]، وبيّن أن العذاب الذي ذكرت الآية الكريمة الدخان المبين في سياق ذكره، هو الذي أصاب قريشاً لما ناصبت الرسول، صلى الله عليه وسلم، ودينه

1. صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان
2. الجَهْد: المشقة الشديدة، وحكي ضمها (الجُهْد).

العداء، فدعا عليهم بالسنين[1]، كالتي وقعت زمن يوسف، عليه السلام، ولما أصاب قريشاً القحط، لحقت بهم مشقة شديدة، حتى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إلى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ من الْجَهْدِ، وَحَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فجاء الرسول، صلى الله عليه وسلم، رجل منهم، مستغيثاً، وفي رواية صحيحة أن أبا سفيان بن حرب، جاء يستدر عطف النبي، صلى الله عليه وسلم، ليدعو الله تعالى برفع القحط عن قومه.

وفي فتح الباري، أن قوله: (لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ) أي: أتأمرني أن أستسقي لمضر مع ما هم عليه من المعصية والإشراك به؟! قوله: (فلما أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَةُ)؛ أي التوسع والراحة.[2]

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، استجاب لاستغاثة الرجل، ودعا الله أن يرفع البلاء عن قومه، فاستجاب له ربه عز وجل، ونزل الغيث، فسقوه، وكان من دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، في الاستسقاء قوله: (اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً مريعاً، نافعاً غير ضار، عاجلاً غير آجل، قال: فأطبقت عليهم السماء)[3]. غير أن أعداء الإسلام من أهل قريش، لم يشكروا الله على ما وسّع عليهم، وما سقاهم به من غيث السماء، فعادوا إلى كفرهم، فتوعدهم الله بالبطشة الكبرى، التي انتقم الله منهم بها يوم بدر.

اشتراط التوبة والإنابة والاستغفار لاستجابة الاستغاثة والدعاء

كثير من الناس حين يقع البلاء بهم، يتذكرون أن لهم رباً يفرج الكرب، ويرفع المقت، وينزل الغيث، فيلجأون إلى الله متضرعين، وعلى إثر ذلك يكون منهم الشاكر والجاحد، ومعلوم أنه بالشكر تدوم النعم، وبالجحود تزول، والله تعالى علّم المؤمنين كيف يدعونه، ودلهم على دواعي الإجابة، فقال تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ

1. السنين: جمعة سنة، وهي القحط والجدب، ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} (الأعراف: 130).
2. فتح الباري: 571/8.
3. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء، وصححه الألباني.

السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ}[1] ، وتكرر ذكر إرسال السماء مدراراً في سورتي الأنعام ونوح، فيقول تعالى: {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }.[2]

وفي سورة نوح، يقول تعالى: {يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً}[3]، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قوله: {مِدْرَارًا} يَتْبَعُ بعضه بَعْضًا.[4] فالسماء، والرياح، والبرق، والرعد، والمطر، جند من جنود الله، يطيعونه مثل جنود الأرض والسماوات الآخرين، والله تعالى علق نزول الغيث بالاستغفار، فكأن الأصل في الاستسقاء الدعاء والتضرع، ولما أجيب الدعاء، ونزل المدرار، جاء الناس في الجمعة القابلة يشكون المطر، فقالوا: يا رسول الله؛ تهدمت البيوت، فقال رسول الله: اللهم: (حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا)، فأقلعت السماء عن الإدرار، وتنفس الناس الصعداء.

فالتقوى، والخشية، والإنابة، والطاعة، والتوبة، والاستغفار، من أبرز دواعي استجابة الدعاء، كيف لا؟! والله تعالى قطع عهداً على نفسه أن يخرج المتقين من أزماتهم، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، فقال تعالى: {...وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}[5]، وقال تعالى: {...وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً}.[6]

فما عند الله قريب، وهو خير الرازقين، ولا بد للمؤمن من اليقين بالله وقدرته،

---

1. هود: 52.
2. الأنعام: 6.
3. نوح: 11.
4. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة نوح {إنا أرسلنا}.
5. الطلاق: 2 – 3.
6. الطلاق: 4.

ووفائه بالعهد والوعد، وقد وعد المتقين المستغفرين بإسباغ نعمه عليهم، فقال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}.[1]

وهذه سنة الله في السابقين واللاحقين، فيقول تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}.[2]

وكما وعد الله المتقين بفتح بركات السماء والأرض، وإدرار المطر، وعدهم بالرزق الكريم، فقال تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}.[3]

ولا يخرج نصر المستضعفين المتقين عن هذه القاعدة، بل وعد الله عباده الذين اصطفى بالنصر المبين، فقال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ}.[4]

فعلينا إذن تحري توحيد الله والإخلاص في عبادته سبحانه، وتجنب معاصيه؛ لنكون أهلاً لاستجابة الدعاء، والتمتع بالآلاء الربانية، فالله سبحانه وتعالى ينزل بركاته وخيراته على المحسنين المتقين المنيبين المستغفرين، وما ذلك على الله بعزيز.

الحرام يحول دون استجابة الدعاء

مع أهمية التنبيه إلى ضرورة التقوى لاستجابة الدعاء، لا بدَّ كذلك من الإشارة إلى دور المعاصي في الحد من الاستجابة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَيُّهَا الناس؛ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فقال:

1. هود: 3.
2. الأعراف: 96.
3. الذاريات: 22-23.
4. غافر: 51.

{يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[1]، وقال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ}[2] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ، يا رَبِّ؛ يا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ). [3]

والله تعالى يقول: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [4]، فالكف عن الفساد والمعاصي طريق الطهر والنقاء المفضي إلى استجابة الدعاء.

فحتى نكون من مجابي الدعاء والغوث، لا بد لنا أن نحرص على طاعة الله، والتزام تقواه، والعمل بكتابه الكريم، وسنة نبينا محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. المؤمنون: 51.
2. البقرة: 172.
3. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.
4. الأعراف: 56.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

أعانه الله تعالى على الشيطان

عن عبد اللهِ بن مَسْعُودٍ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا وقد وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ من الْجِنِّ، قالوا: وَإِيَّاكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: وَإِيَّايَ، إلا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عليه، فَأَسْلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إلا بِخَيْرٍ).[1]

تثبت هذه الرواية الصحيحة تسلط قرين الجن على الإنسان، وذلك وفق قضاء الله وقدره سبحانه وتعالى، حتى الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان له قرين من الجن، إلا أن الله تعالى أعانه عليه، وفي رواية صحيحة أخرى عن عَائِشَةَ زَوْجَ النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ من عِنْدِهَا لَيْلاً، قالت: فَغِرْتُ عليه، فَجَاءَ، فَرَأَى ما أَصْنَعُ، فقال: مالك يا عَائِشَةُ أَغِرْتِ؟ فقلت: وما لي لا يَغَارُ مِثْلِي على مِثْلِكَ؟! فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟ قالت: يا رَسُولَ اللهِ؛ أو مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قال: نعم. قلت: وَمَعَ كل إِنْسَانٍ؟ قال: نعم. قلت: وَمَعَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: نعم، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عليه، حتى أَسْلَمَ).[2]

وفي شرح مشكل الآثار، قال أبو جَعْفَرٍ: فَوَقَفْنَا على أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قد كان في هذا الْمَعْنَى كَسَائِرِ الناس سِوَاهُ، وَأَنَّ اللهَ أَعَانَهُ عليه، فَأَسْلَمَ بِإِسْلاَمِهِ الذي هَدَاهُ له، حتى صَارَ صلى الله عليه وسلم في السَّلاَمَةِ منه، بِخِلاَفِ غَيْرِهِ من الناس، فِيمَنْ هو معه من جِنْسِهِ.[3]

1. صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً.
2. صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً.
3. شرح مشكل الآثار: 104/1.

الله أمكنه من عفريت حاول أن يقطع عليه الصلاة

عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ عِفْرِيتًا من الْجِنِّ، تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ، أو كَلِمَةً نَحْوَهَا، لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاةَ، فَأَمْكَنَنِي الله منه، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إلى سَارِيَةٍ من سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حتى تُصْبِحُوا، وَتَنْظُرُوا إليه كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} قال رَوْحٌ: فَرَدَّهُ خَاسِئًا).[1] والعفريت مشتق من العفر، وهو القوي المتشيطن.[2]

وقيل: هو النافذ في الأمر المبالغ فيه، من خبث ودهاء، والشيطان عفريت وعفرية، وفي القرآن:{قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ}[3]، والخاسئ بمعنى الصاغر الذليل.[4]

جاء في فتح الباري، أن قوله (تَفَلَّتَ عَلَيَّ)؛ أي تعرض لي فلتة، أي بغتة، قوله: (الْبَارِحَةَ)؛ أي الليلة الخالية الزائلة، ويقال: من بعد الزوال إلى آخر النهار البارحة، قوله: (فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ)؛ أي قوله: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} وهذا إشارة إلى أنه تركه رعاية لسليمان، عليه السلام، ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان، استخدام الجن في ما يريده جميعه، لا في هذا القدر فقط، واستدل الخطابي بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان، كانوا يرون الجن في أشكالهم وهيئتهم، حال تصرفهم، وأما قوله تعالى: { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ}[5]، فالمراد الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم، وتعقب بأن نفي رؤية الإنس للجن على هيئتهم، ليس بقاطع من الآية، بل ظاهرها أنه ممكن، فإن نفي رؤيتنا إياهم، مقيد بحال رؤيتهم لنا، ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة، ويحتمل العموم، وهذا الذي فهمه أكثر العلماء، حتى قال الشافعي: من زعم أنه يرى الجن، أبطلنا

1. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد.
2. عمدة القاري: 384/23.
3. النمل: 93.
4. عمدة القاري: 4/ 233-234.
5. الأعراف: 27.

شهادته، واستدل بهذه الآية.[1]

وورد في عمدة القاري ذكر بعض الفوائد التي استنبطها العلماء من هذا الحديث الشريف، منها:

قال الخطابي فيه دليل على أن رؤية الجن البشر غير مستحيلة، والجن أجسام لطيفة، والجسم وإن لطف، فدركه غير ممتنع أصلاً، وأما قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}.[2]

فإن ذلك حكم الأعم الأغلب من أحوال بني آدم، امتحنهم بذلك وابتلاهم، ليفزعوا إليه، ويستعيذوا به من شرهم، ويطلبون الأمان من غائلتهم، ولا ينكر أن يكون حكم الخاص والنادر من المصطفين من عباده بخلاف ذلك، وقال الكرماني لا حاجة إلى هذا التأويل؛ إذ ليس في الآية ما ينفي رؤيتنا إياهم مطلقاً؛ إذ المستفاد منها أن رؤيته إيانا مقيدة من هذه الحيثية، فلا نراهم في زمان رؤيتهم لنا قط، ويجوز رؤيتنا لهم في غير ذلك الوقت. وفيه دليل على أن الجن ليسوا باقين على عنصرهم الناري، وأن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن، وهو من دلائل نبوته، ولولا مشاهدتهم إياهم، لم تكن تقوم الحجة له لمكانته عليهم.

وقال ابن بطال رؤيته للعفريت هو مما خص به، كما خص برؤية الملائكة، فالجن يتصورون في صور شتى، ويتشكلون في صور الإنسان، والبهائم، والحيات... وغيرها، وقال القاضي أبو يعلى: ولا قدرة للشيطان على تغيير خلقتهم، والانتقال في الصور، إنما يجوز أن يعلمهم كلمات، وضرباً من ضروب الأفعال إذا فعله، وتكلم به، نقله من صورة إلى صورة

1. فتح الباري: 459/6
2. الأعراف: 27.

أخرى، وأما أن يتصور بنفسه فذلك محال؛ لأن انتقالها من صورة إلى صورة، إنما يكون بنقض البنية، وتفريق الأجزاء، وإذا انتقضت بطلت الحياة، والقول في تشكل الملائكة كذلك.[1]

حادثة شق الصدر

ثبت في السنة النبوية أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أعانه الله تعالى على الشيطان، بعد الرسالة وقبلها؛ إذ كان من تهيئته لها أن نزع من قلبه حظ الشيطان في حادثة شق الصدر المشهورة، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَتَاهُ جِبْرِيلُ، صلى الله عليه وسلم، وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ، فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقال: هذا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ من ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ في مَكَانِهِ، وَجَاءَ الغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ، يَعْنِي ظِئْرَهُ، فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قد قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ، وهو مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قال أَنَسٌ: وقد كنت أرى أَثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صَدْرِهِ).[2]

تأثير الشيطان على الإنسان

ينقاد الإنسان في أحيان كثيرة إلى إغواء الشيطان، فينحرف عن جادة الصواب، ويكون بذلك قد انطلت عليه فتنة الشيطان التي حذره الله منها، فقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}.[3]

ومصاحبة الشيطان عواقبها وخيمة، فالله تعالى يقول: {... وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً}[4]، فبئس تلك الصحبة، والشاعر يقول:

---

1. عمدة القاري: 4/234-235.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى السماوات وفرض الصلوات.
3. الأعراف: 27.
4. النساء: 38.

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ***** ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ***** فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولفت الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأنظار إلى خطورة وسوسة الشيطان، فعن عَلِيِّ ابن الْحُسَيْنِ، (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، في الْمَسْجِدِ، وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ، فَرُحْنَ، فقال لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ: لا تَعْجَلِي حتى أَنْصَرِفَ مَعَكِ، وكان بَيْتُهَا في دَارِ أُسَامَةَ، فَخَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، مَعَهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلانِ من الأَنْصَارِ، فَنَظَرَا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أَجَازَا، وقال لَهُمَا النبي، صلى الله عليه وسلم: تَعَالَيَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قالا: سُبْحَانَ اللهِ يا رَسُولَ اللهِ! قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي من الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ في أَنْفُسِكُمَا شيئاً).(*)

أعاذنا الله من الشيطان الرجيم، وهدانا إلى صراطه المستقيم، وصلى الله على رسولنا الكريم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

أمره الله تعالى أن يعبده حتى يأتيه الموت

يخاطب الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، في محكم كتابه العزيز، فيقول تعالى:{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}.[1]

جاء هذا الخطاب الرباني في سياق آيات شاملة، تضمنت أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بتبليغ الرسالة التي أوحى الله بها إليه، مع بعض التوجيهات الربانية ذات الصلة، حيث أمره الله تعالى بالإعراض عن المشركين، مع طمأنته إلى الحماية الربانية، والمناصرة على الأعداء، الذين كفاه الله شر استهزائهم، وفي هذا السياق، أمر الله تعالى نبيه بعبادته المتمثلة في التسبيح، والسجود، والدوام على ذلك؛ حتى يأتيه أجله الذي قدره الله، فقال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}.[2]

فالله تعالى يوجه نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، إلى أن يعبد ربه حتى يأتيه الموت، الذي هو موقن به، قال القرطبي: والمراد استمرار العبادة مدة حياته، كما قال عيسى بن مريم وهو في المهد صبياً: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}.[3]

والأمر بالعبادة مطلق، يشمل الخلق جميعاً، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[4]

---

1. الحجر: 99.
2. الحجر: 94-99.
3. مريم: 31.
4. البقرة: 21.

بل إن الله تعالى بيّن الغاية الأسمى التي من أجلها خلق الخلق، وتتمثل في عبادته سبحانه وتعالى، القائل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}.[1]

التعبير عن الموت باليقين

قال ابن كثير في تفسيره مدللاً على أن اليقين في الآية السالفة هو الموت: إن الله تعالى أخبر عن أهل النار ، فقال تعالى: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ*وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ*حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ*فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}.[2]

المفسرون يقولون إن اليقين الذي أتاهم هو الموت، وقال ابن عطية: إنما اليقين الذي أرادوا ما كانوا يكذبون به في الدنيا، فيتيقنونه بعد الموت.[3]

وفي الكشاف، أن الْيَقِين هنا هو الموت ومقدماته.[4]

وفي صحيح البخاري، عن خَارِجَةُ بن زَيْدِ بن ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلاءِ، امْرَأَةً من الأَنْصَارِ، بَايَعَتْ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَخْبَرَتْهُ: (أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لنا عُثْمَانُ ابن مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ في أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الذي تُوُفِّيَ فيه، فلما تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ في أَثْوَابِهِ، دخل رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقلت: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لقد أَكْرَمَكَ الله، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، وما يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ، فقلت: بِأَبِي أنت يا رَسُولَ اللهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله، فقال: أَمَّا هو، فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، والله إني لأَرْجُو له الْخَيْرَ، والله ما أَدْرِي وأنا رسول اللهِ ما يُفْعَلُ بِي، قالت: فَوَ اللهِ لا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا).[5]

وفي أضواء البيان، أن هذا الحديث الصحيح يدل على أن اليقين الموت، وقول من قال إن المراد باليقين انكشاف الحقيقة، وتيقن الواقع لا ينافي ما ذكر؛ لأن الإنسان إذا جاءه الموت

1. الذاريات: 56.
2. المدثر: 43-48.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/162-163.
4. الكشاف: 4/656-657.
5. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه.

ظهرت له الحقيقة يقيناً، ولقد أجاد التهامي في قوله:

والعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري [1]

منهج العبادة حتى الموت

العبادة في الحياة حتى مجيء الموت، منهج الأنبياء والصالحين من قبل ومن بعد، فرسول الله عيسى بن مريم، عليهما السلام، أكد التزامه بهذا المنهج، كما جاء في قوله تعالى: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}.[2]

والله تعالى قرن الأمر بأداء العبادة بالتطلع إلى الآخرة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}.[3]

ونهى إبراهيم، عليه السلام، أبناءه، وهو يوصيهم بالخير عن ترك الإسلام، وأمر بالثبات عليه إلى أن يأتيهم الموت، فقال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}.[4]

فالاستعداد بالعبادة للموت، هو منهج الرسل والأنبياء، عليهم السلام، والصالحين من أتباعهم، فعن ابن عُمَرَ أَنَّهُ قال: (كنت مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَجَاءَهُ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قال: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، قال: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قال: أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ).[5]

وأمر الله تعالى عباده بأن يجودوا بالإنفاق في وجوه الخير، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال

1. أضواء البيان: 324/2.
2. المائدة: 117.
3. آل عمران: 102.
4. البقرة: 132.
5. سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، وحسنه الألباني.

ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، فإذا ما جاء الإنسان الموت، تنقطع به سبل الفرص؛ لتقديم مزيد من أعمال البر والتقوى، فلينتهز لحظات حياته لأدائها، وفي هذا يقول الله تعالى: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ }.[1]

الموت حق والله القاهر فوق عباده

يؤكد الله تعالى حقيقة تعرض خلقه جميعاً للموت المفني، فيقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}.[2]

ويقول جل شأنه: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْكْرَامِ}.[3]

فالخلق إلى فناء لازم، ولن يبقى خالداً إلا الله تعالى، واجب الوجود، خالق الخلق، ومحييهم ومميتهم، والمستعلي عليهم، مصداقاً لقوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}.[4]

ومعنى القاهر هنا؛ أي المستعلي، والحفظة هم ملائكة، تحصي أعمال الخلق، حتى إذا جاء أحدهم الموت، توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، وهم لا يقصرون فيما يؤمرون به. فإذا دنا الموت من صاحبه، لن يجد لنفسه مهرباً، ولا مناصاً، سوى التسليم والاستسلام، ثم يعرض على الحساب، فإن كان محسناً فنعم القرار، وإن كان مسيئاً فبئس المهاد، والعياذ بالله تعالى، وهو القائل جل شأنه: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.[5]

---

1. المنافقون: 10.
2. الأنبياء: 35.
3. الرحمن: 26-27.
4. الأنعام: 61.
5. الجمعة: 8.

ويمثل الموت بالنسبة إلى من حقَّ عليه الانتقال النهائي عن الدنيا وعيشها ولوازمها، فعن عَائِشَةَ، قالت: (كان رِجَالٌ من الْأَعْرَابِ جُفَاةً، يَأْتُونَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ؟ فَكَانَ يَنْظُرُ إلى أَصْغَرِهِمْ، فيقول: إن يَعِشْ هذا لا يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ؛ حتى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ. قال هِشَامٌ: يَعْنِي مَوْتَهُمْ).[1]

ولكل أجل كتاب، لا يتقدم صاحبه عنه ساعة ولا يتأخر، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.[2]

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً}.[3]

فنهاية آجال الخلق حتمية لازمة، وحسابهم آتٍ آت، فينبغي عليهم أن يعبدوا الله في حياتهم، ولا يفرطوا، على منهج: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا إلى حسن عبادته، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، وأن يميتنا على حسن طاعته وعبادته سبحانه وتعالى، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن والاه واتّبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت.
2. الأعراف: 34.
3. فاطر: 45

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين ـ الحلقة الأولى

يخاطب الله تعالى نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، في محكم التنزيل، فيقول جل شأنه: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}.[1]

يأمر الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية الكريمة باقتفاء أثر الوحي، والعمل به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه؛ لأنه موحى به من الله الذي لا إله إلا هو، ويأمره فيها كذلك بالإعراض عن المشركين؛ أي بالعفو عنهم والصفح، واحتمال أذاهم حتى يفتح الله له، وينصره، ويظفره عليهم.[2]

فالله تعالى يوجه رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، في هذا الخطاب الرباني إلى أمرين بينهما صلة وثيقة، أما أحدهما فيخص اتّباع ما يأتيه وحياً من الله تعالى، والثاني فيتعلق بالإعراض عن المشركين، ومما لا ريب فيه أن العمل بمقتضى وحي السماء، يمثل مستلزماً إيمانياً، يعبر عن انصياع لله، منزل الوحي، القائل في محكم القرآن الكريم: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}.[3]

وحيث إن العمل بموجب الوحي يواجهه الشيطان وحزبه بالعداء، وحتى لا يقضي الدعاة وقتهم في مهاترات هواة مخاصمة الحق، فإن الله تعالى أمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، أمير الدعاة وأسوتهم، بالإعراض عن المشركين؛ ليشغل نفسه عوضاً عن ذلك في أداء مهمته الأم، المتمثلة في حمل رسالة الإسلام، والدعوة إليه، وتبليغه للخلق جميعاً.

1. الأنعام: 106
2. تفسير ابن كثير: 164/2.
3. النساء: 65.

وفي تفسير أبي السعود، إنه لما حكي عن المشركين قدحهم في تصريف الآيات، عقب ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما هو عليه، وبعدم الاعتداد بهم وبأباطيلهم؛ أي دم على ما أنت عليه، من اتّباع ما أوحي إليك، من الشرائع والأحكام التي عمدتها التوحيد. وقوله تعالى: {لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ}اعتراض بين الأمرين المتعاطفين، مؤكد لإيجاب اتّباع الوحي، لا سيما في أمر التوحيد، وقد جوز أن يكون حالاً من ربك، أي منفرداً في الألوهية.

وقوله تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}؛ أي لا تحتفل بهم وبأقاويلهم الباطلة، التي من جملتها ما حكي عنهم آنفاً، ومن جعله منسوخاً بآية السيف، حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم[1]، وآية السيف هي قوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.[2]

تبليغ الدعوة والإعراض عن المشركين

الأمر بالإعراض عن المشركين وجهه الله تعالى لرسوله، صلى الله عليه وسلم، مقترناً كذلك بأمره بتبليغ الرسالة الربانية التي أوحى الله بها إليه، فقال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}.[3]

جاء في أضواء البيان، أن هذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه، صلى الله عليه وسلم، بتبليغ ما أمر به علناً، في غير خفاء، ولا مواربة، وأوضح الله تعالى هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.[4]

---

1. تفسير أبي السعود: 171/3.
2. التوبة: 5.
3. الحجر: 94.
4. المائدة: 67.

ومعنى قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}؛ أي فاجهر به وأظهره، من قولهم صدع بالحجة، إذا تكلم بها أو صرح جهاراً.

قوله: {فَاصْدَعْ} قال بعض العلماء: أصله من الصدع، بمعنى الإظهار، والمعنى على هذا القول أظهر ما تؤمر به، وبلغه علناً على رؤوس الأشهاد، وعلى هذا القول {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}؛ أي فرق بين الحق والباطل بما أمرك الله بتبليغه.

وقوله: {بِمَا تُؤْمَرُ} يحتمل أن تكون (ما) موصولة، ويحتمل أن تكون مصدرية.

قوله تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء:

أحدهما: أن معنى {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}؛ أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك، فالله حافظك منهم.

والآية على هذا التأويل معناها؛ فاصدع بما تؤمر؛ أي بلغ رسالة ربك، وأعرض عن المشركين؛ أي لا تبال بهم، ولا تخشهم، وهذا المعنى كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.[1]

الوجه الثاني، وهو الظاهر في معنى الآية؛ أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف، ومن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}.[2]

وقوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ}[3]، وقوله: {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[4]، وقوله تعالى: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ

1. المائدة: 67.
2. الأنعام: 106.
3. السجدة: 30.
4. النجم: 29.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}[1]، إلى غير ذلك من الآيات.[2]

الأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين

الله تعالى أمر رسوله، صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين، مقترناً بالأمر باتّباع ما يوحى إليه من ربه، ومقترناً كذلك في آية أخرى بتبليغ الدعوة، وفي آية ثالثة صدر الأمر الإلهي للنبي، صلى الله عليه وسلم، بالإعراض عن الجاهلين مقترناً بالأمر بأخذ العفو، والأمر بالعرف، فقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}.[3]

جاء في صحيح البخاري، أن الْعُرْفُ المَعْرُوفُ، وعن عبد اللهِ بن الزُّبَيْرِ: {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} قال: ما أَنْزَلَ الله إلا في أَخْلاقِ الناس. وعن عبد اللهِ بن الزُّبَيْرِ، قال: (أَمَرَ الله نَبِيَّهُ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ من أَخْلاقِ الناس، أو كما قال).[4]

قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ}؛ أي ما تيسر، من عفى بمعنى يسر.[5]

وجاء في التفسير الكبير للرازي، أن الله تعالى بين في هذه الآية الكريمة ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس، فقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} وعند أهل اللغة، أن العفو الفضل، وما أتي من غير كلفة.

والحقوق التي تُستوفَى من الناس، وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول، فهو المراد بقوله {خُذِ الْعَفْوَ}ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة،

---

1. الأحزاب: 48.
2. أضواء البيان: 319/2-321.
3. الأعراف: 199.
4. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأعراف، باب {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} (الأعراف: 199).
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 70/1.

كما قال تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}.[1]

ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.[2]

وأما القسم الثاني، وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والمعروف والعارفة، هو كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو، ولم يأمر بالعرف، ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعياً في تغيير الدين، وإبطال الحق، وأنه لا يجوز.

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة، للوقوف عند مزيد من التوجيهات الربانية، التي تحث على اتّباع الوحي والحق، والإعراض عن الجاهلين والمنافقين والمشركين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 159.
2. النحل: 125.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين ـ الحلقة الثانية

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (قَدِمَ عُيَيْنَةُ بن حِصْنِ بن حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ على ابن أَخِيهِ، الْحُرِّ بن قَيْسٍ، وكان من النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وكان الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أو شُبَّانًا، فقال عُيَيْنَةُ لابن أَخِيهِ: يا ابن أَخِي؛ لك وَجْهٌ عِنْدَ هذا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لي عليه، قال: سَأَسْتَأْذِنُ لك عليه، قال ابن عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ له عُمَرُ، فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الْخَطَّابِ، فَوَ اللهِ ما تُعْطِينَا الْجَزْلَ، ولا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حتى هَمَّ بِهِ، فقال له الْحُرُّ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قال لِنَبِيِّهِ، صلى الله عليه وسلم: {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عن الْجَاهِلِينَ}، وَإِنَّ هذا من الْجَاهِلِينَ، والله ما جَاوَزَهَا عُمَرُ حين تَلاهَا عليه، وكان وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ). (*)

يأتي الاستشهاد بهذه الرواية الصحيحة في سياق مواصلة الحديث عن أمر الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، باتباع الوحي، والإعراض عن المخالفين من المشركين، والمنافقين، والجاهلين، حيث تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية المباركة للحديث عن الأمر الإلهي باقتفاء أثر الوحي، والعمل به، وتبليغ الدعوة، والإعراض عن المشركين والجاهلين، وما يترافق مع ذلك من الدعوة إلى الدين الحق، بالرفق واللطف، وهذه الحلقة تستهل بحديث صحيح، يشير إلى فهم الرعيل الأول من المسلمين، لمسألة الإعراض عن الجاهلين، وتطبيق معطياتها في واقعهم، فهذا الحديث يتضمن ذكر حادثة جرت في حضرة أمير المؤمنين الفاروق، عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذ جاءه منتقد لاذع، فقال له جهاراً

*. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأعراف، باب {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} (الأعراف: 199).

نهاراً: (يا ابن الْخَطَّابِ؛ فَوَ اللهِ ما تُعْطِينَا الْجَزْلَ، ولا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ) فهذا طعن صريح في شخص عمر، يصرح به إليه مواطن وجهاً لوجه، دون خوف ولا وجل، وعمر في بداية الأمر انتابه الشعور بالغضب مما سمع، وهو بشر، تجري عليه أحوال البشر، إلا أنه سرعان ما ضبط نفسه، ووضع حداً لغضبه وانفعاله، بعد أن سمع التذكير بقول الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم: {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عن الْجَاهِلِينَ}

قوله: (ما تُعْطِينَا الْجَزْلَ)؛ أي ما تعطينا العطاء الكثير، وأصل الجزل ما عظم من الحطب، ثم استعير منه أجزل له في العطاء؛ أي أكثره. وقوله (ما جَاوَزَهَا)؛ أي ما جاوز الآية المذكورة، يعني لم يتعدَّ عن العمل بها. وقوله: (وكان وَقَّافًا) مبالغة في واقف، ومعناه أنه إذا سمع كتاب الله يقف عنده، ولا يتجاوز عن حكمه. [1]

الإعراض عن المنافقين

أمر الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، بالإعراض عن المنافقين في ظروف عديدة، يجمعها قاسم مشترك، يقوم على وجود خصائص المنافقين الملازمة لهم، والمصبوغة بالخداع والتضليل، وخلف العهود، ونبذ الوعود، ومن الآيات القرآنية التي تناولت هذه المسألة بالعرض والتحليل والتوجيه، قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}. [2]

أصحاب زعم الطاعة، يبطنون المعصية والخداع، وهم الذين أخبر الله عنهم، أنهم لما كتب عليهم القتال، خشوا الناس كخشية الله، أو أشد خشية [3]، وفيهم يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا

1. عمدة القاري: 243/18.
2. النساء: 81.
3. تفسير الطبري: 177/5.

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}[1]

جاء في تفسير البغوي، أن قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ} يعني المنافقين، يقولون باللسان للرسول، صلى الله عليه وسلم: إنا آمنا بك، فمرنا، فأمرك طاعة، قال النحويون: أي أمرنا، وشأننا أن نطيعك.

{فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ}؛ أي خرجوا من عندك، {بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ} قال قتادة والكلبي: بَيَّتَ؛ أي غير وبدل الذي عهد إليهم النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال أبو عبيدة والقتيبي معناه: قالوا وقدروا ليلاً، غير ما أعطوك نهاراً، وكل ما قدر بليل فهو مبيت. {وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ}؛ أي يثبت ويحفظ ما يزورون، ويغيرون، ويقدرون، وقال الضحاك عن ابن عباس: يعني ما يسرون من النفاق.

{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}؛ فأعرض عنهم يا محمد، ولا تعاقبهم، وقيل: لا تخبر بأسمائهم، إذ مُنِعَ الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الإخبار بأسماء المنافقين.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}؛ أي اتخذوه وكيلاً، وكفى بالله وكيلاً وناصراً.[2]

وقيل: إن حكم الإعراض الوارد في هذه الآية الكريمة نُسِخَ بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[3] [4]

وفي سورة النساء، وجه الله تعالى الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الإعراض عن المنافقين، بعد أن ذكر جل شأنه بعض صفاتهم وخصائصهم، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ

---

1. النساء: 77.
2. تفسير البغوي: 455/1.
3. التوبة: 73، والتحريم: 9.
4. تفسير السمرقندي: 346/1.

وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً* أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً}.[1]

إعراض مترافق مع الوعظ

الله تعالى في قوله: {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} يكذب المنافقين، ويتوعدهم؛ أي فهو مجازيهم بما يعلم. وقوله:{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} يعني أعرض عن معاقبتهم، وعن شغل البال بهم، وعن قبول أيمانهم الكاذبة في قوله: {يَحْلِفُونَ} وليس بالإعراض الذي هو القطيعة والهجر، فإن قوله {وَعِظْهُمْ} يمنع من ذلك، وعظهم بالتخويف من عذاب الله، وغيره من المواعظ.

أما بالنسبة إلى قوله تعالى:{وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً} فقد اختلف فيه، فقيل: هو الزجر، والردع، والكف بالبلاغة من القول، وقيل: هو التوعد بالقتل، إن استداموا حالة النفاق، قاله الحسن، وهذا أبلغ ما يكون في نفوسهم، والبلاغة مأخوذة من بلوغ المراد بالقول. [2]

توجيهات للمؤمنين بشأن الإعراض

لم يقف الأمر الإلهي عند حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الإعراض عن المنافقين، بل ورد الأمر بذلك لمختلف شرائح المؤمنين، فخاطب الله تعالى جمعهم بهذا الأمر، فقال تعالى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}. [3]

1.النساء: 60-63.
2. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 73/2.
3. التوبة: 95.

فَدَيْدن أهل النفاق اللجوء إلى الحلف، وتغليظ الأيمان، كوسيلة لتمرير خداعهم، وتسويق باطلهم، والنجاة من حساب البشر، غير أن الإيمان يقتضي العمل للنجاة من حساب رب البشر، ويبين صاحب تفسير الكشاف أن المنافقين أقسموا {لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ}، فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم، {فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ} فأعطوهم طلبتهم، {إِنَّهُمْ رِجْسٌ} تعليل لترك معاتبتهم؛ يعني أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم، ولا تصلحهم، والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه؛ ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة، والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم، {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ}؛ يعني وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم.(*)

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة، للوقوف عند مزيد من التوجيهات الربانية، التي تحث على اتّباع الوحي والحق، والإعراض عن المخالفين من الجاهلين، والمشركين، والمنافقين، الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ الله تعالى وأشياعهم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. الكشاف: 287/2.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين ـ الحلقة الثالثة

يخاطب الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، في قرآنه الكريم قائلاً: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}. (*)

ختماً للحديث عن أمر الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، باتّباع الوحي، والإعراض عن المخالفين من المشركين، والمنافقين، والجاهلين، حيث تم في الحلقتين السابقتين من هذه الزاوية المباركة الوقوف عند بعض جوانب هذه القضية القرآنية، وتواصل هذه الحلقة الحديث عن بعض صور الإعراض، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في سياق التوجيهات الربانية الموجهة لنبيه، صلى الله عليه وسلم، ولأمته من بعده، ومن تلك الصور ما تضمنته الآية الثانية المذكورة أعلاه، من تخيير بين الإعراض عن الحكم بين السماعين للكذب الآكلين للسحت من أهل الكتاب أو المنافقين، أو الحكم بينهم، جاء في تفسير الثعالبي، أن قوله تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} يراد به اليهود، ويحتمل أن يراد به اليهود مع المنافقين؛ لأن جميعهم يسمع الكذب بعضهم من بعض، ويقبلونه، ولذلك جاءت عبارة

*. المائدة: 41-42

سماعهم في صيغة المبالغة؛ إذ المراد أنهم يقبلون ويستزيدون من ذلك، وقوله سبحانه: {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} يحتمل أن يريد يسمعون منهم، ويحتمل أن يكون معنى سماعون لقوم آخرين بمعنى جواسيس مسترقين الكلام؛ لينقلوه إلى قوم آخرين، وهذا مما يمكن أن يتصف به المنافقون ويهود المدينة، وقوله سبحانه: {أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} فعالون بناء مبالغة؛ أي يتكرر أكلهم ويكثر، والسحت كل ما لا يحل كسبه من المال.

وقوله تعالى: {فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} تخيير للنبي، صلى الله عليه وسلم، ولحكام من أمته بعده، وقال ابن عباس وغيره: هذا التخيير منسوخ بقوله سبحانه: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ...}[1] ، وقال كثير من العلماء: هي محكمة، ويرى الثعالبي أن هذا هو الأظهر إن شاء الله.

ومن فقه هذه الآية أن حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في تظالمهم، وأما نوازل الأحكام التي لا تظالم فيها، فالحاكم مخير، وإذا رضي به الخصمان، فلا بد من رضا أساقفتهم أو أحبارهم، قاله ابن القاسم في العتبية، وعن مالك، ولا يحكم بينهم إذا اختار الحكم إلا في المظالم، فيحكم بينهم بما أنزل الله، ولا يحكم فيهم في الزنى إلا أن يعلنوه، فيعاقبون بسبب إعلانه، ثم يردون إلى أساقفتهم، قال مالك: وإنما رجم النبي، صلى الله عليه وسلم، اليهوديين قبل أن تكون لهم ذمة.

وقوله تعالى: {وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً} أمن الله سبحانه نبيه من ضررهم؛ إذا أعرض عنهم، وحقر في ذلك شأنهم.[2]

وفي التفسير الكبير، أن الله تعالى خيّره بين الحكم فيهم، والإعراض عنهم، واختلفوا

1. المائدة: 49.
2. تفسير الثعالبي:1/462-463.

فيه على قولين:

الأول: أنه في أمر خاص، قيل إنه في زنى المحصن، وأن حده هو الجلد والرجم.

وقيل: إنه في قتيل قتل من اليهود في بني قريظة والنضير، وكان في بني النضير شرف، وكانت ديتهم دية كاملة، وفي قريظة نصف دية، فتحاكموا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فجعل الدية سواء. وقيل: إن هذا التخيير مختص بالمعاهدين الذين لا ذمة لهم، فإن شاء حكم فيهم، وإن شاء أعرض عنهم.

والقول الثاني: إن الآية عامة في كل الكفار، ومذهب الشافعي أنه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الذمة إذا تحاكموا إليه، فأما المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد إلى مدة، فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم، بل يتخير في ذلك، وهذا التخيير الذي في هذه الآية مخصوص بالمعاهدين.

ثم قال تعالى: {وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً} والمعنى أنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأسهل، والأخف، كالجلد مكان الرجم، فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم، شق عليهم إعراضه عنهم، وصاروا أعداء له، فبيّن تعالى أنه لا تضره عداوتهم له.[1]

الإعراض عن الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللّه

من صور الإعراض الأخرى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في سياق التوجيهات الربانية الموجهة للنبي، صلى الله عليه وسلم، ولأمته من بعده، الإعراض عن الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ الله، فيقول تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ}[2]

ورد في التفسير أن هذا خطاب للنبي، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون داخلون في الخطاب

1. التفسير الكبير: 11/185-186.
2. الأنعام: 68

معه؛ لأن علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه، فأُمِرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون أن ينابذوا الكفار بالقيام عنهم، إذا استهزءوا وخاضوا؛ ليتأدبوا بذلك، ويدعوا الخوض والاستهزاء، ويدل على دخول المؤمنين مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في الخطاب قوله تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}. [1]

أعرض في هذه الآية بمعنى المفارقة، على حقيقة الإعراض، وأكمل وجوهه، ويدل على ذلك {فَلاَ تَقْعُدْ} روي أنه لما نزلت {فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ} قال المؤمنون: إذا كنا لا نقرب المشركين، ولا نسمع أقوالهم، فلا يمكننا طواف، ولا قضاء عبادة في الحرم، فنزلت لذلك {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[2]، فالإباحة في هذا هي في القدر الذي يحتاج إليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها، وقيل: إن هذه الآية الأخيرة ليست إباحة بوجه، وإنما معناها لا تقعدوا معهم، ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءهم وخوضهم، وليس نهيكم عن القعود؛ لأن عليكم شيئاً من حسابهم، وإنما هو ذكرى لكم.

ويحتمل المعنى ولكن ذكرى لعلهم إذا جانبتموهم، يتقون بالإمساك عن الاستهزاء، ويحتمل المعنى ولكن ذكروهم ذكرى، وينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه. [3]

فهذه بعض صور الإعراض في معناه الإيجابي، الذي يصب في معين خدمة الأغراض النبيلة لديننا الحنيف، مع مراعاة أداء الدعوة إلى الله على الوجه الصحيح، دون كلل ولا

1. النساء: 140.
2. الأنعام: 69.
3. تفسير الثعالبي: 1/529-530.

ملل، ودون إحباط ولا يأس، ودون مداهنة أو مجاملة لباطل، فالله تعالى أمرنا بما أمر به رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالإعراض عن عبادة الكافرين في سورة سميت باسمهم، وقال الله تعالى فيها: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ* وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}.[1]

وطمأننا الله تعالى بما طمأن نبيه، صلى الله عليه وسلم، حين أمره بالإعراض عن متنكبي درب الحق، فالعاقبة له ولأهله، والويل للظالمين، وفي هذا الوعد وذاك الوعيد يقول تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ}.[2]

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الكافرون: 1-6.
2. السجدة: 30.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

استقام لأمر ربه ولم يجاوز حدوده

يخاطب الله نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.[1]

روي عن ابن عباس، قوله: ما نزلت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في جميع القرآن آية كانت أشدّ، ولا أشقّ عليه من هذه الآية، ولهذا قال: شيبتني هود والواقعة وأخواتهما.

وروي أنّ أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب، فقال: شيبتني هود، وعن بعضهم، رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في النوم، فقلت له: روي عنك أنك قلت شيبتني هود، فقال: نعم. فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}.[2]

وفي التفسير الكبير، أن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة؛ لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ، وجب اعتبار الترتيب فيها، لقوله: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الإبل من الإبل، والبقر من البقر، وجب اعتبارها، وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به. ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار، قال ابن عباس: يريد تواضعوا لله تعالى، ولا تتكبروا على أحد، وقيل: ولا تطغوا في القرآن، فتحلوا حرامه، وتحرموا حلاله، وقيل: لا تتجاوزوا ما أُمرتم به، وحُدَّ لكم، وقيل ولا تعدلوا عن طريق شكره، والتواضع له، عند عظم نعمه عليكم، والأولى دخول الكل فيه.[3]

---

1. هود: 112.
2. الكشاف: 2/407-408.
3. التفسير الكبير: 18/57.

وفي تفسير أبي السعود، أن قوله تعالى: {وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}؛ أي ولا تنحرفوا عما حد لكم بإفراط أو تفريط، فإن كل طرف قصد الأمور ذميم، وإنما سمى ذلك طغياناً، وهو تجاوز الحد، تغليظاً، أو تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام: {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، فيجازيكم على ذلك، وهو تعليل للأمر، والنهي، وفي الآية دلالة على وجوب اتّباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأي؛ فإنه طغيان وضلال، وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص، فذلك من باب الاستقامة كما أمر، على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد.[1]

فالله تعالى أمر نبيه، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين بالاستقامة على أمره، فيفعلون المعروف ويأمرون به، وينتهون عن المنكر وينهون عنه، معيارهم في ذلك أمر الله تعالى، فما أمر به فهو المعروف، وما نهى عنه فهو المنكر، والعمل وفق هذا المعيار يتعلق به الشأن كله، العقيدة والعبادة والمعاملة، والطعام والشراب، والزواج والطلاق، والزينة واللباس، والمآتم والأفراح، والعلاقات الشخصية، والاجتماعية، والدولية، ومع الأعداء والأصدقاء، وما إلى ذلك من شؤون الأمر كله ومتعلقاته، الحاضرة والمستجدة.

الصرامة في طلب الاستقامة على أمر الله تعالى

الاستقامة على أمر الله تعالى هي طريق النجاة والفوز، فعن عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قُلْ لِي قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ). [2]

وأي انحراف عن نهج الاستقامة على أمر الله تعالى هو الطغيان بعينه، يستوي في ذلك تحريم الحلال، واستباحة الحرام، فالله تعالى أنكر على نبيه، صلى الله عليه وسلم، تحريمه ما أحل الله تعالى له، فجاء في فاتحة سورة التحريم، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ

1. تفسير أبي السعود: 245/4.
2. صحيح ابن حبان: 221/3.

لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[1]

فلا يقبل حتى من النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يختار حكماً مغايراً لحكم الله تعالى، وقد تكرر الخطاب الموجه للنبي، صلى الله عليه وسلم، بهذا الشأن في مناسبات أخرى، تتعلق بأسباب وأحداث مختلفة، لكنها تندرج في سياق الأمر بالتزام منهج الله تعالى، في الشأن كله، ففي مسألة الحرج، الذي انتاب النبي، صلى الله عليه وسلم، حين أمره الله تعالى بالزواج من مطلقة متبناه في ذاك الوقت، زيد بن حارثة، فتلكأ في تنفيذ الأمر، نزل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}.[2]

فكان لله تعالى حكمة بالغة من وراء الإصرار على تنفيذ هذا الأمر الموجه لنبيه، صلى الله عليه وسلم، رغم تعلقه من ناحيته بشأن شخصي له، يخص زواجه من تلك المرأة التي سبق أن زوجها لمولاه زيد، ولم تصلح العشرة بينها وبينه، فأمره الله، أن يطلقها من مولاه زيد ويتزوجها، فتردد النبي، صلى الله عليه وسلم، في البداية تجاه تنفيذ الأمر، فنزلت الآية تشرح الموقف، وتعقب عليه، وتعلن رفع الحظر الخاص بالمتبنى، فهو ليس ابن حقيقي لمتبنيه، وإنما العدل والحق أن ينسب لأبيه الحقيقي، وليس الدّعي، وفي هذا يقول تعالى: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

1. التحريم: 1
2. الأحزاب: 36-38.

فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً}.[1]

التحذير من تجاوز حدود الله

نهى الله تعالى المؤمنين عن انتهاج مسار تحريم المباحات، مع التقيد بالامتناع عن تجاوز حدود العدل والشرع؛ لأن هذا التجاوز إن حصل، فهو اعتداء يبغضه الله، وفي هذا يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.[2]

فبعض الناس يظنون أنهم يفعلون خيراً، وينالون فضلاً بتحريمهم بعض المباحات، وما كان لهم أن يلجأوا إلى هذا المنحى المنحرف، لو أنهم تدبروا نهي الله تعالى الوارد في قوله سبحانه: {لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ} فالطيبات أحلها الله، ويحرم تحريمها من بعد إباحة الله لها، والشطط في طلب الطيبات مذموم أيضاً، سواء بالإسراف أم السعي لطلبها بالحرام، أو غير ذلك من الذنوب، فالله تعالى يقول: {كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}.[3]

فما أجمل أن يستفيد المرء من آلاء الله التي تفضل بإنعامها عليه! فيأكل من الطيبات، ويلبس من المباحات، ويتجمل بالخيرات، دون سرف، ولا تجاوز لحدود الله، فلا يقرب الحرام؛ لأنه إن رتع في الآثام، فقد استحق غضب الله، والعياذ بالله من هذا المنزلق الخطير، المفضي إلى سوء المصير.

فالطغيان يعني تجاوز حدود الاعتدال، والحق في المواقف، والسلوك، والتعامل مع الخالق وخلقه، ولما نهى الله عن السرقة في الوزن، استخدم سبحانه مصطلح الطغيان، فقال تعالى:

---

1. الأحزاب: 5.
2. المائدة: 87.
3. طه: 81.

{أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ}[1]، وأنزل الله سورة اختار لها اسماً ينتسب إلى أفعال الطغيان في الميزان، وافتتحها جل شأنه بوعيد أصحاب تلك الأفعال، ففي فاتحة سورة المطففين، يقول تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ*الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}.[2]

أعاننا الله على الاستقامة على أمره، والابتعاد عن تجاوز حدوده جل شأنه، متأسين بخير الأنام نبينا العدنان، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الرحمن: 8.
2 المطففين: 1-6.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
ودعاؤه عند الشدائد

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ، يقول: لَا إِلَهَ إلا الله الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إلا الله، رَبُّ السماوات وَالْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمَ). [3]

يثبت هذا الحديث الشريف وصفاً لسلوك النبي، صلى الله عليه وسلم، عندما كانت تنزل به شدة أو بلاء، وفي رواية صحيحة أخرى تم التعبير عن الكرب بعبارة (حَزَبَهُ أَمْرٌ)، فعن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ، قال فذكر بِمِثْلِ حديث المذكور أعلاه، وزاد مَعَهُنَّ لَا إِلَهَ إلا الله رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمَ). [4]

والكَرْبُ في اللغة، هو الـحُزْنُ والغَمُّ الذي يأْخذُ بالنَّفْس، وجمعه كُرُوب.[5] والكرب في الاصطلاح، هو ما يصيب الإنسان أو الناس من حزن وغم بسبب بلاء أو محن، تصيب نفوسهم أو أبدانهم، أو أموالهم أو أبناءهم، ونحو ذلك.

والمقصود بحزبه أمر؛ أي نابه، وألَّم به أمر شديد.[6]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد على رفض الاستسلام للكرب الذي ينتاب الخلق، إضافة إلى ربط معالجته بالإيمان، فتوجه المكروب إلى الله بالذكر والدعاء، مؤشر على إيمانه بأن الأمور بيد الله تعالى، يصرفها كيف يشاء، فهو الواحد الأحد، رَبُّ السماوات وَالْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمَ، إذا أراد أن يفرّج الكرب، فإنما يقول له كن فرجاً فيكون.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب.
2. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب.
3. لسان العرب: 41/13.
4. صحيح مسلم بشرح النووي: 48/17.

التَّعَوُّذ من جَهْدِ الْبَلَاءِ

إلى جانب الدعاء المذكور أعلاه، فقد (كان رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَتَعَوَّذُ من جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ).[1]

ورد في فتح الباري أن الجهد بفتح الجيم، وبضمها، المشقة، وجهد البلاء؛ كل ما أصاب المرء من شدة ومشقة، ومالا طاقة له بحمله، ولا يقدر على دفعه، وقيل قلة المال، وكثرة العيال. وإنما تعوذ النبي، صلى الله عليه وسلم، من ذلك؛ تعليماً لأمته، فإن الله تعالى، كان أمّنه من جميع ذلك، وقيل: ولا يتعين ذلك، بل يحتمل أن يكون استعاذ بربه من وقوع ذلك بأمته. وفي الحديث مشروعية الاستعاذة وفائدتها، والدعاء إظهار العبد فاقته لربه، وتضرعه إليه.[2]

الاستعانة بالصبر والصلاة

أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة على ما يحل بهم من مصائب وكروب، فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}[3]، قال المفسرون معنى الآية استعينوا على ما يستقبلكم من أنواع البلايا بالصبر والصلاة.[4]

واستطرد القرآن الكريم في بيان أحوال الصابرين وجزائهم، وذلك بعد حثهم على الاستعانة بالصبر والصلاة، وإرساء قاعدة خاصة بالشهداء، تظهر أنهم أحياء غير أموات، فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.[5]

1.صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء.
2. فتح الباري: 148/11-149.
3. البقرة: 45.
4. عمدة القاري: 100/8.
5.البقرة: 153-157.

فصلوات الله ورحمته تحل على الصابرين على ما أصابهم من جهد البلاء، وتلك بشرى من الله مثبتة للصابرين المحتسبين أمام ابتلاء الله لهم بالخوف، والجوع، وَنَقْص الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ.

التَّوَسُّلِ إلى الله عند الكرب بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ

من الثابت في مبادئ ديننا الحنيف أن صالح الأعمال تفيد في استجلاب الفرج، فالله ينزل الغيث على المستغفرين، ويفرج كرب المكروبين، فعلى لسان نوح، عليه السلام، يقول تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ}[1]، وتكرر ذكر دعوة نوح، عليه السلام، هذه لقومه في السورة التي سميت باسمه، فيقول تعالى: {ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً* فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً}.[2]

فالاستغفار يستجلب غيث السماء، والمدد بالأموال والبنين، إضافة إلى الجنات وما فيها من نعيم مقيم، وتقوى الله مفتاح الفرج، مصداقاً لقوله تعالى: {...وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً}[3]، وهي مفتاح التيسير والتوفيق في الأمر كله، فيقول تعالى:{...وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً}.[4]

ومن الروايات الصحيحة التي تثبت حقيقة تفريج الكرب بصالح الأعمال، ما جاء عن نَافِعٍ عن عبد اللهِ بن عُمَرَ، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ، أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إلى غَارٍ في جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ على فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ من الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عليهم، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلهِ، فَادْعُوا

1. هود: 52.
2. نوح: 9-12.
3. الطلاق: 2.
4. الطلاق: 4.

اللهَ تَعَالَى بها، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فقال أَحَدُهُمْ: اللهم إنه كان لي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، ولي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عليهم، فإذا أَرَحْتُ عليهم، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قبل بني، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فلم آتِ حتى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قد نَامَا، فَحَلَبْتُ كما كنت أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رؤوسهما، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا من نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أسقي الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلك دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ، حتى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أني فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لنا منها فُرْجَةً، نَرَى منها السَّمَاءَ، فَفَرَجَ الله منها فُرْجَةً، فَرَأَوْا منها السَّمَاءَ، وقال الْآخَرُ: اللهم أنه كانت لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ، أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ ما يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حتى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حتى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بها، فلما وَقَعْتُ بين رِجْلَيْهَا، قالت: يا عَبْدَ اللهِ؛ اتَّقِ اللهَ، ولا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إلا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عنها، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أني فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لنا منها فُرْجَةً، فَفَرَجَ لهم، وقال الْآخَرُ: اللهم إني كنت اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فلما قَضَى عَمَلَهُ، قال: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عليه فَرَقَهُ، فَرَغِبَ عنه، فلم أَزَلْ أَزْرَعُهُ حتى جَمَعْتُ منه بَقَرًا، وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي، فقال: اتَّقِ اللهَ، ولا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قلت: اذهب إلى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا، فقال: اتَّقِ اللهَ، ولا تَسْتَهْزِئْ بِي، فقلت: إني لا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذلك الْبَقَرَ، وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ، فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أني فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لنا ما بقي، فَفَرَجَ الله ما بقي).[1]

ربط المخرجات بالمدخلات

ما ذكر آنفاً يؤكد أن التعرف إلى الله في الرخاء، يجلب الفرج في الشدة، والله تعالى صرح في قرآنه الكريم أنه يذكر ذاكريه، فقال جل شأنه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}.[2]

1. صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال.
2. البقرة: 152.

وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً).[1]

وكثيرة هي التوجيهات القرآنية والنبوية التي تربط بين المدخلات والمخرجات في مجال طاعة الله، والإنعام على من قاموا بها، فالله تعالى وعد الذين ينصرونه بالطاعة والانصياع لأمره، والعمل وفق ما يرضيه سبحانه، بأن ينصرهم على من يعاديهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.[2]

سائلين الله العلي القدير أن يعيننا وأمتنا على حسن طاعته، التي تثمر الفوز بنصره المؤزر، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: { ويحذركم الله نفسه} (آل عمران: 28).
2. محمد: 7.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
واليقين بأن النفع والضرر من عند الله ـ الحلقة الأولى

يخاطب الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. [1]

فالله تعالى يحث نبيه، صلى الله عليه وسلم، على أن يبين للناس بأنه لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً، إلا ما شاء الله، الذي بيده ذلك وحده سبحانه، فليس لأحد من الخلق مهما بلغ شأنه، وتعاظم علمه، وازدادت قوته، أن يملك خاصية النفع والإضرار حتى لنفسه التي بين جنبيه، وفي هذا تكذيب لمدَّعي القدرة على النفع والإضرار، أمثال السحرة والحساد وأصحاب القوة والجبروت، الذين كان منهم النمرود الذي حَآجَّ إبراهيم في ربه، وحاول مضاهاة قدرة الله وعظمته، فقال تعالى بشأنه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}. [2]

وما أجمل ختم هذا الموقف المحرج لمحاجج إبراهيم، عليه السلام، في ربه، {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}؛ أي فأذهب الله حجته، بأن عجز عن الإتيان بالشمس على عكس طبيعتها التي خلقها الله تعالى عليها، فهي تبزغ من المشرق، وتغيب من المغرب، ولا يملك أحد – سواء بمفرده أم بمؤازرة الناس جميعاً– أن يقلب هذه المعادلة، إلا حين يريد الله تعالى أن يجعل المخالفة للنظام الشمسي آية من آياته الباهرة في آخر الزمان، حيث يقول تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن

1. الأعراف: 188.
2. البقرة: 258.

تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ}.[1]

فالنمرود قامت عليه الحجة حين عجز عن الإتيان بالشمس من المغرب على غير عادتها، وقد انتقل إبراهيم من دليله الأول إلى هذا الدليل الثاني؛ لأنه لما ذكر للنمرود الدليل الأول، وهو الإحياء والإماتة، زعم أنه قادر على الإحياء والإماتة، مستخدماً أسلوب المجاز، فهو رأى أنه حين يأمر بقتل شخص يكون قد أماته، وإذا عفا عنه يكون قد أحياه، حسب زعمه وفهمه لمعنى الإحياء والإماتة ولو بالمعنى المجازي لهما، فحينئذ جاء إبراهيم، عليه السلام، بالحجة المفحمة والبيّنة، التي لا تحتمل المجاز، فطلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب فبهت وعجز.[2]

نفي استطاعة البشر عن الإتيان بالنفع والضرر إلا بإرادة الله تعالى

تكرر في القرآن الكريم الحديث عن نفي استطاعة البشر عن الإتيان بالنفع والضرر إلا بإرادة الله تعالى، وشمل هذا النفي الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو المبلغ عن الله تعالى رسالة السماء، بموجب ما أوحي إليه من ربه عز وجل، فبالإضافة إلى الآية سابقة الذكر من سورة الأعراف، فإن الله تعالى في سورة يونس يقول: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.[3]

فقوله تعالى: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً}؛ أي لا أقدر على شيء منهما بوجه من الوجوه، حتى إني لا أملك شيئاً من شؤوني، رداً وإيراداً، مع أن ذلك أقرب حصولاً، فكيف أملك شؤونكم حتى أتسبب في إتيان عذابكم الموعود؟!

وقوله تعالى: {إِلاَّ مَا شَاء اللهُ} استثناء منقطع؛ أي ولكن ما شاء الله كائناً، والمعنى لا أملك

1. الأنعام: 158.
2. بتصرف عن التسهيل لعلوم التنزيل: 1/90.
3. يونس: 49.

لنفسي شيئاً من الضر والنفع إلا ما شاء الله أن أملكه منهما.[1]

وقوله تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} يدل على أن نهايات الأفراد والأمم محددة سلفاً، ولا تحتمل التقديم أو التأجيل، فلا يملك الإنسان أن يغير في أجله شيئاً، حتى لو كان وضع نفسه في بروج مشيدة، فإن الذي كتب عليهم الموت، سيسارع إليه، وفي هذا يقول تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}[2]، ويقول تعالى: {...قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[3]

وبهذا يتضح أن البشر يعجزون عن الإتيان بالنفع غير المقدر لهم، ولا يملكون دفع الضرر المقدر عليهم، ولو توافرت لهم وسائل القوة والمنعة جميعها.

عجز الآلهة المتخذة من دونه تعالى

عجز الخلق عن الإتيان بالنفع والضرر إلا بإذن الله تعالى ثابت بحق المحبوبين، كالأنبياء، والرسل، والملائكة، والأولياء، فمن زعم منهم أنه يقدر على فعل النفع أو الضرر، بغير مشيئة الله تعالى وقدرته، فإن صفة ولايته لله تنتفي عنه، وإذا كان هذا هو الحال مع الأحباب والأولياء، فمن باب أولى أن يعجز الكفار والملحدون والآلهة المتخذة من دون الله عن الإتيان بالنفع والضرر إلا بإذن الله تعالى، وعن هذه الحقيقة الإيمانية، يقول جل شأنه: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً

1. تفسير أبي السعود: 4/151-152.
2. النساء: 78.
3. آل عمران: 154.

وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً}.[1]

فالآلهة المزعومة تلازمها صفة العجز، بينما الله جل شأنه، تشهد لقدرته المطلقة الآيات العظيمة في الخلق والحوادث والكون كله، وقد لفت سبحانه انتباه الخلق جميعاً إلى عجزهم عن بلوغ مضاهاة قدرته، حين طالبهم بهدف إظهار عجزهم بأن يخلقوا كائناً من الكائنات المتناهية في الحقارة والصغر، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[2]، فإذا ثبت عجز الخلق وآلهتهم، التي يتخذونها من دون الله عن خلق ذباب، أو دفع الضرر الذي يلحقهم من هذا الكائن البسيط، فهم لا يستطيعون استرجاع ما أخذه منهم، وبذلك يثبتون عجزهم أمام أضعف الخلق، بخلاف الله الواحد القهار، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، يحي ويميت، وإذا أراد شيئاً، فإنما يقول له كن فيكون، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، وهو القائل جل شأنه: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. [3]

وهو القاهر فوق عباده، كما جاء في قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [4]، فلا يعجزه كبير ولا صغير، ولا يفلت أحد من قبضته سبحانه، وهو القائل جل شأنه:{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}. [5]

فالله ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة، ومن الوجود إلى العدم أخرى، فلا وجود إلا

1. الفرقان: 3.
2. الحج: 73
3. آل عمران: 26.
4. الأنعام: 18
5. الأنعام: 61.

بإيجاده، ولا عدم إلا بإعدامه في الممكنات.[*]

سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان بقدرته سبحانه ومشيئته ووحدانيته، وعجز الخلق عن الفعل والترك إلا بإذنه تعالى، وإلى لقاء قادم مع حلقة أخرى نتابع فيها الحديث عن اليقين بأن النفع والضرر من عند الله تعالى، وصلى الله وسلم على رسولنا الهادي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. التفسير الكبير: 12/3-13.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
واليقين بأن النفع والضرر من عند الله ـ الحلقة الثانية

يخاطب الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول سبحانه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ* قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ* الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}. (*)

في الآيات الكريمة المذكورة أعلاه، خطاب قرآني آخر للنبي، صلى الله عليه وسلم، يتضمن طلب الله منه أن يتلو على الناس خبر حوار جرى بين إبراهيم، عليه السلام، وقومه، خلال دعوتهم إلى الإيمان بالله عز وجل، حيث ساق إبراهيم، عليه السلام، أدلة دامغة على تفرد الله سبحانه بقرارات النفع والضر، وأن أمرهما كله لله وحده، فهو الخالق جل شأنه، والهادي، والمطعم والمسقي، والشافي والمميت والمحيي والغفور، ثم توجه إبراهيم، عليه السلام، إلى الله تعالى منطلقاً من إيمانه العميق بتفرد الله بأمر النفع والضر، فسأله تعالى أن يهَب له حُكْماً، وأن يلْحِقه بِالصَّالِحِينَ، وأن يجْعَل لِّه لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وأن يجْعَله مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمَ، وأن يغْفِر لأَبِيه لأَنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وأنَ لَا يخْزِيه يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

تأتي الدعوة إلى تدبر هذه الآيات الكريمة في مستهل الحديث عن اليقين بأن النفع والضرر من عند الله، في حلقته الثانية تواصلاً مع ما تعرضت له الحلقة السابقة من قضايا

*. الشعراء: 69-82.

ذات صلة باليقين بأن النفع والضرر من عند الله وحده، فتطرقت إلى مخاطبة الله للرسول، صلى الله عليه وسلم، من قبل الله عز وجل، أن يبين للناس بأنه لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً، إلا ما شاء الله، الذي بيده ذلك وحده سبحانه، ولا أحد من الخلق يقدر على الإتيان بالنفع والضرر، بما في ذلك الآلهة المتخذة من دونه تعالى، وهو القاهر فوق عباده، لا يعجزه كبير ولا صغير، ولا يفلت أحد من قبضته سبحانه، وما ورد في الآيات الكريمة أعلاه يعزز هذا اليقين.

ليس للرسول، صلى الله عليه وسلم، من الأمر شيء

عن أَنَسٍ، شُجَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم أُحُدٍ، فقال: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، فَنَزَلَتْ: ليس لك من الأَمْرِ شَيْءٌ).[1]

وجاء عن سَالِمٍ، عن أبيه: (أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا رَفَعَ رَأْسَهُ من الرُّكُوعِ، في الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ من الْفَجْرِ، يقول: اللهم الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، بَعْدَ ما يقول: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ الله: {ليس لك من الْأَمْرِ شَيْءٌ} إلى قَوْلِهِ: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}).[2]

ففلاح الناس، أو خيبتهم وطردهم من رحمة الله باللعن، أو شملهم برحمة الله، لا يملك أمر ذلك أحد من الخلق، بل هو لله تعالى، فحتى الرسول، صلى الله عليه وسلم، حين ألمت به جراح من قومه، وسال دمه، لم يقبل منه أن يحجب الفلاح فنزل بشأن ذلك قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}[3] ، وهذه الحادثة تؤكد الحقيقة الإيمانية التي تفيد أن النفع والضر من عند الله وحده، فكم شخص كان من صناديد الكفر وعتاته، ثم أسلم، فأصبح من المسلمين، فمنع الفلاح عن الناس أو هدايتهم إلى الخير، مرد

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} (آل عمران: 128).
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} (آل عمران: 128).
3. آل عمران: 128.

ذلك كله إلى الله تعالى، وليس للرسول، صلى الله عليه وسلم، من ذلك كله شيء، ومثلما نزل في قضية منع الفلاح، قرآن يثبت نفي تملك النبي، صلى الله عليه وسلم، لهذه الخاصية، فقد نزل قرآن كذلك يثبت نفي تملكه، أمر هداية أحد من الناس، إلا بإذن الله تعالى، فقال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}.[1]

من هنا كانت مواقف النبي، صلى الله عليه وسلم، واضحة وجلية، تنفي عن نفسه خواص الألوهية، وتثبت أنه ليس إلا نبياً ورسولاً، وفي ذلك يقول تعالى على لسانه صلى الله عليه وسلم: {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}.[2]

ولما طلب منه المحاججون المعاندون آيات تعجيزية كشرط لاتّباعه والإيمان به، كان رده واضحاً لا لبس فيه، يتمثل في رفع راية العبودية لله، ونفي تلبسه بشيء من خصائص الألوهية، مؤكداً على أنه ليس إلا بشراً رسولاً، وبالتالي ليس بإمكانه أن يأتي بما يطلبون؛ لأن القادر على تحقيق تلك الطلبات هو الله وحده، وعن ذلك يقول تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً}.[3]

وكان من تعقيب الله تعالى على هذا الحوار، بيان أن الهدى والضلال يقدرهما الله تعالى لمن يشاء، دون أن يكون لأحد من الخلق تأثير على مسار هذا التقدير المحكم، فقال

1. يوسف: 103.
2. هود:31.
3. الإسراء: 90-93.

سبحانه:{وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً}.[1]

مواقف متباينة من حقيقة تملك زمام النفع والضرر

سحرة فرعون لما سطع برهان الحقيقة أمام أعينهم، أعلنوا إيمانهم بموسى وهارون، عليهما السلام، وربهما عز وجل، حيث قال تعالى: {وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ* قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ* وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ* فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ* وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ* قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}.[2]

فبعد أن كان السحرة يتطلعون لأجر فرعون ومثوبته رضوا بمخاصمته إلى جانب المؤمنين بالله ورسله، لأنهم أصبحوا موقنين بأن النفع والضر بيد الله تعالى وحده، فلا محي ولا مميت، ولا رزاق ومعطي، ولا مانع حقيقي إلا هو سبحانه، هذا موقف المؤمنين بهذه الحقيقة، بينما الكافرون يعبدون من دون الله من لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً، وفي هذا يقول الله تعالى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ}[3]، والمنافقون يظنون أن النفع والضر بأيديهم من دون الله، فلما قرروا شن حرب اقتصادية على المسلمين، نسوا أن الله عنده خيرات الأرض والسماء، وفي هذا يقول تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ}[4]

1. الإسراء: 97 .
2. الأعراف: 113-122.
3. الأنبياء: 66.
4. المنافقون:7.

سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان بقدرته سبحانه ومشيئته ووحدانيته، وعجز الخلق عن الفعل، والترك إلا بإذنه تعالى، وإلى لقاء قادم مع حلقة أخرى نتابع فيها الحديث عن اليقين بأن النفع والضرر من عند الله تعالى، وصلى الله وسلم على رسولنا الهادي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

كَتَبَ الْمُغِيرَةُ إلى مُعَاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يقول في دُبُرِ كل صَلَاةٍ إذا سَلَّمَ: (لَا إِلَهَ إلا الله، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، له الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهم لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ).[1] قوله: (في دُبُرِ)؛ أي في عقب كل صلاة.[2]

وفي روايات أخرى، ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو ببعض مضامين هذا الدعاء بعد قيامه من الركوع، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا رَفَعَ رَأْسَهُ من الرُّكُوعِ، قال: رَبَّنَا لك الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ ما شِئْتَ من شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ ما قال الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لك عَبْدٌ، اللهم لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ).[3]

قوله: (أَهْلَ) منصوب على النداء على المشهور، وجوز بعضهم رفعه على تقدير أنت أهل الثناء، والثناء الوصف الجميل والمدح، والمجد العظمة ونهاية الشرف.

وقوله (أَحَقُّ ما قال الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لك عَبْدٌ) تقديره أحق قول العبد لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، إلى آخره، واعترض بينهما (وَكُلُّنَا لك عَبْدٌ)، وإنما يعترض ما يعترض من هذا الباب للاهتمام به، وارتباطه بالكلام السابق، وتقديره هنا: أحق قول العبد لا مانع لما أعطيت وكلنا لك عبد، وفي هذا الكلام دليل ظاهر على فضيلة هذا اللفظ، فقد ذكر

1.صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة.
2. عمدة القاري: 399/35.
3. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع.

النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى، أن هذا أحق ما قاله العبد، فينبغي أن يحافظ عليه؛ لأن كلنا لله عبد.[1]

وقال الخطابي: من هاهنا بمعنى البدل، وقال الجوهري معنى (مِنك) هاهنا عندك تقديره ولا ينفع هذا الغنى عندك غنى، وإنما ينفعهم العمل بطاعتك.[2]

وكلمة (مِنْ) تسمى من البدلية، كقوله تعالى: {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ}[3]؛ أي بدل الآخرة؛ أي المحظوظ لا ينفعه حظه بذلك؛ أي بدل طاعته، وقال الراغب: قيل: أراد بالجد أب الأب؛ أي لا ينفع أحداً نسبه، وقال النووي: منهم من رواه بالكسر، وهو الاجتهاد؛ أي لا ينفع ذا الاجتهاد منك اجتهاده، إنما ينفعه رحمتك.[4]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يعتني بذكر هذا الأمر العقائدي، المتضمن نفي المنع والإعطاء، إلا من الله تعالى، فهو سبحانه الذي يأمر بهما حين يشاء، ولا أحد يملك حجب إعطاء أراده الله تعالى، أو جلب إعطاء يمنعه الله تعالى، وهو القائل جل شأنه: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[5] ويقول تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[6]، والدلائل على صدق المضمون العقائدي لهذه الآيات الكريمة لا تعد ولا تحصى، ومن يعرف هذا معرفة اليقين، ويلزم حذافيره، يكن من أغنى الناس قلباً ونفساً، ولو ضاقت ذات يده، ويكن أقلهم حزناً على ما فات من أمور الدنيا، ويفوت من زينتها، من هنا نُهي المسلم عن تمني الموت لضر أصابه، وإنما يفوض أمر حياته وموته لله.

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 4/194-195.
2. عمدة القاري: 25/34.
3. التوبة: 83.
4. عمدة القاري: 23/160.
5. النمل: 62.
6. فاطر: 2.

قلب خواص الأشياء بإذن الله

تماشياً مع مبدأ تفرد الله بالنفع والإضرار، فإن الآيات الدالة على ذلك كثيرة، ومنها ما أخبر عنها القرآن الكريم، فيما يتعلق بقلب خواص الأشياء، ليخدم غرضاً دعوياً خاصاً، ومن ذلك ما حصل مع إبراهيم، عليه السلام، لما قرر أعداؤه من الكفار إحراقه بالنار، فخاصية الإحراق الثابتة طبيعة وواقعاً، قلبت بإذن الله تعالى إلى النقيض فكانت برداً وسلاماً، وعن هذا يقول الله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ* وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}.[1]

وهكذا فعل الله تعالى في البحر، إذ الأصل أن الذي يعبره يمر على ماء، لكن الله تعالى هيأ لموسى، عليه السلام، ومن معه عبور البحر بالمرور على طريق يابس، فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى}[2]

كما أن الأصل أن يتم الإنجاب من معاشرة جنسية بين ذكر وأنثى، لكن الله تعالى خلق عيسى، عليه السلام، من أنثى دون أن يمسها ذكر، فقلب بذلك خواص الإنجاب، فقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً* فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً* قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً* قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً* قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً* قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً* فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً* فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي

1. الأنبياء: 68-71
2. طه: 77.

مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً* فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً* وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً* فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً* فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً* يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً* فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً}.[1]

كذلك العاقر لا يلد، لكن الله تعالى جعله ينجب بأمره سبحانه، وحدث هذا مع أكثر من شخص، فزكريا، عليه السلام، كان كبير السن، وامرأته عاقراً، والله تعالى بشره بيحيى، فقال تعالى: {كهيعص* ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا* إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً* قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً* وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً* يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً* قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً}.[2]

وإبراهيم، عليه السلام، مر بتجربة مماثلة، وعنها يقول تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ* فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ* فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ* قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}.[3]

1. مريم: 16-30.
2. مريم: 1-9
3. الذاريات: 24-30.

وغير ذلك كثير من الشواهد الدالة على قلب خواص الأشياء بأمر الله تعالى بما يعزز اليقين بأن النفع والضر لا يكونان إلا بأمر الله تعالى، سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان بقدرته سبحانه ومشيئته ووحدانيته، والاعتقاد بعجز الخلق عن الفعل، والترك إلا بإذنه تعالى، وإلى لقاء قادم مع حلقة أخرى نتابع فيها الحديث عن اليقين بأن النفع والضرر من عند الله تعالى، وصلى الله وسلم على رسولنا الهادي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

واليقين بأن النفع والضرر من عند الله ـ الحلقة الرابعة والأخيرة

يخاطب الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {...قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ...}، جاء هذا خلال تعقيب على بعض مجريات غزوة بدر الكبرى، حيث قال تعالى:{ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[1]

فكلام الله تعالى في هذه الآية الكريمة يؤكد حقيقة القدرة التي تقف خلف الأحداث، فكلها محكومة لأمر الله، الذي سلط النعاس على بعض جيش المسلمين في غزوة بدر لمعالجة تداعيات الغم الذي أصابهم؛ فكان من ثماره تعزيز شعورهم بالأمن، أما المنافقون فيظنون بالله العجز، أو التخلي عن نصر المؤمنين، أمام الجيوش المجهزة بالعدد والعتاد والخبرة، والله يرد عليهم، ويؤكد للمؤمنين أن الأمر كله لله، فهو الذي ينفع إن شاء، ويضر إن شاء، وهو القائل سبحانه: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.[2]

ومن الأحداث التي تجلى فيها هذا البعد العقائدي، ما أخبرت عنه سورة الروم، التي تحدثت عن انتصار الروم بعد غلبهم في بضع سنين، بأمر الله تعالى الذي له الأمر من قبل ومن بعد، وعن ذلك يقول الله تعالى: {الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ

1. آل عمران: 154.
2. آل عمران: 26.

غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ* وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.(*)

الوقفة عند هذه الآيات الكريمة ذات الصلة بمبدأ تفرد الله بالمنح والمنع، والنفع والضرر، تأتي عطفاً على ما جاء في الحلقات الثلاث السابقة حول اليقين بأن النفع والضرر من عند الله، والدلائل على صدق هذا المضمون العقائدي لا تعد ولا تحصى، ومن يعرف هذا معرفة يقين، فليزم حذافيره، يكن من أغنى الناس قلباً ونفساً ولو ضاقت ذات يده، ويكن أقلهم حزناً على ما فات من أمور الدنيا.

وفي هذه الحلقة ختم للحديث عن هذا الموضوع في المرحلة الحالية، فبالإضافة إلى التأكيد على أن الأمر كله لله في المعارك وغيرها، سيتم لضيق المجال مرور الكرام على بعض القضايا الأخرى ذات الصلة بالموضوع، كقضية نفع السحر وضرره، والانخداع بنفع الكهنة والعرافين والتضرر منهم، وأن النذر المعلق لا يغير من قضاء الله تعالى وقدره شيئاً، فلا يجلب نفعاً غير مقدر، ولا يدفع ضراً مقدراً.

السحر لا يضر إلا بإذن الله تعالى

يظن بعض الناس لضعف في عقيدتهم، أو انخداع ببريق السحر، وجهل بحقيقته، أن لدى السحرة قدرات خارقة تضاهي قدرة الله تعالى في الخلق، وتدبير أمر النفع والضر، غير أن الله تعالى أكد في حديثه عن أعمال السحرة، على أنهم يعجزون عن فعل النفع أو الضر إلا بإذنه تعالى، فقال تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ

*. الروم: 1-6.

وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}.[1]

العرافون والكهنة ليس لهم من الأمر شيء

ما قيل عن حدود تأثير السحرة وتقيدهم بإحداث النفع والضر بأمر الله تعالى، يقال عن العرافين والكهنة الذين ليس لهم من الأمر شيء، فالله تعالى يقول: {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} [2]، ويشمل هذا النهي التوجه إلى العرافين والكهنة، فعن نَافِعٍ عن صَفِيَّةَ عن بَعْضِ أَزْوَاجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من أتى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عن شَيْءٍ، لم تُقْبَلْ له صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً).[3]

النذر المعلق لا يجلب خيراً ولا يدفع شراً

بعض ما يكون ظاهره التعبد إلى الله تعالى من سلوك الناس، مما يقصدون منه استجلاب الخير، أو دفع الشر، مثل النذر المعلق، فإنه لا يجلب خيراً، ولا يقوى على دفع مكروه أو شر، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن النَّذْرِ، قال: إنه لا يَرُدُّ شيئاً، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ من الْبَخِيلِ).[4]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يأتي ابن آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لم يَكُنْ قد قَدَّرْتُهُ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ الْقَدَرُ، وقد قَدَّرْتُهُ له، أَسْتَخْرِجُ بِهِ من الْبَخِيلِ). [5]

دعاء من بيده أمر النفع والضرر في الرخاء والشدة

رغم معرفة الإنسان ويقينه أن الله سبحانه وتعالى بيده النفع والضرر، فإن الإنسان – إلا

1. البقرة: 102.
2. يونس: 106.
3. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان.
4. صحيح البخاري، كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر.
5. صحيح البخاري، كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر.

من رحم الله- يذكر الله ويدعوه ساعة شعوره بالحاجة إليه سبحانه، ثم يكفر بالله ورسالاته، ومرد هذا التذبذب، يرجع إلى ضعف إيمان، والله تعالى يقول: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.[1]

وقال سبحانه: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[2]، فمن يوقن أن أمر النفع والضر بيد الله، يوثق صلته بالله، ويعرفه في الرخاء والشدة.

فحري بنا البحث دائماً، عن ملجأ عند الله سبحانه وتعالى، نتحرى من خلاله بخالص الدعاء أن يشملنا بما ينفعنا، ويدفع عنا الضر، ومن الدعاء المأثور في ذلك ما تضمنه حديث أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: إذا أَوَى أحدكم إلى فِرَاشِهِ، فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فإنه لا يَدْرِي ما خَلَفَهُ عليه، ثُمَّ يقول: بِاسْمِكَ ربي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إن أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ).[3]

وعن سُهَيْلٍ قال: (كان أبو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إذا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ على شقه الأَيْمَنِ، ثُمَّ يقول: اللهم رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأرض، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كل شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ كل شَيْءٍ أنت آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهم أنت الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا من الْفَقْرِ).[4]

---

1. يونس: 12.
2. الزمر: 49.
3. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب منه.
4. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب مَا يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ وَأَخْذِ الْمَضْجَعِ.

فإذا رسخ الإيمان بأن أمر النفع والضرر بيد الله وحده في قلب الإنسان، فإنه يترك آثاراً كبيرة، وبصمات واضحة على سلوكه ومواقفه تجاه قضاياه الخاصة والعامة.

سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان بقدرته سبحانه ومشيئته ووحدانيته، وأن يبقينا على اليقين بعجز الخلق عن الفعل والترك إلا بإذنه تعالى، وصلى الله وسلم على رسولنا الهادي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الثاني
عبادات

	الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم	
81	يحث على شد الرحال إلى مسراه	.1
86	يدعو إلى تحري هلال رمضان	.2
92	يرّغب المؤمنين في الصيام والقيام	.3
97	يقيم الليل ويرتل القرآن ترتيلاً	.4
102	يحدد صدقة الفطر وزكاة المال ومصارفهما	.5
107	يبين فضل صيام الست من شوال	.6
111	خَيّرَ المسلمين بين صيام يوم عَاشُورَاء وتركه	.7
116	يؤكد فرض الحج ويبين فضله وأهميته	.8
121	يرشد الحجاج ليأخذوا مناسكهم عنه/ الحلقة الأولى	.9
126	يرشد الحجاج ليأخذوا مناسكهم عنه/ الحلقة الثانية والأخيرة	.10
131	يضحي ويبين أحكام الأضحية	.11

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على شد الرحال إلى مسراه

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى).[1]

يعلم المسلمون في العصور كلها أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حصر شد الرحال بقصد تحصيل الثواب في ثلاثة مساجد، هي المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى في بيت المقدس، والمراد بقوله: (لا تُشَدُّ) النهي عن السفر إلى غيرها، وهو أبلغ من صريح النهي، كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة، إلا هذه البقاع؛ لاختصاصها بما اختصت به. و(الرِّحَالُ) جمع رحل، وهو للبعير كالسرج للفرس، وكنى بشد الرحال عن السفر؛ لأنه لازمه.

ولازم الاستثناء في قوله (إلا) منع السفر إلى كل موضع غيرها، وقوله: (الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي المحرم، و(وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ) أي محمد، صلى الله عليه وسلم، و(وَمَسْجِدِ الأَقْصَى)؛ أي بيت المقدس، واستشهدوا له بقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ}[2]، وسمي الأقصى لبعده عن المسجد الحرام في المسافة، وقيل: في الزمان، وفيه نظر؛ لأنه ثبت في الصحيح أن بينهما أربعين سنة. وقال الزمخشري: سمي الأقصى؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، وقيل: لبعده عن الأقذار والخبث، وقيل: هو أقصى بالنسبة إلى مسجد المدينة؛ لأنه بعيد من مكة، وبيت المقدس أبعد منه، ولبيت المقدس أسماء عدة، تقرب من العشرين؛ منها إيلياء، وبيت

1. صحيح البخاري، كتاب الكسوف، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة..
2. القصص: 44 .

المقدس، والقدس. [*]

فتوى شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال

سبق أن أصدرنا بحكم موقعنا مفتياً للقدس والديار الفلسطينية، بياناً خاصاً، متضمناً فتوانا بشأن حكم شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال، بناء على أسئلة وردت إلى دار الإفتاء بالخصوص، وكررنا نشر الفتوى والتذكير بها بعد اللغط الذي حدث بين بعض المسلمين، بشأن هذا الحكم، وجاء في فتوانا: أنه في ظل تصاعد الهجمة الاحتلالية على مدينة القدس، سعياً لتهويدها بالكامل، ومحاولة طمس معالمها الإسلامية، ووضع اليد على المسجد الأقصى المبارك، وتدنيس رحابه يومياً باقتحام المستوطنين، وإقامتهم الشعائر، والترانيم التوراتية المزعومة، بمشاركة حاخامات وقادة سياسيين، تحت حماية أفراد شرطة الاحتلال، لفرض واقع جديد، وتمهيداً للتقسيم الزماني والمكاني للمسجد الأقصى المبارك بين المسلمين واليهود، إضافة إلى التهديد بهدم المسجد الأقصى؛ بهدف إقامة الهيكل المزعوم على أنقاضه، لا قدّر الله، فإننا نود التأكيد على فتاوينا بالخصوص، والتي تؤكد الآتي:

أولاً: إن رحاب المسجد الأقصى المبارك، وأسواره، وأبنيته، وأفنيته، وقبابه، وأروقته، ومصاطبه، وأسفل المسجد الأقصى وأعلاه، وقف إسلامي إلى قيام الساعة، وهي حق خالص للمسلمين لا يشاركهم فيه أحد، فالمسجد الأقصى المبارك اسم لكل ما دار حوله السور الواقع في أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس القديمة المسوّرة بدوْرها، ويشمل كلاً من قبة الصخرة المشرّفة، (ذات القبة الذهبية)، والموجودةِ في موقع القلب بالنسبة إلى المسجد الأقصى، والمصلى القِبْلِي، (ذي القبة الرصاصية السوداء)، والواقعُ أقصى جنوب المسجد الأقصى، ناحية (القِبلة)، فضلاً عن نحو 200 مَعْلمٍ آخر، ما بين مصليات، ومبانٍ، وقباب، وأروقة، ومدارس، وأشجار، ومحاريب، ومنابر، ومآذن، وأبواب، وآبار، ومكتبات؛

*. فتح الباري: 64/3.

يقول مجير الدين الحنبلي في كتابه (الأنس الجليل): "إنّ المتعارف عند الناس أنّ الأقصى من جهة القِبلة الجامع المبني في صدر المسجد الذي فيه المنبر والمحراب الكبير، وحقيقة الحال أن الأقصى اسم لجميع المسجد مما دار عليه السور، فإن هذا البناء الموجود في صدر المسجد وغيره، من قبة الصخرة والأروقة وغيرها محدثة، والمراد بالأقصى ما دار عليه السور".[1]

ثانياً: إن السيادة على المسجد الأقصى المبارك والولاية عليه، حق قرره الله لهذه الأمة الإسلامية وحدها، وورثته عن نبيها، عليه الصلاة والسلام، وسلفها الصالح، وترعى هذا الحق دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس، تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردنية.

ثالثاً: إن المسجد الأقصى المبارك هو جزء من عقيدة المسلمين؛ لارتباطه بمعجزة الإسراء والمعراج، وهو قبلة المسلمين الأولى، فقد صلى المسلمون قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهراً بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ثم تحولوا بأمر الله تعالى إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، قال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}.[2]

رابعاً: إن المسجد الأقصى المبارك مرتبط بعبادة المسلمين؛ فقد دعا النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى شد الرحال إليه، فقال: (ولا تُشَدُّ الرِّحَالُ، إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى).[3]

خامساً: إن فلسطين أرض باركها الله في كتابه العزيز، وأسرى إليها برسوله المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وأخبر الله عن ذلك، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

1. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: 1/ 20.
2. البقرة: 144.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب حج النساء.

الْبَصِيرُ}[1] ، وقال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}.[2]

وإن من أبرز واجبات الأمة الإسلامية أن تعمل جهدها لتحرير هذه الأرض المباركة، ومسجدها الأقصى، حتى تكون مفتوحة لمن يشد الرحال إليها؛ ابتغاء رضوان الله وثوابه، ومن المؤكد أن شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال يختلف عنه في ظل الحرية والأمان، فإذا أدرك المسلمون مدى مسؤوليتهم وواجبهم نحو الأرض الفلسطينية والقدس ومقدساتها، فلا يوجد ما يمنع شرعاً من زيارتها، في إطار الضوابط الشرعية الآتية:

- رفض تكريس الوضع الاحتلالي للأرض الفلسطينية والقدس والمسجد الأقصى المبارك.
- تجنب الخوض في أي إجراء يصب في مصلحة تطبيع علاقات المسلمين مع الاحتلال، الذي يأسر أرضنا وشعبنا وقدسنا وأقصانا.
- التنسيق مع الجهات الفلسطينية المسؤولة، التي تتولى المسؤولية عن زيارات الأرض المحتلة.
- أن تكون الزيارة للأرض الفلسطينية تأكيداً لهويتها العربية والإسلامية، ورفضاً للاحتلال، وعوناً للمرابطين فيها على الصمود حتى التحرير.

سادساً: ندعو كل من يستطيع من أبناء فلسطين، وخارجها إلى وجوب شد الرحال إلى المسجد الأقصى المبارك؛ لإعماره، والصلاة فيه، وتكثير سواد المسلمين المرابطين في رحابه، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

مؤتمر الطريق إلى القدس

عقد في عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية المؤتمر الدولي الأول بعنوان (الطريق إلى القدس)، وهو المؤتمر الذي نظمته لجنة فلسطين النيابية في البرلمان الأردني، بالتعاون مع جامعة العلوم الإسلامية العالمية، والبرلمان العربي في الفترة بين 28 جمادى الآخرة- 1 رجب

1. الإسراء: 1.
2. الأنبياء: 71.

1435هـ وفق 28-30 نيسان 2014م.

وخرج البيان الختامي للمؤتمر بمجموعة من التوصيات التي تهدف إلى إعادة قضية القدس إلى الصدارة في الأولويات على مستوى الأمة العربية والإسلامية، وأصدر العلماء المشاركون من مختلف البلدان فتوى جماعية، تنص على الضوابط الأساسية لزيارة القدس، التي ينبغي أن تراعي مصلحة المقدسيين ودعمهم المادي والمعنوي، وعدم التطبيع مع الكيان الصهيوني، والابتعاد عن أنواع التعامل مع الغاصبين من اليهود المحتلين جميعها، وأبرز المؤتمر أهمية التضامن الإسلامي المسيحي؛ من أجل إطلاع الرأي العام العالمي على ضرورة تحرير القدس، وإقامة الدولة الفلسطينية، وعاصمتها القدس الشريف، وأكد العلماء أن القدس مدينة مقدسات عالمية للمسلمين والمسيحيين واليهود المنصفين، الذين يناهضون اغتصاب الحق الفلسطيني المشروع، وذكروا في هذا المضمار بالعهدة العمرية، التي تعتبر وثيقة مرجعية على مر القرون من عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

سائلين الله العلي القدير أن يهيئ للمسجد الأقصى وفلسطين بأسرها وشعبها وأسراها سبيل التحرير، والخلاص من نير الاحتلال، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يدعو إلى تحري هلال رمضان

رسولنا الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم، يدعونا إلى تحري الهلال؛ لتحديد بداية أيام الصوم ونهايتها، فيقول عليه الصلاة والسلام: (صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمُ الشَّهْرُ، فَعُدُّوا ثَلاَثِينَ).[1]

فالصوم فرضه الله تعالى على المسلمين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[2]

ولتنظيم أداء هذا الفرض على الوجه المشروع، حُددت له ضوابط وأحكام، من أبرزها تحديد أيامه، التي تبدأ بثبوت رؤية هلال شهر رمضان، وتنتهي بثبوت هلال شهر شوال، الذي يلي رمضان في ترتيب الأشهر القمرية، التي عني القرآن الكريم، واهتمت السنة النبوية المطهرة بإثبات عددها وترتيبها، فقال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ...}.[3]

وجاء في السنة النبوية الصحيحة، عن أبي بَكْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الزَّمَانُ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يوم خَلَقَ الله السماوات وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً.
2. البقرة: 183.
3. التوبة: 36.

عَشَرَ شَهْرًا، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ، مُضَرَ الذي بين جُمَادَى وَشَعْبَانَ).[1]

والقرآن الكريم جعل التلاعب في ترتيب الأشهر بالتقديم والتأخير عن المواضع الثابتة استفحالاً في الكفر، فقال تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.[2]

والنسيء من نسأه وأنسأه إذا أخره، وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها، قاتلوا فيها، وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في شهر محرم، حرموا بدله شهر صفر، وهكذا.

وسمى الله النسيء زيادة في الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.[3]

وهذا يعني لزوم التقيد بمسار الشهور وأوقاتها، التي ارتبطت بها عبادات الصيام، والحج، بشكل واضح.

رؤية الهلال أو إكمال عدة الشهر

يدعو الإسلام المسلمين إلى تحري رؤية هلال رمضان مع مشارفة شهر شعبان على الانتهاء، ففي مساء يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان من كل عام، يُدعا المسلمون

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين.
2. التوبة: 37.
3. فتح القدير، 359/2.

إلى مراقبة ظهور هلال شهر رمضان، فينظرون إلى السماء من الجهة التي يبزغ منها الهلال الجديد، وذلك بعد مغيب شمس ذاك اليوم، فإن شهد بالرؤية شاهد عدل من المسلمين، لدى الجهات المتخصصة، فإنها تبادر إلى الإعلان عن البدء بالصيام، وإلا أكملت عدة شعبان ثلاثين يوماً، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}.[1]

والمراد بشهود الشهر الوارد في الآية الكريمة، هو رؤية هلاله من قبل عدل واحد من المسلمين، فإذا شهد عدل بالرؤية عند ولي الأمر، بعد أن تقوم فيه شروط تحمل الشهادة، ويصح بمثل وصفه ضبط الرؤية، وإمكانها، فإن ولي الأمر يحكم بثبوت رؤية الهلال، وحينها يجب على المسلمين الدخول في عبادة الصيام، والدعوة إلى تحري الرؤية، توجه إلى المسلمين كلهم، فإذا رأى الهلال بعضهم، وجب على بقيتهم الالتزام بالصيام؛ لأن رؤية كل واحد منهم للهلال متعذرة، لسبب أو لآخر، والله تعالى لم يكلفنا إلا بما نطيق، فقال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...}.[2]

فالمطلوب الرؤية، أو إكمال عدة الشهر حين تعذرها، فالرؤية شرط للدخول في عبادة الصيام، وإلا أكملت عدة شعبان ثلاثين؛ إذ الأشهر القمرية إما أن تكون عدتها تسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين.

1. البقرة: 185.
2. البقرة: 286.

ولا بدَّ في هذا المقام من الإشارة إلى التقدم العلمي الدقيق في حسابات الفلك، وتحديد مواقيت تولد الأهلة بالساعة والدقيقة والثانية، وكذلك تحديد الزوايا في الأفق الغربي، الذي يظهر فيه الهلال، ومدى قربه، أو بعده من الشمس، ومدة ظهوره في السماء بعد المغيب، زد على ذلك التقدم التكنولوجي في تطوير المناظير والمقاربات التي يُستعان بها في رؤية الهلال، إذا أشارت الحسابات الفلكية إلى إمكانية رؤيته في الأفق، ويمكن الاستفادة من هذه الإنجازات العلمية عند تحري رؤية الأهلة على سبيل الاستئناس.

أهمية الاتفاق حول رؤية الأهلة

بعد التقدم العلمي في علوم الفلك، وحساباته، والمراصد، ووسائل الرؤية، ووسائل الاتصال والإعلام، هل يبقى عذر للمسلمين للخلاف حول بداية عبادة الصيام، التي تتم بإحدى أمارتين لا ثالث لهما، وهي الرؤية، أو إكمال عدة شعبان ثلاثين؟!

فالقول بتوحيد الرؤية، واختيار ما عليه جمهور الفقهاء بوجوب الصيام على المسلمين، الذين تشترك أقطارهم في ليل واحد، هو الأقرب لموافقة الأدلة الشرعية، التي خاطبت مجموع الأمة بوجوب الصيام، إذا ثبتت رؤية الهلال، أو إكمالاً لعدة إذا لم تثبت الرؤية، وهذا يتفق مع أحكام الشرع، وأوضاع الكون، وسهولة وصول الأخبار، كما يقود إلى مقاصد الشريعة التي دعت إلى وحدة المسلمين واجتماعهم في أداء عباداتهم، وشعائرهم الدينية، خاصة في هذا الزمان الذي أصبح العالم فيه - بفضل تقدم وسائل الإعلام والاتصالات - قرية صغيرة تنتشر فيها الأخبار بسرعة هائلة.

فضل شهر رمضان

أشاد الله تعالى بشهر رمضان، وذكر سبحانه بعض فضائله ومآثره، فقال جل شأنه: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...}.[1]

وفي شهر رمضان ليلة القدر التي عظمها الله تعالى، ورفع شأنها، وميزها بالفضل والخير عن باقي الليالي والأزمنة، فقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ* سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}.[2]

واختص شهر رمضان بخصائص، منها زيادة فضل الجود فيه، وعرض القرآن من قبل الوحي جبريل، عليه السلام، على الرسول، صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس بِالْخَيْرِ، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ، حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان جِبْرِيلُ، عليه السَّلام يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ في رَمَضَانَ، حتى يَنْسَلِخَ يَعْرِضُ عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، الْقُرْآنَ، فإذا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، عليه السَّلام، كان أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).[3]

وبمناسبة قرب حلول شهر رمضان، نبتهل إلى الله العلي القدير، أن يجعله شهر خير، وأن يمنَّ علينا فيه بالبركة، والعز، والنصر، وأن يجمع كلمتنا على الحق والخير.

---

1. البقرة: 185.
2. القدر:1-5.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يكون في رمضان.

ونسأله تعالى أن يخص أبناء شعبنا الصابر المرابط بوحدة الكلمة، وجمع الشمل، وأن يهديهم إلى ما فيه خير البلاد والعباد؛ ليحافظوا على مقدسات تتهددها الأخطار، وأرض ينهشها الاستيطان، وحقوق يتهددها الانتهاك لتضارب المصالح الإقليمية. مما يستدعي وقفة مع الذات؛ لمراجعة الحساب قبل فوات الأوان، ولات ساعة مندم.

ونتضرع إلى الله العلي القدير أن يطلق سراح أسرانا البواسل، وأن يحسن خلاصهم، وأن يحفظهم وأهاليهم وذرَارِيهم وأن يتقبل شهداءنا في عليين مع النبيين والصديقين والصالحين، ويجعلهم شفعاء لآبائهم وأمهاتهم وذويهم.

اللهم أهلَّ علينا هلال رمضان بالخير، والعفو، والرضوان، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وممن يهتدون بهدي رسولك الأسوة، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يرغب المؤمنين في الصيام والقيام

عن أَبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل شَهْرُ رَمَضَانَ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ).[1]

ورد في عمدة القاري أن المراد من السماء الجنة، بقرينة ذكر جهنم في مقابلة، وجاء في رواية (أبواب الرحمة) ولا تعارض في ذلك، فأبواب السماء يصعد منها إلى الجنة؛ لأنها فوق السماء، وسقفها عرش الرحمن، كما ثبت في الصحيح، وأبواب الرحمة تطلق على أبواب الجنة؛ لقول النبي، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (احْتَجَّتْ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدْخُلُنِي الجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتْ هذه: يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ، فقال الله عز وجل لِهَذِهِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ من أَشَاءُ، وَرُبَّمَا قال: أُصِيبُ بِكِ من أَشَاءُ، وقال لِهَذِهِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ من أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا).[2]

وقال الطيبي: فائدة الفتح توقيف الملائكة على استحماد فعل الصائمين، وأن ذلك من الله بمنزلة عظيمة، وأيضاً فيه أنه إذا علم المكلف المعتقد ذلك بإخبار الصادق، يزيد في نشاطه، ويتلقاه بأريحيته.

وقوله: (وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ)؛ لأن الصوم جنة، فتغلق أبوابها بما قطع عنهم من المعاصي، وترك الأعمال السيئة المستوجبة للنار، ولقلة ما يؤاخذ الله العباد بأعمالهم السيئة، ليستنقذ منها ببركة الشهر، ويهب المسيء للمحسن، ويجاوز عن السيئات، وهذا معنى الإغلاق.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.
2. صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

وقوله: (وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ)؛ أي شدت بالسلاسل، وقيل: يحتمل أن يكون المراد أن الشياطين مسترقو السمع منهم، أن تسلسلهم يقع في ليالي رمضان دون أيامه؛ لأنهم كانوا منعوا زمن نزول القرآن من استراق السمع، فزيد التسلسل مبالغة في الحفظ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من إفساد المسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره؛ لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشياطين، وبقراءة القرآن والذكر، وقيل: المراد بالشياطين بعضهم، وهم المردة منهم، وورد في بعض الروايات أن الشياطين تصفد في رمضان، من خلال تعجيزهم عن الإغواء، وتزيين الشهوات، أي شدت بالأصفاد، وهي الأغلال، وهو بمعنى سلسلت، فإن قيل قد تقع الشرور والمعاصي في رمضان كثيراً، فلو سلسلت لم يقع شيء من ذلك، وجوابه أن هذا في حق الصائمين، الذين حافظوا على شروط الصوم، وراعوا آدابه، وقيل: المسلسل بعض الشياطين، وهم المردة، لا كلهم، كما في بعض الروايات، والمقصود تقليل الشرور فيه، وهذا أمر محسوس، فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره، وقيل: لا يلزم من تسلسلهم وتصفيدهم كلهم أن لا تقع شرور ولا معصية؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين، كالنفوس الخبيثة، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية. [1]

جزاء من صام وقام إيماناً واحتساباً

جاء في روايات صحيحة، وعد الله تعالى بالجنة لعباده صائمي رمضان، وقائمي لياليه، وليلة القدر منه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ). [2]

قوله احتساباً؛ لأن الصوم إنما يكون لأجل التقرب إلى الله، والنية شرط في وقوعه قربة، والمراد بالإيمان الاعتقاد بحق فرضية صومه، وبالاحتساب طلب الثواب من الله تعالى، وقال

1. عمدة القاري: 270/10.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.

الخطابي احتساباً؛ أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه.[1]

وهذا المعنى يلزم أن يذكره الصائمون وهم يكابدون شدة الحر، وطول ساعات النهار، فلولا الإيمان والاحتساب ما صبروا، لكن حالهم يقول: اللهم إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، منتظرين أن يجزيهم الله الجنة بما صبروا، مصداقاً لقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً}.[2]

فالجنة يُجزى بها الصائم المحتسب، وكذلك الذي يقوم ليالي رمضان احتساباً لوجه الله تعالى، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[3]

وهي كذلك جزاء من قام ليلة القدر، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[4]

والله تعالى يحمي وجوه الصائمين من عذاب النار، فيبعدها عنهم مسافات طويلة، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما من عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا في سَبِيلِ اللهِ، إلا بَاعَدَ الله بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عن النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا).[5]

وخصص الله تعالى للصائمين باباً من أبواب الجنة، فعن سَهْلٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ في الْجَنَّةِ بَابًا، يُقَالُ له الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ،

1. فتح الباري: 115/4.
2. الفرقان: 75.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان.
5. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه بلا ضرر ولا تفويت حق.

فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فلم يَدْخُلْ منه أَحَدٌ). [1]

ومن حسن جزاء الصائم، أن الله تعالى جعله وقاية من النار، فعن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: يقول الله عز وجل: (الصَّوْمُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ، وَأَكْلَهُ، وَشُرْبَهُ من أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ حين يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ، أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ من رِيحِ الْمِسْكِ). [2]

وفي معنى (وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ) ورد في فتح الباري عَنْ أَبِي الزِّنَاد "جُنَّة مِنْ النَّار" وَالْجُنَّة الْوِقَايَة وَالسَّتْر. ومُتَعَلَّق هَذَا السَّتْر مِنْ النَّار، وقيل: مَعْنَى كَوْنه جُنَّة؛ أَيْ يَقِي صَاحِبه مَا يُؤْذِيه مِنْ الشَّهَوَات. وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: جُنَّة؛ أَيْ سُتْرَة، يَعْنِي بِحَسَبِ مَشْرُوعِيَّته، فَيَنْبَغِي لِلصَّائِمِ أَنْ يَصُونَهُ مِمَّا يُفْسِدهُ، وَيَنْقُص ثَوَابه، وَإِلَيْهِ الإِشَارَة بِقَوْلِهِ: (فَإِذَا كَانَ يَوْم صَوْم أَحَدكُمْ، فَلا يَرْفُث، إِلَخْ)، وَيَصِحّ أَنْ يُرَاد أَنَّهُ سُتْرَة بِحَسَبِ فَائِدَته، وَهُوَ إِضْعَاف شَهَوَات النَّفْس، وَإِلَيْهِ الإِشَارَة بِقَوْلِهِ (يَدَع شَهْوَته... إِلَخْ)، وَيَصِحّ أَنْ يُرَاد أَنَّهُ سُتْرَة بِحَسَبِ مَا يَحْصُل مِنْ الثَّوَاب، وَتَضْعِيف الْحَسَنَات. وَقَالَ عِيَاض فِي "الإِكْمَال": مَعْنَاهُ سُتْرَة مِنْ الآثَام، أَوْ مِنْ النَّار، أَوْ مِنْ جَمِيع ذَلِكَ، وَبِالأَخِيرِ جَزَمَ النَّوَوِيّ. وَقَالَ اِبْن الْعَرَبِيّ: إِنَّمَا كَانَ الصَّوْم جُنَّة مِنْ النَّار لأَنَّهُ إِمْسَاك عَنْ الشَّهَوَات، وَالنَّار مَحْفُوفَة بِالشَّهَوَاتِ. فَالْحَاصِل أَنَّهُ إِذَا كَفّ نَفْسه عَنْ الشَّهَوَات فِي الدُّنْيَا، كَانَ ذَلِكَ سَاتِرًا لَهُ مِنْ النَّار فِي الآخِرَة). [3]

حتى إن الرائحة، التي يمكن أن تنبعث من فم الصائم، بسبب الإمساك عن الأكل والشرب، أطيب من المسك، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، يقول: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال الله: (كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ له، إلا الصِّيَامَ، فإنه لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فلا يَرْفُثْ، ولا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أو قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إني امْرُؤٌ

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
2. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله}(الفتح: 15).
3. فتح الباري: 104/4.

صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لَخُلُوفُ فَمَ الصَّائِمَ، أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ من رِيحِ الْمِسْكِ...). [1]

وفي الحديث بيان لكثرة ثواب الصوم؛ لأن الله تعالى إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء، اقتضى عظمته وسعته، وهو سبحانه يجزي به لا غيره بخلاف سائر العبادات، فإن جزاءها قد يفوض إلى الملائكة، وملخص أقوال العلماء في شرح ذلك أن الصوم لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره؛ لأنه لا يظهر من ابن آدم بفعله، وإنما هو شيء في القلب.[2]

أعاننا الله تعالى على الصيام والقيام إيماناً واحتساباً لوجهه الكريم، وتقبلهما منّا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم.
2. عمدة القاري: 259/10.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يقيم الليل ويرتل القرآن ترتيلاً

يخاطب الله تعالى الرسول، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمَ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً*أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}[1]

في هذه الآيات القرآنية الكريمة، يأمر الله تعالى نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، بقيام الليل، وترتيل القرآن الكريم، وهما أمران تلقاهما الرسول، صلى الله عليه وسلم، في بداية تكليفه بحمل الرسالة السماوية، وتلقي الوحي من الله تعالى ليبلغه للعالمين، فأدى مقتضاهما، فعن الْمُغِيرَة، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُصَلِّي حتى تَرِمَ أو تَنْتَفِخَ قَدَمَاهُ، فَيُقَالُ له، فيقول: أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا).[2]

ومن صور عناية النبي، صلى الله عليه وسلم، بتلاوة القرآن الكريم ومدارسته، أن جبريل، عليه السلام، كان يلقاه كل ليلة من رمضان، يعرض عليه القرآن، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كَان النبي، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس بِالْخَيْرِ، وَأَجْوَدُ ما يَكُونُ في شَهْرِ رَمَضَانَ؛ لأَنَّ جِبْرِيلَ كان يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ في شَهْرِ رَمَضَانَ حتى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عليه رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، القُرْآنَ، فإذا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، كان أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ). [3]

والمعارضة مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما، كان تارة يقرأ، والآخر يستمع قوله.[4]

وبين قيام الليل وتلاوة القرآن، وشهر رمضان رباط وثيق، فهو شهر الصيام والقيام، وتلاوة القرآن، وتظهر في واقع المسلمين دلالات هذا الرباط، فترى المساجد تعج بمن أتوها

1. المزمل:1-4.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي، صلى الله عليه وسلم.
4. فتح الباري: 43/9.

لأداء صلاة القيام الرمضانية، وإذا ما دخلت المسجد في العشي والإبكار، وأطراف النهار، تجد حاملي المصاحف يقرأون القرآن، كل بطريقته واجتهاده، يبذلون وسعهم لنيل الجنة التي وعدهم إياها الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذا ما صاموا وقاموا لله عن إيمان خالص، محتسبين ثوابه ورضاه.

وتؤكد سورة المزمل مرة أخرى على طلب العناية بتلاوة القرآن، وقيام الليل، فيقول تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[1]

الواجب تجاه القرآن في رمضان وسواه

لم تقتصر الأوامر الربانية لنبيه، صلى الله عليه وسلم، فيما يخص القرآن الكريم على مجرد تلاوته، رغم أنه يتلى تعبداً؛ أي إن قراءة القرآن عبادة في حد ذاتها، إلا أن المطلوب تجاه القرآن كثير، عدا التلاوة، فهو للتذكير بالحساب والثواب والعقاب، فيقول تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}.[2]

ومن غايات إنزال القرآن بالوحي على قلب النبي، صلى الله عليه وسلم، تسليحه به؛ ليقوم بمهمة البشرى والنذير، فيقول تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}.[3]

1. المزمل: 20.
2. ق: 45.
3. الشورى: 7.

والله اختار طريقة الإنزال المجزأ للقرآن الكريم؛ ليتمكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من تعليمه للناس، وتبليغه لهم بتؤدة وتمهل؛ ليستوعبوه ويفقهوه، فقال تعالى: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً}.[1]

ومن فضل شهر رمضان المبارك أنه شهد نزول القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ...}.[2]

فلا عجب ولا غرابة أن يركز المسلمون اهتمامهم تجاه القرآن الكريم في هذا الشهر الفضيل، فيتلونه آناء الليل وأطراف النهار، ويخصون الفجر دائماً بتلاوته، حيث الملائكة شاهدة، والثواب عظيم، والله تعالى يقول: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}.[3]

وفي التفسير، أن المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح، وإنما عبر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تصلى بسورتين طويلتين. وتفسير قوله تعالى: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}؛ أي تشهده ملائكة الليل والنهار، فيجتمعون فيه، إذ تصعد ملائكة الليل، وتنزل ملائكة النهار.[4]

وعن أَبي هُرَيْرَة، قال: سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (تَفْضُلُ صَلاةُ الجَمِيعِ صَلاةَ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بخمسة وَعِشْرِينَ جُزْءًا، وَتَجْتَمِعُ مَلائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلائِكَةُ النَّهَارِ في صَلاةِ الْفَجْرِ. ثُمَّ يقول أبو هُرَيْرَةَ: فاقرؤوا إن شِئْتُمْ: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كان مَشْهُودًا}).[5]

ثواب قراءة القرآن الكريم وفضلها

عن عَائِشَةَ قالت: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (المَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مع السَّفَرَةِ

1. الإسراء: 106.
2. البقرة: 185.
3. الإسراء: 78.
4. التسهيل لعلوم التنزيل: 177/4.
5. صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الفجر في جماعة.

الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شَاقٌّ، له أَجْرَانِ). [1]

جاء في شرح النووي على صحيح مسلم، أن السفرة جمع سافر، ككاتب وكتبة، والسافر الرسول، والسفرة الرسل؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله. وقيل: السفرة الكتبة، والبررة المطيعون، من البر وهو الطاعة، والماهر الحاذق الكامل الحفظ، الذي لا يتوقف، ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه. وأما الذي يتتعتع فيه، فهو الذي يتردد في تلاوته؛ لضعف حفظه، فله أجران؛ أجر بالقراءة، وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته، قال القاضي وغيره من العلماء: وليس معناه الذي يتتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به، بل الماهر أفضل، وأكثر أجراً؛ لأنه مع السفرة، وله أجور كثيرة، ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى، وحفظه، وإتقانه، وكثرة تلاوته، وروايته، كاعتنائه حتى مهر فيه، والله أعلم.[2]

وفرق الرسول، صلى الله عليه وسلم، بين المواقف من قراءة القرآن الكريم، بناء على القراءة وتركها، وعلى بواعث القراءة، فعن أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لها، وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ، الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، ليس لها رِيحٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ). [3]

ووجه التشبيه بالأُتْرُجَّةِ؛ لأنها أفضل ما يوجد من الثمار في سائر البلدان، وأجدى لأسباب كثيرة جامعة للصفات المطلوبة منها، والخواص الموجودة فيها، فمن ذلك كبر جرمها، وحسن منظرها، وطيب مطعمها، ولين ملمسها، تأخذ الأبصار صبغة ولوناً، فاقع لونها، تسر

1. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 6/84-85.
3. صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام.

الناظرين، تتوق إليها النفس قبل التناول، تفيد آكلها بعد الالتذاذ بذوقها، وفيها من المنافع ما هو مذكور في الكتب الطبية، وقوله: (كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ) طعمها مر، ولا ريح لها.[1]

عسى أن يذكر المسلمون واجبهم تجاه القرآن، فيتلونه حق تلاوته، ويتعبدون الله بذلك، ويبلغونه للناس كافة، ويعملون بهديه، وقيمه، وأحكامه، ويجعلون ذلك نهجهم الدائم نحوه، دون أن يقصروا تلاوته على شهر رمضان، ويهجروه في باقي الأيام؛ حتى لا يكونوا من الذين يشكوهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى ربه، وفق ما جاء في قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً}.[2]

هدانا الله تعالى إلى أداء حسن القيام، وتلاوة القرآن، في رمضان، وطول العام؛ لنفوز بجنة الرضوان، وننال فخر التأسي بنبينا العدنان، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. عمدة القاري: 38/20.
2. الفرقان: 30.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحدد صدقة الفطر وزكاة المال ومصارفهما

عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (فَرَضَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، زَكَاةَ الْفِطْرِ، صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، على الْعَبْدِ، وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ، وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ، وَالْكَبِيرِ من الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بها أَنْ تُؤَدَّى قبل خُرُوجِ الناس إلى الصَّلاةِ).[1]

صدقة الفطر فرض، وقال الحنفية: إنها واجبة دون الفرض، وهناك من اعتبرها سنة، فنقل المالكية عن أشهب أنها سنة مؤكدة، وهو قول بعض أهل الظاهر، وابن اللبان من الشافعية. وهي تنسب للفطر لكونها تجب بالفطر من رمضان، وتسمى صدقة الفطر، وزكاة الفطر. [2]

على من تجب صدقة الفطر؟

تجب على كل مسلم عن نفسه، وعمن تلزمه نفقته من المسلمين، كباراً وصغاراً، وهي تجب على النفوس، بعكس الزكاة التي تجب على الأموال.

ولا يشترط لوجوبها الغنى، أو النصاب، بل تجب على الفقير، كما تجب على الغني، فتجب على الذي يملك ما يزيد عن قوته، وقوت عياله، يوماً وليلة.

وتجب على المرأة، سواء أكان لها زوج أم لا، وبه قال الثوري وأبو حنيفة وابن المنذر، وقال مالك والشافعي والليث وأحمد وإسحاق: تجب على زوجها إلحاقاً بالنفقة.

وتجب في مال الصغير، وإلا فعلى من تلزمه نفقته، وهذا قول الجمهور، وقال محمد بن الحسن: على الأب مطلقاً، فإن لم يكن له أب، فلا شيء عليه، ولا تجب على الجنين، وكان أحمد يستحبه ولا يوجبه، ونقل بعض الحنابلة رواية عنه بالإيجاب، وبه قال ابن حزم، لكن

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، أبواب صدقة الفطر، باب فرض صدقة الفطر.
2. فتح الباري: 368/3.

قيده بمائة وعشرين يوماً من يوم حمل أمه به، وتعقب بأن الحمل غير محقق، وبأنه لا يسمى صغيراً لغةً ولا عرفاً.

الأصناف التي تدفع منها صدقة الفطر وإخراجها بالقيمة

حدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأصناف التي تخرج منها صدقة الفطر، ولم تختلف الطرق في الصحيحين عن ابن عمر في الاقتصار على التمر والشعير، وهناك أحاديث أخرى، ذكرت الطعام، والأقط، والزبيب، كما في الرواية الصحيحة عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قال: (كنا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا من طَعَامٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، أو صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من أَقِطٍ، أو صَاعًا من زَبِيبٍ).[1]

واختلف الفقهاء في حكم إخراجها بالقيمة، وليس بعين إحدى المواد الغذائية المحددة في الأحاديث الشريفة، فأجاز الحنفية إخراجها نقداً، إذا كان ذلك أيسر للمعطي، وأنفع للآخذ، فعن نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ، قال: (أَمَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِزَكَاةِ الْفِطْرِ، صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، قال عبد اللهِ، رضي الله عنه، فَجَعَلَ الناس عِدْلَهُ مُدَّيْنِ من حِنْطَةٍ). [2]

وعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (فَرَضَ النبي، صلى الله عليه وسلم، صَدَقَةَ الْفِطْرِ، أو قال: رَمَضَانَ على الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالْحُرِّ وَالْمَمْلُوكِ، صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، فَعَدَلَ الناس بِهِ، نِصْفَ صَاعٍ من بُرٍّ، فَكَانَ ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، يُعْطِي التَّمْرَ، فَأَعْوَزَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ من التَّمْرِ، فَأَعْطَى شَعِيرًا ...). [3]

قوله: (فَأَعْوَزَ)؛ أي احتاج، يقال: أعوزني الشيء، إذا احتجت إليه، فلم أقدر عليه، وفيه دلالة على أن التمر أفضل ما يخرج في صدقة الفطر.[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، أبواب صدقة الفطر، باب صدقة الفطر صاعاً من طعام.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، أبواب صدقة الفطر، باب صدقة الفطر صاعاً من تمر.
3. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، أبواب صدقة الفطر، باب صدقة الفطر على الحر والمملوك.
4. فتح الباري: 376/3.

ويجدر التنبيه في هذا المقام، أنه صدر عن مجلس الإفتاء في فلسطين، قبيل البدء بشهر رمضان لهذا العام 1435هـ بيان تضمن تحديد مقدار صدقة الفطر، وفدية الصيام، ومقدار نصاب زكاة المال لهذا العام، وأشار البيان إلى أن السنة النبوية الشريفة، أوضحت بأن صدقة الفطر بالكيل هي صاع واحد بصاع المدينة المنورة، ويرى جمهور الفقهاء أن مقدارها وزناً (2176)غم؛ أي (2كغم و 176غم)، على الأقل من غالب قوت البلد، كالقمح، والخبز، والطحين عندنا، وقدرت قيمتها لهذا العام: بـ(9 شواقل، أو ما يعادلها بالعملات الأخرى)، ومن شاء أن يزيد تطوعاً، فهو خير له.

متى تخرج صدقة الفطر؟

بين العلماء أن وقت وجوب صدقة الفطر يبدأ بغروب الشمس ليلة الفطر؛ لأنه وقت الفطر من رمضان، وقيل: يبدأ بطلوع الفجر من يوم العيد؛ لأن الليل ليس محلاً للصوم، وإنما يتبين الفطر الحقيقي بالأكل بعد طلوع الفجر، والأول قول الثوري، وأحمد وإسحاق والشافعي في الجديد، وإحدى الروايتين عن مالك، والثاني قول أبي حنيفة، والليث والشافعي في القديم، والرواية الثانية عن مالك، ويقويه قوله في حديث الباب: (وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاةِ).[1]

ويجوز عند بعض العلماء تعجيل إخراجها خلال شهر رمضان المبارك؛ ليتسنى للفقراء والمساكين سد حاجاتهم الضرورية، ولا يجوز شرعاً تأخيرها إلى ما بعد أداء صلاة عيد الفطر، لحديث ابن عمر: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَمَرَ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قبل خُرُوجِ الناس إلى الصَّلاةِ).[2]

فمن لم يخرجها في الوقت المشار إليه، فإنها تبقى في ذمته، وعليه إخراجها بعد ذلك،

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، أبواب صدقة الفطر، باب فرض صدقة الفطر.
2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة.

وتعتبر صدقة من الصدقات، والذي يؤخرها إلى ما بعد صلاة العيد دون عذر يأثم، ومن ثمرات صدقة الفطر أنها طهرة للصائم، وإسعادٌ للفقراء في يوم العيد.

مقدار فدية الصوم

يجب على المريض مرضاً مزمناً – لا يرجى برؤه–، أو الشخص الطاعن في السن، الذي لا يقوى على الصوم إخراج فدية الصوم، لقوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}. (*)

ومقدار الفدية: (إطعام مسكين وجبتين) عن كل يوم يفطر فيه، مع مراعاة مستوى ما ينفق على طعام العائلة التي تخرج الفدية، على أن لا تقل قيمة الفدية عن قيمة صدقة الفطر.

نصاب زكاة المال

يقدر نصاب زكاة المال بالذهب والفضة، ووزن نصاب الذهب عشرون مثقالاً، ونصاب الفضة مائتا درهم، وكان الصحابة، رضوان الله عليهم، يستعملون لفظ المثقال أو الدينار للذهب، ويستعملون لفظ الدرهم للفضة، ولما كانت العملات المتداولة في العالم هذه الأيام هي عملات ورقية، مدعمة بالذهب غالباً، فإن مجلس الإفتاء الأعلى يرى أن يعتمد نصاب الذهب، وبما أن المثقال – أي الدينار الذهبي – الواحد يساوي أربعة غرامات وربع الغرام (4.25غم)، على رأي جمهور الفقهاء، أخذاً بمثقال المدينة المنورة، فيكون نصاب الذهب خمسة وثمانين غراماً؛ أي (20 × 4.25 = 85غم).

وبناء عليه؛ وفي ضوء سعر الذهب في الأسواق المحلية، عند إصدار هذه الفتوى، فإن مقدار نصاب الزكاة يقدر بـ (2500) دينار أردني، أو ما يعادلها من العملات الأخرى، ويخضع هذا التقدير للتعديل، تبعاً لما يطرأ على سعر الذهب من ارتفاع أو انخفاض، عند إخراج الزكاة في فترات أخرى.

* البقرة: 184.

الصدقة للأصول والفروع

في رمضان وقبله بقليل، تكثر الأسئلة كل عام عن الأشخاص الذين يجوز أن تصرف صدقة الفطر أو الزكاة لهم، ويظهر من غالب تلك الأسئلة أن بعض الناس يهدف إلى أن لا تخرج الصدقة الواجبة عليه من محيطه ومنافعه، وكأن حاله يقول مكره أخاك لا بطل، فما دام الواجب لزمني فلأبحث عن أقل الخسائر، فيسأل هل أعطيها لابني أو ابنتي أو والدي؟!! فيريدها أن لا تخرج عن محيطه ودائرة المقربين منه، علماً أن هؤلاء إذا كانوا أقارب من الدرجة الأولى، فلهم حق نفقة عليه خارج نطاق الصدقة الواجبة والمحددة، التي لا تصرف للفروع والأصول من الأقارب.

سائلين الله تعالى أن يعيننا على حسن الطاعة، والصيام والصدقة، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله الكرام، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبين فضل صيام الست من شوال

يشجع الرسول، صلى الله عليه وسلم، على صيام ستة أيام من شهر شوال، ويبين فضله، فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ). (*)

ووعد الصائم بهذا الجزاء ينسجم مع وعده في الحديث الآخر بأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه، إن صام رمضان إيماناً واحتساباً، ووعد مقيم ليلة القدر بمثل ذلك، فمن صام شهراً مكوناً من ثلاثين يوماً، يضاعف أجره على أقل تقدير إلى عشرة أضعاف، فتكون المحصلة كأنه صام ثلاثمائة يوم، فإذا ما أتبع ذلك صوم ستة أيام من شوال، فيضيف ستين يوماً أخرى، بناء على مبدأ المضاعفة المشار إليه آنفاً، وإذا ما أضيفت الستون إلى الثلاثمائة السابقة، يكون حاصل الجمع ثلاثمائة وستين يوماً، وذلك يقارب عدد أيام العام، وبالتالي يكون من صام رمضان وستاً من شوال، كأنما صام الدهر.

ومن الأحكام الشرعية التي ينبغي مراعاتها لمن يصوم الست من شوال، الانتباه إلى أنها مستقلة عن صوم رمضان، ولا تعتبر جزءاً منه، فتركها لا يخل بصومه، وصومها يكون منفصلاً عنه بالعيد، وهلال الشهر الجديد، وحكم صومها السنة أو الاستحباب، ولا تصل درجة الوجوب، إلا إذا اقترنت بملزم من نذر أو يمين، أو قضاء.

الست من شوال وقضاء ما فات من صيام أيام رمضان

من كان عليه من المسلمين والمسلمات قضاء أيام أفطرها أي منهم بعذر المرض أو السفر، أو الحيض أو النفاس، أو غير ذلك من أعذار الفطر في رمضان، فعليه أن يقضيها لاحقاً، لقوله سبحانه وتعالى: {أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ

* صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعاً لرمضان.

مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}[1]، وأكد سبحانه هذا المضمون في الآية التالية، فقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[2]، فالله لم يحدد أياماً للالتزام بقضاء أيام رمضان فيها، بل قال على وجه الإطلاق، وليس التقييد: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}.

وقضاء الأيام الفائتة يكون أولاً، قبل الشروع في صيام ست من شوال؛ وذلك حتى يتحقق في الصائم شرط من صام رمضان، ثم صام ستاً من شوال، فبعض العلماء يشترطون القضاء قبل الشروع في سنة الست من شوال، فالمسارعة في سداد الدين المستحق أولى من الانشغال عنه بأداء السنن والنوافل، ففي الحديث القدسي، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ قال من عَادَى لي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ). [3]

والصيام على هذا الوجه هو الأفضل لمن أراد نيل الأجر الأكمل، والثواب الأجزل، غير أن من ضاقت به أيام شوال، حيث لا تعد تتسع للقضاء، والست من شوال، فيجوز له تأخير القضاء، والبدء بالست؛ حتى لا يفوته فضل صيامها، والله تعالى أعلم.

وكثيراً ما يتكرر السؤال – وبخاصة من ذوات الحيض والنفاس، اللواتي أفطرن أياماً في رمضان بسبب العذر الشرعي– عن حكم جمع القضاء والست من شوال في أيام صيام

1. البقرة: 184.
2. البقرة: 185.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

واحدة بنيتين، إحداهما للقضاء، والأخرى لصيام السُنة، ونميل إلى منع هذا الجمع، فإما أن تتعلق النية بالقضاء، أو بالتطوع والسنة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، قال: من صام رمضان؛ أي كل رمضان، وهذا لا ينطبق على الجزء من رمضان، وبناء على ذلك، فإن فضل صوم الست من شوال يحظى به من قام بهذا الصوم بعد الانتهاء من أداء صوم شهر رمضان كاملاً، إلا من حرص على صيام الست، ولم يجد وقتاً للقضاء وصومها، فيصومها قبل القضاء، والله أعلم.

في أي أيام شوال تصام الست منه؟

جاء في شرح النووي على صحيح مسلم أنه استحب بعض العلماء أن تصام الست متوالية عقب يوم الفطر، فإن فرقها أو أخرها عن أوائل شوال إلى أواخره، حصلت فضيلة المتابعة؛ لأنه يصدق أنه أتبعه ستاً من شوال.(*)

ففي المحصلة أنه يجوز صيام الست من شوال مباشرة بعد يوم العيد، ويجوز تأخيرها عنه، ويجوز صيامها متتابعة ومتفرقة، إذ الحديث لم يشترط لها شيئاً من ذلك، و(ثم) تفيد الترتيب والتراخي، يعني الترتيب بعد رمضان، والتراخي يعني أن يقع صيامها خلال شوال دون اشتراط الفورية، ولا التتابع في ذلك، وإن كانت المسارعة لأدائها أفضل وأضمن، خوفاً من أن تأتي على المرء ظروف تفوت عليه صيامها، والله تعالى أعلم.

لا يلزم من صام الست من شوال أن يصومها دائماً

من صام الست من شوال في عام، لا يلزم بها في الأعوام التالية، بل يبقى مخيراً في صومها، أو التخلف عن فعل ذلك، لا كما يظن بعض الناس من أنه إن صامها لزمه صومها كل عام، مع التأكيد على أن من يصومها، ويحافظ على ذلك أفضل ممن يتركها، من حيث نيل الأجر والثواب، فأفضل الأعمال أدومها.

---

* صحيح مسلم بشرح النووي، 56/8.

وبالنسبة إلى كيفية صيام الست من شوال، ومتى تصام فيه، فيجوز البدء بصومها في اليوم التالي ليوم عيد الفطر؛ أي من ثاني أيام شوال وحتى نهايته، ويجوز أن تصام متتالية، أو متفرقة، ولا بأس فيما يفعله بعض الناس من حرص على أدائها أيام الإثنين والخميس من شهر شوال، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر في سياق التشجيع على صومها حرف "من" دون تقييد بأول الشهر أو وسطه أو آخره، ودون تحديد تتابع أو تفريق، أو أيام مخصوصة من الشهر، فتجوز أن تؤدى بناء على ذلك في أي ستة أيام من شهر شوال على الإطلاق، غير أن المسارعة لأدائها أولى، من باب المسارعة لفعل الخير المطلق، عملاً بقوله تعالى:{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}[1]

حكم أكل الناسي أو شربه خلال صوم التطوع

يتساءل بعض الصائمين عن أكلهم أو شربهم حال النسيان خلال صوم التطوع، وجواب ذلك أن لا فرق في العفو عمن أكل ناسياً وهو صائم، سواء أكان يصوم فرضاً أم تطوعاً، فكلهم مشمولون في قوله صلى الله عليه وسلم:(مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ).[2]

والذي يأكل ناسياً وهو صائم لا يأثم؛ لأنه وقع في الخطأ دون قصد، والله تعالى يقول: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[3]

سائلين الله العلي القدير أن يجعلنا ممن يحرصون على أداء الفرائض والسنن والنوافل على الوجه المشروع؛ لننال محبته ورضاه سبحانه، ونفوز بجنة الفردوس، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله الكرام، وصحابته الأبرار.

---

1. آل عمران: 133.
2. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان.
3. البقرة: 286.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
خيّر المسلمين بين صيام يوم عاشوراء وتركه

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كَانُوا يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ قبل أَنْ يُفْرَضَ رَمَضَانُ، وكان يَوْمًا تُسْتَرُ فيه الْكَعْبَةُ، فلما فَرَضَ الله رَمَضَانَ، قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: من شَاءَ أَنْ يَصُومَهُ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهُ فَلْيَتْرُكْهُ).[1]

وفي رواية جاء التخيير بين صيامه وتركه متعلقاً بحب الراغب به، أو كره الراغب بتركه، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَوْمُ عَاشُورَاءَ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كان يَوْمًا يَصُومُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَصُومَهُ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَرِهَ فَلْيَدَعْهُ).[2]

يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر محرم، والروايات الصحيحة أعلاه تتضافر على أمور، منها: أن يوم عاشوراء له قيمة عند المسلمين وقدر، بدليل العناية بصيامه، واتخاذه يوماً لستر الكعبة فيه، ومن الروايات الصحيحة التي تبين فضل صيامه، ما ورد عن أبي قَتَادَةَ أن رَجُلاً أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (كَيْفَ تَصُومُ؟ فَغَضِبَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فلما رَأَى عُمَرُ، رضي الله عنه، غَضَبَهُ، قال: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، نَعُوذُ بِاللهِ من غَضَبِ اللهِ، وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَجَعَلَ عُمَرُ، رضي الله عنه، يُرَدِّدُ هذا الْكَلامَ حتى سَكَنَ غَضَبُهُ، فقال عُمَرُ: يا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ بِمَنْ يَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ؟ قال: لا صَامَ ولا أَفْطَرَ، أو قال: لم يَصُمْ ولم يُفْطِرْ، قال: كَيْفَ من يَصُومُ يَوْمَيْنِ وَيُفْطِرُ يَوْمًا؟ قال: وَيُطِيقُ ذلك أَحَدٌ، قال: كَيْفَ من يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا؟ قال: ذَاكَ صَوْمُ دَاوُدَ عليه السَّلام، قال: كَيْفَ من يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمَيْنِ؟ قال: وَدِدْتُ أَنِّي طُوِّقْتُ ذلك، ثُمَّ قال رسول اللهِ،

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس...}(المائدة:97).
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء.

صلى الله عليه وسلم: ثَلاثٌ من كل شَهْرٍ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، فَهَذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ على اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ التي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ على اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ).[1]

فقد بيّن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف فضل صيام يوم عاشوراء، حيث قال: (أَحْتَسِبُ على اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ) وَسُئِلَ ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، عن صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فقال: (ما عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، صَامَ يَوْمًا يَطْلُبُ فَضْلَهُ على الأَيَّامِ إلا هذا الْيَوْمَ، ولا شَهْرًا إلا هذا الشَّهْرَ يَعْنِي رَمَضَانَ).[2]

مع التنبيه إلى أن هذا البيان جاء بعد فرض صيام رمضان، مما يعني أن صيام يوم عاشوراء ما يزال استحبابه قائماً، وفضله حاضراً، وهذا - والله تعالى أعلم - لا يتناقض مع الروايات التي أشارت إلى أن الاهتمام بصيامه كان قبل فرض رمضان، ثم ترك الأمر لاختيار المسلم إن شاء صامه، وإن شاء لم يصمه، فصيامه ليس فرضاً، فهل بقي سنة أم لا؟ وللمساعدة في الإجابة عن هذا السؤال يمكن عرض الأحاديث الواردة بشأن عاشوراء وصيامه، وذلك على النحو الآتي:

النبي، صلى الله عليه وسلم، صام عاشوراء وحث عليه قبل فرض رمضان

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ في الْجَاهِلِيَّةِ، وكان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَصُومُهُ، فلما قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فلما فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يوم عَاشُورَاءَ فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ).[3]

وفي رواية أن عائشة نفسها كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية، فعن عُرْوَةَ (أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ قُرَيْشًا كانت تَصُومُ عَاشُورَاءَ في الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم،

1.صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء.

بِصِيَامِهِ حتى فُرِضَ رَمَضَانُ، فقال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، من شَاءَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُفْطِرْهُ).[1]

فهاتان الروايتان تؤكدان أن صيام يوم عاشوراء كانت العرب تعرفه وتصومه قبل مجيء الإسلام، وأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، صامه، بل كان يتحرى صيامه، وعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما (أنه كان لا يَصُومُهُ إلا أَنْ يُوَافِقَ صَوْمَهُ).[2]

وعن جَابِرِ بن سَمُرَةَ، رضي الله عنه، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَأْمُرُنَا بِصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَيَحُثُّنَا عليه، وَيَتَعَاهَدُنَا عِنْدَهُ، فلما فُرِضَ رَمَضَانُ لم يَأْمُرْنَا، ولم يَنْهَنَا، ولم يَتَعَاهَدْنَا عِنْدَهُ).[3]

فالثابت أن حث النبي، صلى الله عليه وسلم، على صيام يوم عاشوراء كان قبل فرض رمضان، الذي كان في السنة الثانية للهجرة، وقد أدرك الصحابة، رضي الله عنهم، هذه الحقيقة، بدليل تراخي بعضهم عن صيامه بعد فرض رمضان، وهو الآن ليس بفرض على الإطلاق، بل هو من السنن والمستحبات.

صيام التاسع والعاشر من محرم

جاء في صحيح مسلم، بَاب أَيُّ يَوْمٍ يُصَامُ في عَاشُورَاءَ، وفيه عن الْحَكَمَ بن الأَعْرَجِ قال: (انْتَهَيْتُ إلى ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، وهو مُتَوَسِّدٌ رِدَاءَهُ في زَمْزَمَ، فقلت له: أَخْبِرْنِي عن صَوْمِ عَاشُورَاءَ، فقال: إذا رَأَيْتَ هِلالَ الْمُحَرَّمِ فَاعْدُدْ، وَأَصْبِحْ يوم التَّاسِعِ صَائِمًا، قلت: هَكَذَا كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَصُومُهُ، قال: نعم).[4]

وعن عبد اللهِ بن عُمَيْرٍ، لَعَلَّهُ قال: عن عبد اللهِ بن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (قال

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان.
3. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء.
4. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء.

رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: لَئِنْ بَقِيتُ إلى قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ، وفي رِوَايَةِ أبي بَكْرٍ، قال: يَعْنِي يوم عَاشُورَاءَ). [1]

فهاتان الروايتان تدلان على استحباب صيام يوم التاسع من محرم استباقاً ليوم عاشوراء، وفي هذا ما يؤكد الحرص على صيام عاشوراء، لكن بطريقة تميز صيام المسلمين عن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

علاقة صيام عاشوراء ببني إسرائيل والشيعة

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، الْمَدِينَةَ، فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يوم عَاشُورَاءَ، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يَوْمٌ صَالِحٌ، هذا يَوْمٌ نَجَّى الله بَنِي إِسْرَائِيلَ من عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قال: فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ). [2]

وفي رواية أن بني إسرائيل كانوا يعدون يوم عاشوراء عيداً، فحث النبي، صلى الله عليه وسلم، المسلمين على صيامه، فعن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: (كان يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَعُدُّهُ الْيَهُودُ عِيدًا، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَصُومُوهُ أَنْتُمْ). [3]

فهذه الروايات تؤكد خبر اهتمام بني إسرائيل بصيام يوم عاشوراء، لسبب يتعلق بنجاة موسى، عليه السلام، والنبي، صلى الله عليه وسلم، لما علم بذلك ذكر أنه أحق من بني إسرائيل بموسى، عليه السلام، وفي رواية دار النقاش حول هذا اليوم، وصيامه بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، واليهود أنفسهم، وذكر فيه (نحن) بدل أنا، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (لَمَّا قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، الْمَدِينَةَ وَجَدَ الْيَهُودَ يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ، فَسُئِلُوا عن ذلك، فَقَالُوا: هذا الْيَوْمُ الذي أَظْفَرَ الله فيه مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ على فِرْعَوْنَ، وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا له، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، ثُمَّ

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء.

أَمَرَ بِصَوْمِهِ).[1]

وفي رواية أخرى خاطب الرسول، صلى الله عليه وسلم، أصحابه قائلاً: (أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى منهم، فَصُومُوا). [2]

أما الشيعة؛ فحين يذكرون عاشوراء يعنون بها ذكرى استشهاد الحسين بن علي، رضي الله عنهما، لكنهم يحيون هذه الذكرى بأساليب كثيرها بدع منكرة، حيث اللطم والعزاء المتجدد وما إلى ذلك، فما جاء من روايات وبيان مما ذكر أعلاه فيما يخص عاشوراء لا يمت بصلة لعاشوراء الشيعة.

هدانا الله تعالى إلى اتباع سنة نبيه، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي، صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة.
2. صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة يونس، باب {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا...} (يونس: 90).

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يؤكد فرض الحج ويبين فضله وأهميته

عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسُولُه، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البيتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ). [1]

فالحج من أركان الإسلام الخمسة، التي يقوم عليها دين الله الإسلام، وهو فريضة محكمة، ثبتت فرضيته بالقرآن، والسنة المتواترة، والإجماع، وفرض الله تعالى أداءه على من يستطيع إليه سبيلاً، فقال جل شأنه: {...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[2]، وأكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، هذا الفرض، فعن أَبِي هريرة، رضي الله عنه، قال: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ؛ قَد فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ، فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ). [3]

واجتمعت في الحج عبادة بدنية؛ كالصلاة، والصيام، وعبادة مالية، فأشبه الزكاة من هذه الناحية؛ لما فيه من الإنفاق في سبيل الله، وفيه مجاهدة للنفس والبدن.

ويأثم من يقدر على أداء الحج ويتوانى عن ذلك، وذهب الإمام محمد من الحنفية والشافعي، وفي رواية للمالكية إلى أن الحج واجب على التراخي، وأن التعجيل سنة، وإنما

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام.
2. آل عمران: 97.
3. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر.

يجب التعجيل على من خشي العجز أو الهلاك.[1]

وفي هذه الأيام تجري الاستعدادات على قدم وساق لشد الرحال إلى بيت الله العتيق، من قبل من أكرمهم الله تعالى ليكونوا من حجاج هذا العام، فقد مضى النصف الأول من الشهر الثاني للحج، وأقل من شهر يفصلنا عن يوم الحج الأكبر، الذي يتمنى كل صاحب بصيرة من الحجاج أن يتجاوزه وقد غفرت ذنوبه، ليرجع كما ولدته أمه، صفحة بيضاء، نقياً من الذنوب والخطايا، محصلاً جائزة كبرى، تفوق في قيمتها وقدرها جوائز الدنيا مهما عظمت، وحتى يتحقق هذا الفوز الموعود، لا بدَّ للحاج من الأخذ بأسبابه، والمسألة يسيرة على من يخلص النية، ويصفي السريرة، ويلح في طلب التوفيق من الله تعالى لأداء الحج المبرور، ويحرص على أخذ مناسكه عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في طوافه، وسعيه، ووقوفه، وصلاته، ورميه، وذبح هديه، مبتعداً عن الرفث، والجدال، والفسوق في حجه.

معنى الحج المبرور و ثوابه

الحج المبرور هو المقبول، وقيل: الذي لا يخالطه شيء من الإثم، ورجحه النووي، وقال القرطبي: "الأقوال التي ذُكرت في تفسيره متقاربة المعنى، وهي أنه الحج الذي وفيّت أحكامه، ووقع موقعاً لما طلب من المكلف على الوجه الأكمل". [2]

فالحج المبرور هو ما اجتمعت فيه أمور، من أهمها:

1. أن يكون خالصاً لله، فلا ينبغي أن يحمل الإنسان على الحج إلا ابتغاء رضوان الله.
2. أن يكون الحج على صفة حج النبي، صلى الله عليه وسلم، ويتبع فيه المسلم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ما استطاع.
3. أن يكون من مال مباح حلال ليس حراماً، وأن لا يكون من ربا أو غش أو رشوة أو قمار.

---

1. تحفة الفقهاء: 380/1، والقوانين الفقهية: 86، ومغني المحتاج: 460/1.
2. فتح الباري: 446/3.

4. أن يجتنب فيه الرفث والفسوق والجدال، إلا جدالاً يراد منه إثبات حق، أو إبطال باطل، وأن يكثر من ذكر الله. [1]

ومن أحسن ما قيل فيه، أنه الحج الذي لا رياء فيه ولا سمعة، ولا رفث ولا فسوق، ويكون بمال حلال.[2]

وللحج المبرور ثمار كثيرة، على رأسها الفوز بالجنة، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ). [3]

وَعَدَّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، أفضل الجهاد الحج المبرور، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ تُرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ).[4]

وفي رواية: (لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَلا أَدَعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم).[5]

السيئات التي يكفرها الحج

إلى جانب فوز الحاج بالجنة، فإن الله تعالى يكرمه بمحو خطاياه وذنوبه، فقد روى أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُث، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).[6]

ويباهي الله بالحجاج ملائكته، فعن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله، صلى الله عليه

1. المقالات النفيسة: 13 وما بعدها، وشرح رياض الصالحين: 3/448-449.
2. التمهيد: 22/39، والاستذكار: 4/104.
3. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة .
4. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير.
5. صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء.
6. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.

وسلم، قال: (مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هَؤُلاءِ).[1]

وعن عمرو بن العاص، أنه قال: (...فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الإِسْلامَ فِي قَلْبِي، أَتَيْتُ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم: فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟ قالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ).[2]

هل الحج يكفِّر صغائر الذنوب وكبائرها، وحقوق العباد؟

اختلف العلماء في ذلك، فابن حجر يرى أن ظاهر الحديث أن من حج، ولم يأت بالجماع، ولكل ما يريده الرجل من المرأة، ولم يفسق، فلم يأت بسيئة ولا معصية، فقد رجع بغير ذنب، وغفر له الصغائر والكبائر والتبعات، والحديث لم يذكر الجدال مع أنه مذكور في الآية: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ}[3]؛ لأنه اكتفى بذكر بعض المخالفات، أو لأن الجدال داخل في الفحش والرفث.

ويرى الطبري، رحمه الله، أن حقوق العباد يكفرها الحج في حق من تاب، وعجز عن الوفاء. ويرى الترمذي: أن الحديث مخصوص بالمعاصي المتعلقة بحق الله لا العباد، ولا يسقط الحق نفسه، بل من عليه صلاة، يسقط إثم تأخيرها لا نفسها، ومن عليه صيام، وجب القضاء، وغفر له الإثم، ويبقى الحق، ولا بدَّ من بذل حقوق العباد لأصحابها أو مسامحتهم. ولا يسقط حق الآدمي من مال، أو عرض، أو دم بالحج.

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.
3. البقرة: 197.

وفي جامع العلوم والحكم: أن الكبائر لا تغفر دون التوبة، وهو قول الجمهور، وهو الصحيح؛ لأن التوبة فرض على العباد، وقد قال الله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.[1]

ولهذا؛ فإنَّ على الحجاج، أن يحرصوا مع الحج على التوبة النصوح، بل قبله ومعه ومع كل موقف، والندم عما سلف من الذنوب، خاصة الكبائر، مع العزم على عدم العودة إليها حتى تقبل توبتهم، والتحلل من حقوق العباد، وقطع الخصومات قبل سفرهم لأداء هذه العبادة المباركة.[2]

هدانا الله وحجاج بيت الله الحرام لنحج الحج المبرور، ونسعى السعي المشكور، لنفوز بالجزاء الموفور، وغفران الذنوب، ونحشر مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الحجرات: 11.
2. حاشية ابن عابدين: 623/2.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يرشد الحجاج ليأخذوا مناسكهم عنه ـ الحلقة الأولى

عن أبي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سمع جَابِرًا يقول: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يَرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه). [1]

الحج عبادة يؤديها المسلم انصياعاً لأمر الله تعالى، وذلك على الكيفية والهيئة التي شرعها الله جل شأنه، وبينها الرسول، صلى الله عليه وسلم، في سنته المتمثلة في أعماله وأقواله، والحديث الذي بين أيدينا يرشد إلى أن حج الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو الأصل الذي يجب أن يتبع، فهو القدوة الحسنة، وبخاصة أن في الحج من الأعمال الكثيرة التي تخرج عن نطاق الاجتهادات البشرية، وفي معظمها خروج عن المألوف في اللباس والعادات، وهي ذات صلة بتاريخ أبرز الأنبياء وسيرهم، ولا يملك المرء أمامها سوى الانقياد والانصياع لأمر الله، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن ومواقفه دائماً، والله تعالى يقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}. [2]

قوله: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ)؛ أي لتعلموها مني وتحفظوها، والمناسك هي مواقف الحج وأعماله. [3]

وفي عون المعبود: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ) قال النووي: اللام للأمر، ومعناه خذوا مناسككم، وتقدير الحديث أن هذه الأمور التي أتيت بها في حجتي من الأقوال والأفعال والهيئات،

---

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.
2. الأحزاب: 36.
3. فيض القدير: 260/5.

هي أمور الحج، وصفته، والمعنى اقبلوها، واحفظوها، واعملوا بها، وعلموها الناس. وقوله: (فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه) فيه إشارة إلى توديعهم، وإعلامهم بقرب وفاته صلى الله عليه وسلم، ولهذا سميت حجة الوداع.[1]

ومسألة أخذ المناسك، طلبها إبراهيم، عليه السلام، من الله تعالى، وفق ما جاء في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}.[2] فإبراهيم وهو يرفع قواعد البيت ونجله إسماعيل، عليهما السلام، دعا الله تعالى بأمور خمسة عظيمة، وهي:

* أن يتقبل منهما عملهما.
* أن يجعلهما مسلمين له وذريتهما.
* أن يريهما مناسكهم.
* أن يتوب عليهم.
* أن يبعث في أمته رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهمْ.

فتشريع المناسك مرتبط بالأمر الإلهي، وليس للاجتهاد البشري فيه نصيب، من هنا جاء توجيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمسلمين، وهو يؤدي أعمال الحج، متمثلاً بقوله: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ) فالمسلمون يرمون، ويطوفون، ويسعون، ويقفون بعرفة، ويحلقون، ويقصرون، ويذبحون الهدي، ويؤدون الشعائر والمناسك، صغيرها وكبيرها، وفق الهيئة التي تلقوها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، التي يجملها عبد اللهِ بن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما،

1. عون المعبود: 310/5.
2. البقرة: 127-129.

في الحديث الصحيح: (انْطَلَقَ النبي، صلى الله عليه وسلم، من الْمَدِينَةِ بَعْدَ ما تَرَجَّلَ، وَادَّهَنَ، وَلَبِسَ إِزَارَهُ وَرِدَاءَهُ هو وَأَصْحَابُهُ، فلم يَنْهَ عن شَيْءٍ من الْأَرْدِيَةِ وَالْأُزُرِ تُلْبَسُ إلا الْمُزَعْفَرَةَ، التي تَرْدَعُ على الْجِلْدِ، فَأَصْبَحَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، رَكِبَ رَاحِلَتَهُ حتى اسْتَوَى على الْبَيْدَاءِ، أَهَلَّ هو وَأَصْحَابُهُ، وَقَلَّدَ بَدَنَتَهُ، وَذَلِكَ لِخَمْسٍ بَقِينَ من ذِي الْقَعْدَةِ، فَقَدِمَ مَكَّةَ لِأَرْبَعِ لَيَالٍ خَلَوْنَ من ذِي الْحَجَّةِ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَسَعَى بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ولم يَحِلَّ من أَجْلِ بُدْنِهِ؛ لِأَنَّهُ قَلَّدَهَا ثُمَّ نَزَلَ بِأَعْلَى مَكَّةَ عِنْدَ الْحَجُونِ، وهو مُهِلٌّ بِالْحَجِّ، ولم يَقْرَبْ الْكَعْبَةَ بَعْدَ طَوَافِهِ بها، حتى رَجَعَ من عَرَفَةَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ يُقَصِّرُوا من رؤوسهم، ثُمَّ يَحِلُّوا، وَذَلِكَ لِمَنْ لم يَكُنْ معه بدنه قَلَّدَهَا، وَمَنْ كانت معه امْرَأَتُهُ فَهِيَ له حَلَالٌ، وَالطِّيبُ، وَالثِّيَابُ).[1]

ويمكن تلخيص كيفيات أبرز تلك الأعمال كما وردت في الأحاديث الصحيحة، على النحو الآتي:

يبدأ الحاج والمعتمر أعمال الحج أو العمرة بالإحرام، وهو نية الحج أو العمرة، وبه تبدأ أعمالهما، وكان يهل الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الميقات، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (رأيت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَرْكَبُ رَاحِلَتَهُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، ثُمَّ يُهِلُّ حين تَسْتَوِيَ بِهِ قَائِمَةً).[2]

ولكل جهة ميقاتها، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (إِنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَقَّتَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلِأَهْلِ الشام الْجُحْفَةَ، وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ، وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ، هُنَّ لَهُنَّ، وَلِمَنْ أتى عَلَيْهِنَّ من غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَمَنْ كان دُونَ

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما يلبس المحرم من الثياب والأردية والأزر.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق* ليشهدوا منافع لهم} (الحج: 27-28).

ذلك، فَمِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ حتى أَهْلُ مَكَّةَ من مَكَّةَ).[1]

فيلزم الحاج أن لا يتجاوز الميقات المكاني المحدد للمنطقة التي يريد العبور منها إلى مكة المكرمة، إلا وهو محرم، سواء للحج أم العمرة، أم لهما.

فإذا شرع بالإحرام لزم الرجال التجرد من المخيط، والامتناع عن استخدام الطيب، والمعاشرة الجنسية ومقدماتها ودواعيها، وعن قص الشعر، أو حلقه، أو قص الأظافر، وبخصوص الطيب، روي عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، قالت: (كنت أُطَيِّبُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لِإِحْرَامِهِ حين يُحْرِمُ، وَلِحِلِّهِ قبل أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ).[2]

وبالنسبة إلى ما لا يلبسه المُحْرِمُ من الثِّيَابِ، ورد عن عبد اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَجُلاً قال: يا رَسُولَ اللهِ؛ ما يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ من الثِّيَابِ؟ قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لا يَلْبَسُ الْقُمُصَ، ولا الْعَمَائِمَ، ولا السَّرَاوِيلاتِ، ولا الْبَرَانِسَ، ولا الْخِفَافَ، إلا أَحَدٌ لا يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ من الْكَعْبَيْنِ، ولا تَلْبَسُوا من الثِّيَابِ شيئاً مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ، أو وَرْسٌ).[3]

قصر الصلاة في السفر إلى الحج، التلبية ورَفْعِ الصَّوْتِ بالْإِهْلَالِ

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (صلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بِالْمَدِينَةِ الظُّهْرَ أَرْبَعًا، وَالْعَصْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ، وَسَمِعْتُهُمْ يَصْرُخُونَ بِهِمَا جميعاً).[4]

وعن عبد اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ تَلْبِيَةَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك، وَالْمُلْكَ لا شَرِيكَ لك).[5]

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب مهل أهل مكة للحج والعمرة.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الطيب عند الإحرام، وما يلبس إذا أراد أن يحرم ويترجل ويدهن.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما لا يلبس المحرم من الثياب.
4. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب رفع الصوت بالإهلال.
5. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التلبية.

التَّحْمِيدِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ قبل الإِهْلالِ عِنْدَ رُكُوبِ وسيلة السفر

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (صلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَنَحْنُ معه بِالْمَدِينَةِ الظُّهْرَ أَرْبَعًا، وَالْعَصْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ بَاتَ بها، حتى أَصْبَحَ، ثُمَّ رَكِبَ حتى اسْتَوَتْ بِهِ على الْبَيْدَاءِ، حَمِدَ اللهَ، وَسَبَّحَ، وَكَبَّرَ، ثُمَّ أَهَلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، وَأَهَلَّ الناس بِهِمَا، فلما قَدِمْنَا أَمَرَ الناس، فَحَلُّوا حتى كان يَوْمُ التَّرْوِيَةِ، أَهَلُّوا بِالْحَجِّ، قال: وَنَحَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم بَدَنَاتٍ بيده قِيَامًا، وَذَبَحَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالْمَدِينَةِ كَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ). [1]

الطيب قبل الشروع في الإحرام

عن نَافِعٍ قال: (كان ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، إذا أَرَادَ الْخُرُوجَ إلى مَكَّةَ ادَّهَنَ بِدُهْنٍ ليس له رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، ثُمَّ يَأْتِي مَسْجِدَ ذِي الْحُلَيْفَةِ، فَيُصَلِّي ثُمَّ يَرْكَبُ، وإذا اسْتَوَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ قَائِمَةً، أَحْرَمَ، ثُمَّ قال: هَكَذَا رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يَفْعَلُ). [2]

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة، بإذن الله تعالى، للوقوف عند مزيد من أعمال الحج والعمرة كما وردت عن الرسول الأسوة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التحميد والتسبيح والتكبير قبل الإهلال عند الركوب على الدابة
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الإهلال مستقبل القبلة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يرشد الحجاج ليأخذوا مناسكهم عنه ـ الحلقة الثانية

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (خَرَجْنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَمِنَّا من أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ، وَمِنَّا من أَهَلَّ بِحَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، وَمِنَّا من أَهَلَّ بِالْحَجِّ، وَأَهَلَّ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالْحَجِّ، فَأَمَّا من أَهَلَّ بِالْحَجِّ، أو جَمَعَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، لم يَحِلُّوا حتى كان يَوْمُ النَّحْرِ).[1]

جاء هذا الحديث الشريف في صحيح البخاري، تحت باب التَّمَتُّعِ وَالْإِقْرَانِ وَالْإِفْرَادِ بِالْحَجِّ وَفَسْخِ الْحَجِّ لِمَنْ لم يَكُنْ معه هَدْيٌ، فأمام قاصد الحج أن يختار نوعاً من ثلاثة نسك يؤدى الحج بها، فالذي يريد الحج فقط هو المفرد، أما الذي يريد أن يعتمر ويحج بنفس الإحرام فهو القارن، بخلاف الذي يريد أن يعتمر ويحج بإحرامين، وهو المتمتع، ولكل من هذه الأنواع الثلاثة أحكامها وضوابطها، وثلاثتها مشروعة، فعن مَرْوَانَ بن الْحَكَمِ، قال: (شَهِدْتُ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا، رضي الله عنهما، وَعُثْمَانُ يَنْهَى عن الْمُتْعَةِ، وَأَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فلما رَأَى عَلِيٌّ أَهَلَّ بِهِمَا، لَبَّيْكَ بِعُمْرَةٍ وَحَجَّةٍ، قال: ما كنت لِأَدَعَ سُنَّةَ النبي، صلى الله عليه وسلم، لِقَوْلِ أَحَدٍ). [2]

وعن حَفْصَةَ، رضي الله عَنْهُا، زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: (يا رَسُولَ اللهِ؛ ما شَأْنُ الناس حَلُّوا بِعُمْرَةٍ ولم تَحْلِلْ أنت من عُمْرَتِكَ؟ قال: إني لَبَّدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فلا أَحِلُّ حتى أَنْحَرَ).[3] قوله: (لَبَّدْتُ رَأْسِي) من التلبيد، وهو أن يجعل المحرم في رأسه شيئاً من صمغ؛ ليصير شعره كاللبد؛ لئلا يشعث في الإحرام، (وَقَلَّدْتُ هَدْيِي): من التقليد،

1. صحيح البخاري، كتب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من لبد رأسه عند الإحرام وحلق.

وتقليد الهدي أن يعلق في عنقه شيء؛ ليعلم أنه هدي.[1]

قيل: إن هذا الحديث يدل على أن النبي، صلى الله عليه وسلم، حج قارناً، فالقارن لا يحل حتى يحل منهما جميعاً بآخر عمل الحج، وبعضهم زعم أن حديث حفصة هذا ليس فيه ما يدل على أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يومئذ متمتعاً، ولا قارناً، وقال: في جوابه لها ما يدل على أنه كان مفرداً لقوله: (لَبَّدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي) ولم يعرف أن هدي المفرد تطوع لا يمنع من إحلال لمن أمر بفسخ حجه في عمرة كما أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يومئذ أصحابه.[2]

والنبي، صلى الله عليه وسلم، لم يعتمر عقيب الحجة هو ولا أحد من أصحابه سوى عائشة، وإنما اعتمد الناس في العمرة بعد الحج على حديث عائشة، فيجب أن يكون اعتمر في أشهر الحج، إما قبل الحج متمتعاً، أو معه، ولم يحل من إحرامه، ومثل هذا يسمى قارناً؛ لأنه جمعهما في إحرام واحد.[3]

واحتج بحديث حفصة، أبو حنيفة، وأحمد، ومن وافقهما، على أن من ساق الهدي لا يحل من العمرة حتى يهل بالحج، ويفرغ منه؛ لأنه جعل علة بقائه على إحرامه كونه أهدى.[4]

والعلماء اختلفوا هل حج النبي، صلى الله عليه وسلم، مُفْرِداً، أو قارناً، أو متمتعاً؟

ورجح (ابن القيم) و(ابن تيمية) أنه حج قارناً، واختلف العلماء في أي الأنساك الثلاثة أفضل، والمشهور في مذهب الإمام أحمد، أن التمتع أفضل الثلاثة، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال: لا شك أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان قارناً، والمتعة أحب إِليَّ، وهو آخر الأمرين من رسول الله قال: (لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ وَلَوْلاَ أَنَّ

1. عمدة القاري: 37/18.
2. التمهيد لابن عبد البر: 302/15-303.
3. شرح العمدة: 537/2.
4. شرح الزرقاني: 459/2.

مَعِي الْهَدْيَ).[1]

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في وصف حج الرسول، صلى الله عليه وسلم، ما جاء عن جَابِر بن عبد اللهِ، رضي الله عنهما: (أَنَّهُ حَجَّ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم سَاقَ الْبُدْنَ معه، وقد أَهَلُّوا بِالْحَجِّ مُفْرَدًا، فقال لهم: أَحِلُّوا من إِحْرَامِكُمْ بِطَوَافِ الْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَصِّرُوا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَلالاً، حتى إذا كان يَوْمُ التَّرْوِيَةِ، فَأَهِلُّوا بِالْحَجِّ، وَاجْعَلُوا التي قَدِمْتُمْ بها مُتْعَةً، فَقَالُوا: كَيْفَ نَجْعَلُهَا مُتْعَةً، وقد سَمَّيْنَا الْحَجَّ، فقال: افْعَلُوا ما أَمَرْتُكُمْ، فَلَوْلَا أَنِّي سُقْتُ الْهَدْيَ، لَفَعَلْتُ مِثْلَ الذي أَمَرْتُكُمْ، وَلَكِنْ لا يَحِلُّ مِنِّي حَرَامٌ حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، فَفَعَلُوا).[2]

وعن جَابِر بن عبد اللهِ، رضي الله عنهما، قال: (قَدِمْنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَنَحْنُ نَقُولُ: لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ بِالْحَجِّ، فَأَمَرَنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَجَعَلْنَاهَا عُمْرَةً).[3]

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: (أَنَّهُ سُئِلَ عن مُتْعَةِ الْحَجِّ، فقال: أَهَلَّ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأَزْوَاجُ النبي، صلى الله عليه وسلم، في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَهْلَلْنَا، فلما قَدِمْنَا مَكَّةَ، قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، اجْعَلُوا إِهْلالَكُمْ بِالْحَجِّ عُمْرَةً، إلا من قَلَّدَ الْهَدْيَ، طفنا بِالْبَيْتِ، وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَأَتَيْنَا النِّسَاءَ، وَلَبِسْنَا الثِّيَابَ، وقال: من قَلَّدَ الْهَدْيَ، فإنه لا يَحِلُّ له حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، ثُمَّ أَمَرَنَا عَشِيَّةَ التَّرْوِيَةِ، أَنْ نُهِلَّ بِالْحَجِّ، فإذا فَرَغْنَا من الْمَنَاسِكِ، جِئْنَا، فَطُفْنَا بِالْبَيْتِ والصفا وَالْمَرْوَةِ، فَقَدْ تَمَّ حَجُّنَا، وَعَلَيْنَا الْهَدْيُ، كما قال الله تَعَالَى: فما اسْتَيْسَرَ من الْهَدْيِ فَمَنْ لم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ في الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُمْ إلى أَمْصَارِكُمْ، الشَّاةُ

1. صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الاشتراك في الهدي والبدن وإذا أشرك الرجل الرجل في هديه بعد ما أهدى.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من لبى بالحج وسماه.

تَجْزِي، فَجَمَعُوا نُسُكَيْنِ فِي عَامٍ بين الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فإن الله تَعَالَى أَنْزَلَهُ في كِتَابِهِ، وَسَنَّهُ نَبِيُّهُ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَاحَهُ لِلنَّاسِ، غير أَهْلِ مَكَّةَ، قال الله: ذلك لِمَنْ لم يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَشْهُرُ الْحَجِّ التي ذَكَرَ الله تَعَالَى: شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحَجَّةِ، فَمَنْ تَمَتَّعَ في هذه الأَشْهُرِ، فَعَلَيْهِ دَمٌ، أو صَوْمٌ، وَالرَّفَثُ الْجِمَاعُ، وَالْفُسُوقُ الْمَعَاصِي، وَالْجِدَالُ الْمِرَاءُ).[1]

فهذه بعض الروايات الصحيحة التي وردت في إثبات مشروعية أنواع نسك الحج التي يؤدى بها، ومن الأحكام المشتركة بين أنواع الحج جميعها، ما يأتي:

سنة تقبيل الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ

عن عُمَرَ، رضي الله عنه، أَنَّهُ جاء إلى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، فَقَبَّلَهُ، فقال: (إني أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ، وَلَوْلا أَنِّي رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ). [2]

الطواف حول الكعبة المشرفة

عن عَائِشَةُ، رضي الله عنها: (أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ بَدَأَ بِهِ حين قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ تَوَضَّأَ، ثُمَّ طَافَ، ثُمَّ لم تَكُنْ عُمْرَةً، فَأَوَّلُ شَيْءٍ بَدَأَ بِهِ الطَّوَافُ، ثُمَّ رأيت الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ يَفْعَلُونَهُ، وقد أَخْبَرَتْنِي أُمِّي أنها أَهَلَّتْ هِيَ وَأُخْتُهَا وَالزُّبَيْرُ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ بِعُمْرَةٍ، فلما مَسَحُوا الرُّكْنَ حَلُّوا). [3]

التَّكْبِيرِ عِنْدَ الرُّكْنِ

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (طَافَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِالْبَيْتِ على بَعِيرٍ، كُلَّمَا أتى الرُّكْنَ، أَشَارَ إليه بِشَيْءٍ كان عِنْدَهُ وَكَبَّرَ). [4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى { ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من طاف بالبيت إذا قدم مكة قبل أن يرجع إلى بيته ثم صلي ركعتين ثم خرج إلى الصفا.
4. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التكبير عند الركن.

الصلاة خلف المقام

عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، يقول: (قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ إلى الصَّفَا، وقد قال الله تَعَالَى: لقد كان لَكُمْ في رسول اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ). (*)

فهذا ما تيسر عرضه من أعمال الحج والعمرة وأحكامهما، كما وردت عن الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، على أمل أن تتاح الفرص في مواسم الحج القادمة للاستزادة من هذا العرض، ونسأل الله العلي القدير أن ييسر للمتشغفين للحج السبيل إليه، وأن يجعل حج الذين يحجون الآن مبروراً، وسعيهم مشكوراً، وذنبهم مغفوراً، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من صلى ركعتي الطواف خلف المقام.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يضحي ويبين أحكام الأضحية

عن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُضَحِّي بِكَبْشَيْنِ، وأنا أُضَحِّي بِكَبْشَيْنِ).[1]

يدل هذا الحديث الشريف على مشروعية الأضحية، حيث مارس صلى الله عليه وسلم، هذه الشعيرة بنفسه، وشرعها لأمته، والأضحية هي الذبيحة التي يقدمها المسلم خلال فترة عيد الأضحى المبارك؛ تقرباً إلى الله تعالى، وفق الشروط والضوابط الشرعية، ويدل الحديث الشريف الذي بين أيدينا أن النبي، صلى الله عليه وسلم، ضحى بأكثر من ذبيحة، واقتفى أثره في ذلك راوي هذا الحديث الصحابي أنس بن مالك، رضي الله عنه، والناظر في كتب السنة النبوية، وصحاح الحديث، وكتب الفقه، يجد توضيح أحكام الأضحية، التي نسوق ما تيسر منها فيما يأتي:

وقت الأضحية

يبدأ وقت الأضحية من بعد الانتهاء من صلاة عيد الأضحى، الذي سمي بها، إلى عصر اليوم الثالث من أيام التشريق، الرابع من أيام عيد الأضحى المبارك، ولا يجوز ذبحها قبل صلاة العيد، فعن جُنْدَبِ بن سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ، قال: (ضَحَّيْنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أُضْحِيَةً ذَاتَ يَوْمٍ، فإذا أُنَاسٌ قد ذَبَحُوا ضَحَايَاهُمْ قبل الصَّلاةِ، فلما انْصَرَفَ، رَآهُمْ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُمْ قد ذَبَحُوا قبل الصَّلاةِ، فقال: من ذَبَحَ قبل الصَّلاةِ، فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كان لم يَذْبَحْ حتى صَلَّيْنَا، فَلْيَذْبَحْ على اسْمِ اللهِ).[2]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي، صلى الله عليه وسلم، بكبشين أقرنين ويذكر سمينين.
2. صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: فليذبح على اسم الله.

وعن الْبَرَاءِ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَوَّلَ ما نَبْدَأُ بِهِ في يَوْمِنَا هذا، أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، من فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ، فَإِنَّمَا هو لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، ليس من النُّسُكِ في شَيْءٍ ...).[1]

تدل هاتان الروايتان الصحيحتان على أن من ذَبَحَ قبل الصَّلَاةِ أَعَادَ، فذبيحته في غير الوقت المشروع، لا تتجاوز كونها لحماً قدمه لأهله، كما يقدم لهم في أيامه الأخرى.

بمعنى أن من ذبح قبل الصلاة، لا ينال جزاء الأضحية، وفضل تقديمها قربة إلى الله تعالى، وهو فضل عظيم، لمن وفقه الله إليه، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما عَمِلَ آدَمِيٌّ من عَمَلٍ يوم النَّحْرِ، أَحَبَّ إلى اللهِ من إِهْرَاقِ الدَّمِ، إِنَّهَا لَتَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا، وَأَشْعَارِهَا، وَأَظْلَافِهَا، وَأَنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ من اللهِ بِمَكَانٍ قبل أَنْ يَقَعَ من الأرض، فَطِيبُوا بها نَفْسًا).[2]

إخلاص النية لله تعالى

من أبرز الشروط المطلوبة لقبول الأضاحي والهدي، الذي يقدمه الحاج في منى ومكة المكرمة إخلاص نية التقرب إلى الله تعالى بها، فالله تعالى غني عن العالمين، وليس بحاجة إلى قرباتهم وقرابينهم، ولكن الأضحية والهدي حين تقدمان وفق معايير الشرع وضوابطه تعدان من ثمار تقوى المضحي والمهدي، يجنيان بهما خيرات كثيرة في دينهما ودنياهما وآخرتهما، والله تعالى يقول: {لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}[3]، فهذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن الحج، وذبح الهدي في أيامه المعلومات، والأضحية مثل الهدي وسائر العبادات الأخرى والأعمال الصالحة جميعها، يشترط فيها الإخلاص.

1. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.
2. سنن الترمذي، كتاب الأضاحي، باب ما جاء في فضل الأضحية، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح.
3. الحج: 37.

الأضحية عن الأزواج والعيال

يكفي الأسرة الواحدة الأضحية التي يقدمها ربها، فأضحية الشخص تكفي عن نفسه وعمن يعول من نساء، وأبناء، وآباء، وأمهات، ممن تشملهم نفقته، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قولها: (... فلما كنا بِمِنًى، أُتِيتُ بِلَحْمَ بَقَرٍ، فقلت: ما هذا؟ قالوا: ضَحَّى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، عن أَزْوَاجِهِ بِالْبَقَرِ).[1]

جواز التضحية بأضحية أصلها هدية أو عطية

يمكن للمرء الذي حصل على مبلغ من المال صدقة – إن كان يستحقها– أو منحة مالية، أن يشتري بها أضحية يتقرب إلى الله تعالى بذبحها، كما يمكن التضحية بأضحية تم الحصول عليها عن مثل هذا الطريق، فعن عُقْبَةَ بن عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، قال: (قَسَمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بين أَصْحَابِهِ ضَحَايَا، فَصَارَتْ لِعُقْبَةَ جَذَعَةٌ، فقلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ صَارَتْ جَذَعَةٌ، قال: ضَحِّ بها).[2]

المقصود بـ (جَذَعَةٌ)الطاعنة في السنة الثانية، والذكر الجذع، والسمينة من الضأن.[3]

وفي رواية عن عُقْبَةَ بن عَامِرٍ، رضي الله عنه: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَعْطَاهُ غَنَمًا، يَقْسِمُهَا على صَحَابَتِهِ ضَحَايَا، فَبَقِيَ عَتُودٌ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فقال: ضَحِّ أنت بِهِ).[4]

المقصود بـ(عَتُودٌ) هو من أولاد المعز، صغير إذا قوي، وفي (الصحاح) العتود ما رعى وقوي وأتى عليه حول.[5]

فالشاهد من هاتين الروايتين أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قسّم على صحابته ضحايا،

1. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب الأضحية للمسافر والنساء.
2. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب قسمة الإمام الأضاحي بين الناس.
3. عمدة القاري: 272/10.
4. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي، صلى الله عليه وسلم، بكبشين أقرنين ويذكر سمينين.
5. عمدة القاري: 366/18.

وفيه ما يرفع الحرج عن بعض الناس، الذين يظنون أن ثمن الأضحية، أو الهدي، يجب أن يكون من مالهم الخاص، وعلى الرغم من فضل الإنفاق في هذا السبيل التعبدي من مال المرء الخاص، لكن لا حرج من تقديم ما ملكه من تبرع أو إهداء، شريطة أن يكون مستحقاً للصدقة إذا كان الأمر يتعلق بصدقات أو زكاة، وفيما عدا ذلك، يمكن التضحية أو الإهداء مما أضحى مملوكاً لصاحب الأضحية أو الهدي، ما دام وصل ملكه من طريق مشروع، وبوسائل وأساليب مشروعة.

التضحية بمسنة

من شروط الأضحية، بلوغها السن المحددة في السنة النبوية، فلما سأل أبو بُرْدَةَ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: (يا رَسُولَ اللهِ؛ ذَبَحْتُ قبل أَنْ أُصَلِّيَ، وَعِنْدِي جَذَعَةٌ، خَيْرٌ من مُسِنَّةٍ، فقال: اجْعَلْهَا مَكَانَهَا، وَلَنْ تَجْزِيَ، أو تُوفِيَ عن أَحَدٍ بَعْدَكَ). [1]

تسمين الأضاحي

ورد في صحيح البخاري، عن أَبَي أُمَامَةَ بن سَهْلٍ، قال: (كنا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وكان الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ). [2]

فالأنعام والمواشي تلزمها الرعاية لتصلح للأكل، وحيث إن الأضاحي والهدي يجب لهما من الشروط التي تضمن سلامتهما من العيوب، فلا بد لهما ما يحقق وفر اللحم من الرعي، والتسمين.

فتوى بجواز الأضحية المسمنة

مع قرب حلول عيد الأضحى المبارك، تم التأكيد من قبلنا على فتوى جواز التضحية بالعجول المسمنة، فعلماء الأمة اختلفوا في جواز الأضحية المسمنة، التي لم تبلغ السن

1. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب الذبح بعد الصلاة.
2. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي، صلى الله عليه وسلم، بكبشين أقرنين ويذكر سمينين.

المحددة لنوعها، فذكر عن جمهور الفقهاء منعهم التضحية، بالتي لم تبلغ سن التضحية، حتى لو كانت وافرة اللحم، آخذين بظواهر النصوص التي اشترطت السن. وبعض التابعين كالأوزاعي وعطاء وبعض العلماء المتأخرين، أجازوا التضحية بالمسمن من الأنعام، ولو لم يبلغ السن المحددة، مستأنسين بحكمة من حكم تحديد سن الأضحية، والمتمثلة في وفرة اللحم للفقير والمحتاج.

ومجلس الإفتاء الأعلى أجاز في قراره رقم 1 /13 إذا دعت الضرورة، ودفعاً للحرج، التضحية بالعجول المسمنة، طالما لا يمكن تمييزها لو وضعت بين المسنات، بل ربما تفوقت عليها حجماً ولحماً. مؤكداً على أن من حكم الأضحية توفير اللحم الطيب، والجيد، والوفير للفقراء.

والأخذ بجواز التضحية بالمسمن من الأنعام، فيه تيسير على المضحي أيضاً، من خلال دفع الحرج، الذي يلحق بكثير من الناس، جراء البحث عن أعمار معينة للأضاحي في أسواقها، وبخاصة عند قلة العرض، حيث يصعب في زماننا الحصول على عجول يتجاوز عمرها سنتين لغرض التضحية بها، فمعظم مربي العجول يسوقونها قبل أن تبلغ العام من العمر، وذلك بعد التسمين الذي يصل به وزنها ما يزيد عن التي بلغت العامين لو بقيت ترعى.

سائلين الله العلي القدير أن يتقبل منّا حسن طاعته، وأن يجزي المضحين خير الجزاء، الذي وعدهم به نبيهم محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الثالث
السيرة النبوية

	الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم	
.1	أثمرت هجرته في إحقاق الحق وإزهاق الباطل	137
.2	يحث على البذل لإطلاق سراح الأسرى	142
.3	يفتح مكة منتصراً على قوى الشر	147
.4	يقود المسلمين للنصر على أحزاب الضلال	152
.5	يبين فضل الشهادة ومنازل الشهداء/ الحلقة الأولى	157
.6	يبين فضل الشهادة ومنازل الشهداء/ الحلقة الثانية والأخيرة	162
.7	يبشر أمهات الشهداء	167

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أثمرت هجرته إحقاق الحق وإزهاق الباطل

عن عبد اللهِ بن مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قال: (دخل النبي، صلى الله عليه وسلم، مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثلاثمائة وَسِتُّونَ نُصُبًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ في يَدِهِ، وَجَعَلَ يقول: {جاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} الآيَةَ).[1]

يخبر هذا الحديث الشريف عن العودة إلى مكة يوم الفتح المبين، حيث نضج غرس هجرة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين من أصحابه، بالتعاضد مع حسن إيواء الأنصار، ومناصرتهم، فبعد بضعة أعوام من حط الرحال في المدينة المنورة، كانت العودة المظفرة إلى مكة، معلنة عن انتهاء عهد الهجرة منها، وقد أضحت محررة من جبروت الكافرين، وتطهرت كعبتها من دنس الوثنية والشرك، حيث تصدر هدم الأصنام أعمال يوم الفتح الأعظم، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ، فَأَمَرَ بها، فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ في أَيْدِيهِمَا من الأَزْلامِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: قَاتَلَهُمْ الله، لقد عَلِمُوا ما اسْتَقْسَمَا بها قَطُّ، ثُمَّ دخل الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ في نَوَاحِي الْبَيْتِ، وَخَرَجَ، ولم يُصَلِّ فيه).[2]

فقد عاد الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى موطنه بعد غياب قسري، تخللته معاناة وصبر وجلد، حتى قضى الله أمراً كان مفعولاً، فعادت مكة وكعبتها إلى التوحيد، الذي حمل رايته رافع قواعد البيت وابنه، عليهما السلام، إذ طلبا من الله ربهما أن يجعلهما مسلمين، ودعوا الله أن يبعث في أمتهم رسولاً منهم، وعن هذا يحدث القرآن الكريم، فيقول تعالى:

1. صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر أو تخرق الزقاق . فإن كسر صنماً أو صليباً أو طنبوراً أو ما لا ينتفع بخشبه.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي، صلى الله عليه وسلم، الراية يوم الفتح.

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}.[1]

فالله بعث محمداً، صلى الله عليه وسلم، بدين التوحيد، يتلو على الناس آيات ربه، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ، فسفهت نفوس من رغبوا عن دينه؛ ملة أبيه إبراهيم، عليه السلام، فضيقوا عليه الخناق، وعملوا جهدهم على طمس دينه، فكان الله لهم بالمرصاد، مصداقاً لقوله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.[2]

صراع الحق والباطل

المعركة بين الحق والباطل وأهلهما قديمة الجذور، مستمرة الوجود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن يؤمن بهذه الحقيقة ينبغي له أن يختار فسطاط الحق ليكون فيه جندياً منافحاً ضد الباطل ووجوده، فالخيارات أمامه محدودة، بل محصورة بين جانبين لا ثالث لهما، إما الحق، وإما الباطل، وشتان بينهما، في العقيدة، والسلوك، والنتائج، والثمار، فعقيدة الحق إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، ورسله، وخاتمهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعقيدة الباطل كفر وشرك ووثنية وإلحاد، وسلوك الجانبين ينبثق من عقيدة كل منهما، فسلوك أهل الحق طهر، ونقاء، وعفة، وعدل، وخدمة للبشرية، وسلوك أهل الباطل رجس، وفحش، وظلم، وإجحاف، ودمار للوجود البشري والحضاري، والقيم والأخلاق، وكل من الفسطاطين يفرز نتائج مغايرة عن الآخر، فالحق أهله منقادون إلى رضا الله وحبه

1. البقرة: 127-129.
2. الصف: 8.

وثوابه وجنته، والباطل يسقط بأهله إلى الدرك الأسفل، المحاط بغضب الله وسخطه، وينتهي بهم إلى نار وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

ومنذ البعثة النبوية، اختار الرسول، صلى الله عليه وسلم، حمل راية الحق والدعوة إليه، فآمن معه خيار الناس، وناصبه العداء شرارهم، حتى ألجأوه إلى الهجرة من بلده وموطن آبائه إبراهيم وإسماعيل، لكنه لم ييأس، ولم تفتر عزيمته، فأقام في المدينة المنورة سنوات قليلة العدد، كثيرة العمل، صد خلالها مؤامرات أعداء الحق من الكافرين والمنافقين، وتم له بعون الله وسنده هزيمة أهل الباطل في أيام فصل حاسمة، تصدرها يوم بدر، وتوجت بالفتح الأعظم، الذي أعز الله به الإسلام والمسلمين، فجاء الحق، وزهق الباطل، وما كان ذلك على الله بعزيز، فذهب الزبد جفاء، وبقي ما ينفع الناس مستقراً بنوره وخيره، كما جاء في المثل القرآني عن رب العزة جل جلاله: {... كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ}.[1]

فمسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في إرساء دعائم الحق، وصد الباطل ودحضه، كانت حافلة بالعمل الجاد، والعطاء المثمر، منذ أن تلقى الوحي من ربه، وصدع بما أمر، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، مودعاً الدنيا وأهلها، راحلاً إلى جوار ربه، راضياً مرضياً، وكانت الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة مفصلاً مهماً ورئيساً في حياته الدعوية، هيأ الله له بها سبيل النصر على أهل الباطل بالحق، الذي جاء به داعياً إلى ربه على بصيرة، هو ومن اتبعه من المؤمنين، ممتثلاً وإياهم أمر ربهم، إذ قال سبحانه وتعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.[2]

1. الرعد: 17.
2. يوسف: 108.

شبه اليوم بالبارحة

يتعرض المسلمون اليوم في معظم بقاع الدنيا إلى حرب ضروس، بعضها بالسنان، وأخرى بالمكر والكيد الظاهرين والباطنين، ففي فلسطين على سبيل المثال، يواجه شعبها وشجرها وأقصاها حرباً ذات أنياب ومخالب، تعملان ليل نهار على افتراس الأرواح البريئة، وتدنيس الحرمات الطاهرة، واقتلاع الشجرة المباركة، وحرق الزرع المثمر، وبث الرعب باستخدام تقنيات لا تبقي ولا تذر، وأمام هذا الطغيان ما زال شعبها المؤمن يقهر عدوه بمصابرته ومرابطته، مستلهماً خطواته من هدي ربه عز وجل، القائل في محكم التنزيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[1]

فالمعركة اليوم بين أهل الحق والباطل لا تختلف في جوهرها عن معركة الأمس، التي كانت بين أعداء الله وأحبائه، والأمل معقود على ظهور الحق على الباطل في معركته القائمة، كما كان يوم التقت الفئتان، لما نكص الشيطان على عقبيه، فخذل أنصاره وأتباعه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[2]

نعم؛ شعبنا وأرضنا ومقدساتنا في محنة عصيبة، ما لها إلا الله، يثبتنا على الحق، وينصرنا على الباطل، كما نصر نبيه، صلى الله عليه وسلم، وهزم الأحزاب وحده، فعلينا بالثبات والصبر والرباط، وإلا فسوف نخسر الحال والمآل، والعياذ بالله، فالحال صعب، والمعركة قاسية، لا ينفع معها الخنوع والركوع إلا لله الجبار القهار، على صراط الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والصالحين، الذين منهم صاحب قول بخ بخ، فالرسول، صلى الله عليه

1. آل عمران: 200.
2. الأنفال: 48.

وسلم، قال لأصحابه يوم بدر: (قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ، فقال عُمَيْرُ بن الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يا رَسُولَ اللهِ؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ؟! قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: ما يَحْمِلُكَ على قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ، قال: لَا والله يا رَسُولَ اللهِ، إلا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِهَا، قال: فَإِنَّكَ من أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ من قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَرَاتِي هذه، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قال: فَرَمَى بِمَا كان معه من التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتى قُتِلَ).(*)

جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ممن ينصرون الحق وينتصرون له، على نهج نبينا، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على البذل لإطلاق سراح الأسرى

عن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (فُكُّوا الْعَانِيَ -يَعْنِي الأَسِيرَ- وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ).(*)

يأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين بالعمل على إطلاق سراح الأسرى، مشيراً بذلك إلى أمرين، هما:

* مقام الأسرى الرفيع، وقدرهم الجليل، كونهم يقبعون في الأسر؛ بسبب بطولاتهم، ومواقفهم المشرفة تجاه مبادئهم، فهم صدقوا الله ورسوله والمؤمنين، فحق لهم أن ينالوا الإشادة بمقامهم، والتذكير بحقوقهم.

* واجب المسلمين نحو أسراهم، ويتلخص في لزوم العمل على تخليصهم من قيود الأسر، فلا يصح أن ينعم المسلمون برغد العيش، ورفاهية الحياة، والأسرى يعانون صعابها، ويتجرعون مرارة القهر، لكن بنفوس شامخة، لا تلين ولا تستكين، إلا لله رب العالمين.

مفهوم الفكاك والفدية

بالنسبة إلى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (فُكُّوا الْعَانِيَ)، ورد في الموسوعة الفقهية أن الفكاك - بالفتح وقد يكسر- من فككت الشّيء فانفك، وفكّ الشيء خلّصه، يقال: فكّ الرّهن يفكّه فكّاً، والأسير خلّصه، وكلّ شيء أطلقته، فقد فككته ويطلق على فكاك الأسير الفدية، يقال: فداه يفديه، وفادى الأسير: استنقذه من الأسر، وقال بعضهم: الفدية اسم للمال الّذي يفتدى به الأسير، ونحوه.

*. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.

والفدية: ما يقي به الإنسان نفسه من مال يبذله في عبادة قصّر فيها، ككفّارة اليمين، وكفّارة الصّوم، نحو قوله تعالى: {فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}[1]

ولا يخرج المعنى الاصطلاحيّ عن المعنى اللّغوي، وبين الفداء والفكاك عموم وخصوص وجهي[2]

حكم فداء أسرى المسلمين

جاء في الموسوعة الفقهية أن الأصل إذا وقع مسلم في أيدي المشركين أسيراً، لزم المسلمون النّهوض لتخليصه من أيديهم، وإن لم يدخلوا دارنا باتّفاق الفقهاء، لأنّهم أجمعوا على أنّه يجب على المسلمين، وجوب عين، النّهوض لدفع المشركين إذا دخلوا بلداً للمسلمين، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الدّار، هذا إن رجي إمكان تخليصه، فإن تعذّر تخليصه بالقتال، وجب فداؤه من بيت المال، عند الحنفيّة، والمالكيّة، والحنابلة؛ لأنّ بيت المال موضوع لمصالح المسلمين، وهذا من أهمّها، فإن تعذّر فداؤه من بيت المال، بأن لم يكن فيه مال، أو تعذّر الوصول إليه، فمن مال المسلمين على قدر وسعهم، ويتولّى الإمام جبايته، والأسير كأحدهم، وهو فرض كفاية.

وقال الشّافعية: إذا اضطررنا لبذل مال لفداء أسرى يعذّبونهم، أو لإحاطتهم بنا، وخفنا استئصالهم لنا، وجب بذله، قال الشبراملسي يبذل من بيت المال إن وجد فيه، وإلاّ فمن مياسير المسلمين، وينبغي أن يكون محلّ ذلك، إذا لم يكن للمأسور مال، وإلاّ قدّم على بيت المال، وقالوا يندب فكّ الأسرى غير المعذّبين إذا أمن قتلهم.

فإن لم يفد الإمام والمسلمون أثموا جميعاً؛ لأنّها من فروض الكفاية الّتي تسقط بقيام البعض بها، وعلى الأسير في هذا الحال أن يفكّ نفسه من ماله، وإذا افتداه مسلم بأمر

1. البقرة: 196.
2. الموسوعة الفقهية: 63/32.

الأسير، رجع عليه بما افتداه به، قليلاً كان أم كثيراً [1]، والتّفصيل في مصطلح فداء أسرى المسلمين.[2]

ومن الآثار التي وردت في بذل الجهد والمال لفداء الأسرى، ما جاء في بعض كتب الحديث، عن حبان بن أبي جبلة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إن على المسلمين في فيئهم أن يفادوا أسيرهم، ويؤدوا عن غارمهم).[3]

وعن عبد الرحمن بن أبي عمرة، قال: لما بعثه عمر بن عبد العزيز بفداء أسارى المسلمين من القسطنطينية قلت له: أرأيت يا أمير المؤمنين إن أبوا أن يفادوا الرجل بالرجل، كيف أصنع؟ قال عمر: زدهم، قلت: إن أبوا أن يعطوا الرجل بالإثنين، قال: فأعطهم ثلاثاً، قلت: فإن أبوا إلا أربعاً، قال: فأعطهم لكل مسلم ما سألوك، فوالله لرجل من المسلمين أحب إليّ من كل مشرك عندي، إنك ما فديت به المسلم، فقد ظفرت، إنك إنما تشتري الإسلام، قال: نعم، افدهم بمثل ما تفدي به غيرهم، قلت: النساء؟ قال: نعم. [4]

وقَالَ إسحاق: الفداءُ بالرؤوسِ أحبُّ إلينا، ولو رأس واحد برءوس، ولكن إن أبوا إلا أن يفادوا بالذهبِ والفضة، فلا يحلُّ لإمامِ المسلمين إلاَّ أنْ يفاديهم، ولو بمالٍ عظيم مِنْ بيتِ مال المسلمين، ألا ترى إلى ما أوصى عمر بن الخطاب حين طُعن، فقالَ في وصيته: واعلموا أنَّ كلَّ أسيرٍ مِنَ المسلمينَ في أيدي المشركين، فكاكه من بيتِ مالِ المسلمينَ، وكذلك فادى عمر بن عبد العزيز، رجلاً من أهل الحربِ بمائة ألف، وكذلك قَالَ عمر بن عبد العزيز لعاملِه حين وجهه في شراءِ الأسارى: لا تدعن أسيرًا مِنَ المسلمينَ في أيدي أهلِ الشرك، ولو بلغَ مالاً عظيمًا، حتَّى قَالَ في بعضِ الحديثِ: ولو أتيتَ على ما في بيتِ المال؛ لأنَّكَ

1. الموسوعة الفقهية: 63/32.
2. الموسوعة الفقهية: 60/32.
3. سنن سعيد بن منصور: (1)،341/2
4. سنن سعيد بن منصور: (1)،341/2

إنَّما تشتري الإسلامَ، ثم أعطى عمر الذي وجهه ثلاثين دينارًا، وقال: هذه من خاصةِ مالي، اشْتري به أسيرًا، وفيما قَالَ عمر بن الخطاب: لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي المشركين، أحبُّ إليَّ من جزيرة العرب؛ يعني الخراج وفيئهم.[1]

إطلاق سراح الأسرى من سجون الاحتلال البغيض

من أبرز الإنجازات الفلسطينية التي يسجلها التاريخ للقيادة الفلسطينية، وفصائل العمل الفلسطيني دفعات الأسرى، الذين رأوا النور بعد الجهود الحثيثة والمضنية التي بذلت لهذه الغاية، وتكللت بنجاح باهر والحمد لله، وهي إنجازات يقدرها كل غيور على إنسانية المواطن الفلسطيني، وبخاصة حيال الذين بذلوا أغلى ما يملكون من أجل دينهم، ووطنهم، وشعبهم، وقضيتهم العادلة.

وبذل الجهود على هذا الصعيد له أصول شرعية، وأسباب أخلاقية، فهو واجب عند فقهاء الأمة جميعاً، ورسولنا، صلى الله عليه وسلم، يحث عليه، وعموم الأدلة الشرعية المستقاة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، تحفز على القيام به، فالأسير الذي قيدت حريته، وقبع في ظلام السجن، من أجل قضايا أمته المصيرية، ودفاعاً عن أعراضها ومقدساتها، ومن أجل أن ينال أبناؤها الكرامة والحرية، حق له عليهم أن يبقى على رأس سلم أولوياتهم، وهذا الحق واجب، ينبغي أن يؤدى من هذا المنطلق، لا من منطلق التفضل بالإحسان، فللأسرى حق في رقاب القادة، والفصائل، والأفراد، منفردين ومجتمعين، إن قاموا به على الوجه المجزي، نالوا الشرف والثواب والرضا، وإن تقاعسوا عنه، لحقهم العار، والخزي، والسخط، فالمؤمنون إخوة، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...}[2]، ومن مقتضيات الإخوة النصرة، وتجنب الخذلان، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (...وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو

1. مسائل الإمام أحمد بن حنبل وابن راهويه: 2/351-352.
2. الحجرات: 10.

الْمُسْلِمَ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ...).[1]

وقد أعلن الله عن رضاه الكريم عن المؤمنين، لما استشعروا هذه المعاني، وبايعوا نبيهم، صلى الله عليه وسلم، على بذل حياتهم من أجلها، فأنزل السكينة عليهم، ووعدهم بالفتح القريب، فقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}.[2]

ومعلوم أن بيعة الرضوان أو الشجرة، التي نزلت هذه الآية الكريمة تشيد بأصحابها، كانت على إثر خبر أُشيع حول مصير الصحابي الجليل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، لما بعثه النبي، صلى الله عليه وسلم، رسولاً إلى قريش؛ ليخبرها أنه جاء ليعتمر؛ وذلك قُبيل الحديبية.

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لأسرانا البواسل سبل الخلاص والنجاة، وأن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يحفظ لهم عيالهم، وأموالهم، وأهليهم، وأن يحقق لهم ما أسروا لأجله من عزة أمتهم، وتحرير أرضها ومقدساتها، ونيل كرامتها، وصل اللهم وسلم وبارك على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.
2. الفتح: 18.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يفتح مكة منتصراً على قوى الشر

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ في رَمَضَانَ من الْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلافٍ، وَذَلِكَ على رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنِصْفٍ من مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، فَسَارَ هو وَمَنْ معه من الْمُسْلِمِينَ إلى مَكَّةَ، يَصُومُ وَيَصُومُونَ، حتى بَلَغَ الْكَدِيدَ، وهو مَاءٌ بين عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ، أَفْطَرَ وَأَفْطَرُوا...).(*)

في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، قاد الرسول، صلى الله عليه وسلم، جيشاً جراراً صوب مكة المكرمة، التي هاجر منها قسراً على إثر الاضطهاد الذي لحق به وصحبه الكرام، بسبب حملهم رسالة الإسلام دعوة للعالمين؛ ليهتدوا إلى صراط الله المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فأبى معسكر الباطل، وتسلح بالعدة والمال، وَجَيَّشَ العساكر لمقاومة المسلمين، بهدف إطفاء نور الله المبين، فبعد بضع عشرة سنة من القهر من بداية حمل الدعوة، يسر الله تعالى للمسلمين بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فرصة العودة إلى البيت الحرام فاتحين، وقد هيأ الله تعالى الظروف والأسباب لنجاح الفتح الأعظم، ومن ذلك بيعة الرضوان، التي بايع فيها الصحابة، رضي الله عنهم، الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الموت في سبيل الله، عن الْبَرَاءِ، رضي الله عنه، قال: (تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ -فَتْحَ مَكَّةَ- وقد كان فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، يوم الْحُدَيْبِيَةِ كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ، فَنَزَحْنَاهَا فلم نَتْرُكْ فيها قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذلك النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَتَاهَا، فَجَلَسَ على شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ من مَاءٍ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ مَضْمَضَ، وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّهُ فيها، فَتَرَكْنَاهَا غير بَعِيدٍ، ثُمَّ إِنَّهَا

*. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح في رمضان.

أَصْدَرَتْنَا ما شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابَنَا). [1]

فقد عدَّ الصحابة البيعة على رضوان الله تعالى هي الفتح، وما لهم لا يعدونها كذلك، وهم الموعودون بالجنة، لقاء بيعهم أموالهم وأنفسهم لله، وهو القائل سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. [2]

وأصحاب بيعة الرضوان كفل الله لهم النجاة من النار، فعن أُمُّ مُبَشِّرٍ، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَ، صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: (لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا، قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} فَقَالَ النَّبِيُ، صلى الله عليه وسلم: قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}). [3]

فَتْحٌ أعز الله به الإسلام وأزهق الباطل

ينخدع أهل الباطل ببطشهم، وطول يدهم، حين تكون الجولة لهم، متغافلين عن أن الأيام دول، مصداقاً لقوله تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [4]، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في أعقاب غزوة أحد، التي أصيب المسلمون فيها بجراح صعبة، فالله يذكرهم بيوم بدر الذي لحقت معسكر الكفر فيه هزيمة نكراء، والأيام لم تطل كثيراً بعد ذلك، وإذا بانتصارات المسلمين تتوج بفتح مكة، الذي ظهر به الحق، وزهق الباطل، وفيه

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.
2. التوبة: 111.
3. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان، رضي الله عنهم.
4. آل عمران: 140.

يقول تعالى: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً }[1]، ومجيء الحق يختلف عن مقدم الباطل، وفي ذلك يقول تعالى: {قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}.[2]

فبالفتح طهر البيت الحرام من دنس الشرك والأوثان، التي تهاوت صنماً تلو آخر، كما في رواية عبد اللهِ، رضي الله عنه، قال: (دَخَلَ النّبي، صلى الله عليه وسلم، مَكَّةَ يوم الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلاثُ مِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ في يَدِهِ، وَيَقُولُ: {جاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ جاء الْحَقُّ وما يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وما يُعِيدُ).[3]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ، وَفِيهِ الآلِهَةُ، فَأَمَرَ بها، فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ في أَيْدِيهِمَا من الأَزْلام، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: قَاتَلَهُمْ الله، لقد عَلِمُوا ما اسْتَقْسَمَا بها قَطُّ، ثُمَّ دخل الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ في نَوَاحِي الْبَيْتِ، وَخَرَجَ ولم يُصَلِّ فيه).[4]

الفاتح العابد الذاكر

يختلف الابتهاج بالنصر والفرح به شكلاً ومضموناً بين أهل الحق والباطل، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يوم فتح مكة، قرأ القرآن، وردّد آياته، وذكر الله تعالى كما علمه الله، فعن عَبْدَ اللهِ بن مُغَفَّلٍ قال: (رأيت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يوم فَتْحِ مَكَّةَ على نَاقَتِهِ، وهو يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ، يُرَجِّعُ، وقال: لَوْلا أَنْ يَجْتَمِعَ الناس حَوْلِي، لَرَجَّعْتُ كما رَجَّعَ).[5]

وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يُكْثِرُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إليه، قالت: فقلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَرَاكَ تُكْثِرُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إليه، فقال: خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلامَةً

1. الإسراء: 81.
2. سبأ: 49.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي، صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح.
4. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي، صلى الله عليه وسلم، الراية يوم الفتح.
5. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي، صلى الله عليه وسلم، الراية يوم الفتح.

في أُمَّتِي، فإذا رَأَيْتَهَا أَكْثَرْتُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إليه، فَقَدْ رَأَيْتُهَا، {إذا جاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} فَتْحُ مَكَّةَ، {وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ في دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنه كان تَوَّابًا}).[1]

بينما أهل الباطل يعبرون عن غايتهم من حروبهم، وسلوكهم عند انتصارهم، بطريقة تعبر عن مستوى طيشهم، وتعلقهم بالدنيا وزخرفها، فلما سمع أبو سفيان بخروج المسلمين لاعتراض قافلته قبيل بدر، غير طريقه المعتاد، ولحق بساحل البحر، فنجا، وسلمت العير، فخرج أبو جهل بجمع أهل مكة وهم النفير فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله، لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمور، ونقيم القينات والمعازف ببدر، وتسمع جميع العرب.[2] فهذه أخلاق الجاهلية وقيمها، بخلاف قيم العابدين الذاكرين.

آلات البطش تستهدف الصائمين الآمنين

تمر ذكرى فتح مكة على المسلمين اليوم، وجزءاً مهماً منهم يتعرض لآلة الدمار والقتل، التي استوى أمامها الشيوخ، والأطفال، والكهول، والشباب، والرجال والنساء، فالدماء الزكية تسيل، والأرواح الطاهرة تزهق، والشهداء بالمئات، والدمار شامل، والتشريد عام، وحسبنا وأهلنا في غزة الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهو الملاذ سبحانه، وإليه الشكوى، وفيه الأمل سبحانه، ونرجو النصر العزيز المؤزر من لدنه، وهو القائل عز وجل: {إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.[3]

فلنا ولكم الله يا أهلنا، يكف البأس عنكم وعنا، ويرفع مقته وغضبه عنا وإياكم، فلا

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.
2. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: 11/2.
3. آل عمران: 160.

ملجأ ولا ملاذ إلا إليه، جلت عظمته وقدرته، فيا من نصرت محمداً والثلة المؤمنة معه في بدر، وهيأت لهم العودة إلى مكة بيتك المحرم فاتحين، انصرنا وإخواننا المكلومين في غزة على من يريدون إبادتنا، ولا يرقبون في صغارنا، وكبارنا، ونسائنا، ورجالنا، رحمة ولا حرمة، اللهم ثبت أقدامهم، وألهمنا وشعبنا المرابط الصبر والسلوان، وتقبل اللهم شهداءنا، وأسكنهم في عليين مع النبيين والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، واكتب اللهم السلامة لجرحانا، وامنح الحرية لأسرانا، ويسر سبل العيش الكريم للأيتام، الذين فقدوا آباءهم أو أمهاتهم في هذا العدوان الظالم الغاشم، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يقود المسلمين للنصر على أحزاب الضلال

عن سَهْلِ بن سَعْدٍ، رضي الله عنه، قال: (كنا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ، وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ على أَكْتَادِنَا، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان بمعية جيش المسلمين في غزوة الأحزاب، وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يقومون بحفر الخندق، وينقلون ما يخرج من تراب على أَكْتَادِهم؛ وهي جمع كتد بفتح أوله، وهو ما بين الكاهل إلى الظهر.[2]

وفي عمدة القاري، أن هذا الحديث يفيد أن للحفر في سبيل الله، وتحصين الديار، وسد الثغور منها، أجر كأجر القتال، والنفقة فيه محسوبة في نفقات المجاهدين إلى سبعمائة ضعف. وفيه استعمال الرجز والشعر، إذا كانت فيه إقامة النفوس، وإثارتها.[3]

ومن الأحاديث الدالة على أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يشارك الصحابة العمل في إعداد الخندق، ما جاء عن الْبَرَاءَ بن عَازِبٍ، قال: (لَمَّا كان يَوْمُ الأَحْزَابِ، وَخَنْدَقَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ من تُرَابِ الْخَنْدَقِ، حتى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وكان كَثِيرَ الشَّعَرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ بن رَوَاحَةَ، وهو يَنْقُلُ من التُّرَابِ يقول: اللهم لَوْلا أنت ما اهْتَدَيْنَا ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إن لَاقَيْنَا إِنَّ الألي قد بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا قال: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا) [4]

ومما كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يردده على أسماع أصحابه؛ ليزيدهم حماساً

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
2. فتح الباري: 394/7.
3. عمدة القاري: 131/14.
4. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

للعمل، قوله: (اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ)؛ أي لا عيش باق، أو لا عيش مطلوب إلا عيش الآخرة، والله أعلم.[1]

موقعة الخندق (الأحزاب)

في شهر شوال، وقيل: في الثاني عشر منه، عام خمسة هجرية، وقعت غزوة فريدة من نوعها بين المسلمين وأعدائهم، تلكم هي غزوة الخندق، التي تسمى أيضاً الأحزاب، ولكل من الاسمين علاقة بجانب مهم منها، فتسميتها بالخندق تعود إلى أن المسلمين حفروا حول المدينة من جهتها الشمالية خندقاً يحول بينهم وبين توغل الأعداء إلى المدينة المنورة، التي كانت محصنة بالنخيل والمنازل، سوى الجهة الشمالية، أما بالنسبة إلى تسميتها بالأحزاب، فذلك يعود إلى مكونات جيش الأعداء، فقد تحالف ضد المسلمين في هذه الغزوة كفار قريش، وبعض القبائل العربية الأخرى، وبعض يهود المدينة، وبلغ عدد جيش الأحزاب في هذه المعركة عشرة آلاف مقاتل، قابلهم من المسلمين ثلاثة آلاف.

كان من أبرز أسباب غزوة الخندق إجلاء رسول الله بني النضير عن ديارهم، بعد نقضهم العهود والمواثيق، وفي وصف الشدة التي لحقت بجيش المسلمين في غزوة الخندق، نزل قرآن يتلى، ووردت أحاديث صحيحة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أن قوله تعالى: ({إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا}[2] قالت: كان ذَلكَ يوم الْخَنْدَقِ).[3]

وفي عمدة القارئ أن قوله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ} بدل من قوله: {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا}[4]، وأراد بالجنود الأحزاب؛ قريش وغطفان ويهود

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 172/12.
2. الأحزاب: 10.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
4. الأحزاب: 9.

قريظة والنضير، وأراد بالريح الصبا، فعن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ)[1]، والصبا هي الريح الشرقية، والدبور هي الريح الغربية.[2]

وقوله تعالى:{مِنْ فَوْقِكُمْ}؛ أي من فوق الوادي من قبل المشرق، عليهم مالك بن عوف النضري، وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان، ومعهم طلحة بن خويلد الأسدي، وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة. وقوله تعالى:{ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} يعني من الوادي من قبل المغرب، وهو أبو سفيان بن حرب في قريش، ومن معه.

قوله تعالى: {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ}عطف على قوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ} والتقدير: واذكر حين زاغت الأبصار؛ أي حالت عن سننها، ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً، وقيل: عدلت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها؛ لشدة الروع.

وقوله: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}؛ أي زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع، أو الغضب، أو الغم الشديد، ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل: للجبان انتفخ منحره.

وقوله: {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا} قال الحسن: ظنوناً مختلفة؛ ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يبتلون. [3]

سير المعركة وما آلت إليه

لمّا وصل الأحزابُ حدود المدينة المنورة، عجزوا عن دخولها، فضربوا حصاراً عليها دام ثلاثة أسابيع، مما عرّضَ المسلمين للأذى والمشقة والجوع، ولم يقع في هذه الغزوة حرب إلا مرماة بالنبل، وانتهت بانسحاب الأحزاب، وذلك بعد تعرضهم لريح باردة شديدة، زلزلت

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
2. فتح الباري: 402/7.
3. عمدة القاري: 182/17.

أبدانَ الأحزاب وقلوبَهم، وشتت جمعَهم بالخلاف، وألقى الله الرعبَ في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده [1]، والرَسُول، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: (لا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فلا شَيْءَ بَعْدَهُ)[2] ، وكان من ثمار نصر المسلمين على الأحزاب، تغير أحوال الهجوم والدفاع بينهما، ففي الحال الأولى انتظر المسلمون الغزاة من الأحزاب في المدينة، متمترسين بالخندق الذي حفروه؛ ليمنعوا الغزاة من التوغل في أرض المدينة، وبعد انهزام الأحزاب، تمكن المسلمون من تغيير المعادلة، فأصبحت لديهم قدرة تمكنهم من شن الهجوم المضاد على العدو في أماكن تواجده، فحين أُجْلي الأَحْزَاب، قال صلى الله عليه وسلم: (الآنَ نَغْزُوهُمْ ولا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ).[3]

موقفان متباينان من تحزب الأحزاب

القرآن الكريم اهتمَّ بحادثة الأحزاب، حتى إن سورة منه سميت بهم، وفيها ذكر موقفين متباينين من حرب الأحزاب، يمثل أحدهما المؤمنين بنصر الله، واليقين بتحصيله، فيقول تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}[4]، وهذا الموقف يتماشى مع عقيدة التوكل الحق على الله تعالى، وهو القائل جل شأنه: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}. [5]

أما الموقف الثاني؛ فيمثله أرذل الناس وهم المنافقون، فيخبر الله تعالى عن موقفهم المعبر عن زيغ قلوبهم، فيقول جل شأنه: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً}. [6]

---

1. عمدة القاري: 182/17.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
4. الأحزاب: 22.
5. الأحزاب: 3.
6. الأحزاب: 12.

صور جديدة للتحزب ضد المسلمين

التاريخ يعيد نفسه، والحرب الضروس ضد الأهل في غزة، تؤكد على مدى التحالف القائم بين بعض الأطراف العالمية والإقليمية، وبين العدو المحتل، ضد الآمنين في بيوتهم ومساجدهم ومشافيهم، فهي حرب إبادة وعنصرية بامتياز، يقودها عدو متغطرس، لا يراعي حرمة للأطفال ولا النساء ولا الطاعنين في السن، وللأسف أن تقع هذه الجرائم الوحشية برعاية بعض الجهات العالمية ودعمها، وقد يكون منها عرب ومسلمون، كما يظهر مما تنطق به بعض الألسنة، وما تكتبه بعض الأقلام، عدا عن الصمت المريب، وكأن مكوني فريق أحزاب الأمس يعودون من جديد بمسميات مختلفة وشخوص آخرين، لكن الوصف الذي يجمعهم واحد، فهي معركة بين أهل الحق القاطنين في بيوتهم وديارهم، وبين المعتدين المتحزبين ضدهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الذي نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، سائلين الله سبحانه وتعالى أن ينعم علينا وأهلنا في غزة بالنصر المبين، وأن يتقبل شهداءنا في عليين، وأن يشافي جرحانا، وأن يلهم اليتامى والثكالى وذوي الشهداء الصبر والسلوان، وصلى الله على رسولنا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل الشهادة ومنازل الشهداء ـ الحلقة الأولى

عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (انْتَدَبَ الله عز وجل لِمَنْ خَرَجَ في سَبيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إلا إِيمَانٌ بِي، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ من أَجْرٍ، أو غَنِيمَةٍ، أو أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلا أَنْ أَشُقَّ على أُمَّتِي ما قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ في سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ).[1]

جاء في فتح الباري أن قوله: (انْتَدَبَ الله)؛ أي سارع بثوابه، وحسن جزائه، وقيل معناه: أجاب إلى المراد، وقيل: تكفل بالمطلوب. وقوله: (لا يُخْرِجُهُ إلا إِيمَانٌ بِي) قال النووي: هو مفعول له، وتقديره لا يخرجه المخرج إلا الإيمان والتصديق.[2]

وفي عمدة القاري، أن قوله: (بِمَا نَالَ)؛ أي بما أصاب، من النيل، وهو العطاء. وقوله: (خَلْفَ سَرِيَّةٍ) خلف هاهنا بمعنى بعد، والسرية هي قطعة من الجيش، يقال: خير السرايا أربع مائة رجل.[3]

ومما يستفاد من هذا الحديث الشريف، أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمنى من أفعال الخير ما يعلم أنه لا يعطاه؛ حرصاً منه على الوصول إلى أعلى درجات الشاكرين، وبذلاً لنفسه في مرضاة ربه، وإعلاء كلمة دينه، ورغبته في الازدياد من ثواب ربه، ولتتأسى به أمته في ذلك، وقد يثاب المرء على نيته.

وفيه أن الإمام والعالم يجوز لهما ترك فعل الطاعة إذا لم يطق أصحابه ونصحاؤه على الإتيان بمثل ما يقدر عليه، هو منها إلى وقت قدرة الجميع عليها، وذلك من كرم الصحبة،

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان.
2. فتح الباري: 93/1.
3. عمدة القاري: 229/1-230.

وآداب الأخلاق، وفي الحديث أيضاً عظم فضل الشهادة.[1]

فضل الشهادة في سبيل الله

بينت الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة بعض فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، ففي أطول السور القرآنية وأوائلها، نهى الله تعالى عن وصف الشهيد بالميت، وأخبر سبحانه وتعالى عن بقاء الشهيد في عداد الأحياء الذين يتلقون رزق الله، فقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[2]، وقال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.[3]

وبقاء الشهداء أحياء يخالف ظاهر الواقع المشاهد والملموس، الذي ينقطع فيه الشهيد عن الحياة الدنيوية وأعمالها، عندما يقف نبض قلبه، وتتعطل حواسه الظاهرة، وتلك من خصائص الموت، الذي ينتقل به المخلوقون من حال الحياة إلى عالم الغيب، فلا يشاهد الناس الأحياء بالأعين ما يجري لذويهم الموتى من تطورات وأحداث، التي قد تكون مشمولة براحة ونعيم، أو ضيق وعذاب، غير أن الشهيد وعده الله تعالى أن يبقى يتمتع بالحياة، رغم ما جرى له من قتل، وفراق ظاهر للدنيا، وما عليها من متعلقات، وكنه هذا البقاء لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، فهو سر من أسرار الغيب، الذي احتفظ الله به لنفسه، فهنيئاً للشهداء هذا المقام المحفوف بالتكريم والتميز بالخير والنعيم المقيم، وهو مقام تمناه الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الرغم مما له من مكانة رفيعة، تتعلق بشخصه الكريم، ومنزلة النبوة التي حظي بها، والأعمال العظيمة التي قام بها، والأثر البالغ الذي تركه من بعده، فدينه بلغ العرب والعجم، ووصل أعماق الآفاق، وما زال أتباعه يزيدون، ويعتزون بأنهم يحملون الراية التي حملها، والدعوة التي جاء بها للعالمين، ومع كل هذا الشرف ويزيد، فإنه صلى الله عليه وسلم

1. عمدة القاري: 96/14.
2. البقرة: 154.
3. آل عمران: 169.

يتمنى الشهادة في سبيل الله، لعظم مكانة الشهداء وفضلهم ومقام العز الذي منحهم الله تعالى إياه، فهنيئاً للشهداء صغاراً وكباراً، ولهم منا التحيات المباركات تلو التحيات الطيبات، عسى الله أن يجمعنا بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

كل نفس ذائقة الموت

ما من مخلوق إلا والموت آتيه، وإلى ربه راجع، بغض النظر عن زمن الإقامة على قيد الحياة قبل الموت، وبصرف النظر عن الحال الذي تم من خلاله الانتقال إليه، فالله تعالى يقول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[1]، ويقول جل شأنه: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[2]، وما استخدم لفظ ذائقة منسوبة إلى النفس في القرآن الكريم، إلا في هاتين الآيتين الكريمتين اللتين تعلق فيهما التذوق بالموت، والنفس مهما حرصت على الاحتراس من الموت، والحذر منه، فهي على موعد معه عندما يحل الأجل، حتى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو المبلغ عن الله الرسالة، والموحى إليه بخبر السماء، والداعي لعبادة الله في الأرض والقائم بها، خاطبه الله تعالى بأنه سيموت، مثل الناس كلهم، فقال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}.[3]

والناس مهما بالغوا في الحذر من الموت، لا بدَّ يوماً أن يزورهم، مصداقاً لقوله تعالى: {...قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ...}.[4] وقوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...}.[5]

وأدلة حتمية الموت، وفجأته، وتحديد زمانه ومكانه، موجودة في القرآن الكريم، فالله تعالى

1. الأنبياء: 35.
2. العنكبوت: 57.
3. الزمر: 30.
4. آل عمران: 154.
5. النساء: 78.

يقول: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.[1]

ويقول جل شأنه: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلاً}.[2] {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[3]

وشواهد الأخبار، وقصص الموت الدالة بوضوح على حتمية الموت كثيرة، يشاهدها الناس يومياً على شاشة الحياة الواسعة، فأرتال الناس يفارقون الحياة يومياً في قطار الموت بأحوال وظروف مختلفة، موزعة أعدادهم وأشخاصهم بين مختلف الأوساط، والأعمار، والمقامات، والأجناس، فالموت لا يفرق بين غني وفقير، وقوي وضعيف، وصغير وكبير، ورجال ونساء، فهو حق لازم، وقدر حتمي، والأجل محدد، ولو صبر القاتل على المقتول لمات حتف أنفه.

من هنا ينبغي أن يكون البكاء ليس على الموت، بل على الحال الذي انتهى الإنسان إليه قبل موته، فمن لقي الله راضياً مرضياً، فقد فاز، ومن طغى وغادر الدنيا مثقلاً بالآثام، فقد خاب وخسر، وإن بلغت ثروته ملك قارون، أو بلغ جاهه أعظم من سلطة فرعون.

طوبى وألف طوبى للشهداء

نالت آلة الحرب الهمجية الدائرة على ثرى فلسطين من مئات الأرواح الزكية، ولم تميز بين الجنين والرضيع، والشيخ الكبير، فارتقى بعض أهلنا شهداء، وآخرون ينتظرون، فالشهداء صعدت أرواحهم الطاهرة إلى باريها، ورويت بدمائهم الزكية أرضاً مقدسة، وثرىً مباركاً، وقد كانوا بالألوف، وذهبوا جماعات، وكان منهم عائلات بأكملها، فقد زاد عدد الشهداء حتى ساعة إعداد هذا المقال عن ألف وتسعمائة شهيد، وعدد الجرحى قارب عشرة آلاف، وزادت الغارات الجوية التي شنتها طائرات الأعداء على غزة عن سبعة آلاف غارة، ولم

1. الأعراف: 34.
2. الأحزاب: 16.
3. الجمعة: 8.

تسلم مساجد الله من التدمير والتخريب، فدمر بالكامل أكثر من ستين مسجداً، وتعرض أكثر من مائة وخمسين مسجداً آخر لتدمير جزئي، وتعرض أكثر من عشرة آلاف منزل للتدمير الكامل، ورغم كل هذه القسوة، وبشاعة العدوان، إلا أن أهلنا صابرون صامدون، وسيبقون لعدوهم قاهرين بإذن الله تعالى وعونه الكريم، في صمود يشهد لأهل غزة بالعز والرفعة، وللمجرمين بالبشاعة والظلم والجريمة، وللمتآمرين أو المتخاذلين الساكتين عن الحق بالخزي والعار والشنار.

فهنيئاً للثلة الذين سبقوا إلى نيل وسام الشهادة، وكان الله في عون المنتظرين، الذين يتشوقون لنيل هذا المقام، وذاك الوسام، كما تمناه من قبلهم أسوتهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وعلى أمل متابعة الحديث عن فضل الشهادة ومنازل الشهداء في الحلقة التالية بإذن الله تعالى وعونه.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل الشهادة ومنازل الشهداء ـ الحلقة الثانية والأخيرة

عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من عَبْدٍ يَمُوتُ، له عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا، وَأَنَّ له الدُّنْيَا وما فيها، إلا الشَّهِيدَ؛ لِمَا يَرَى من فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فإنه يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى).[1]

وفي رواية أخرى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا، وَلَهُ ما على الأرض من شَيْءٍ إلا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى من الْكَرَامَةِ).[2]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (لِمَا يَرَى من الْكَرَامَةِ)؛ أي لأجل ما يراه من الكرامة للشهداء، وفي رواية لما يرى من فضل الشهادة. وقال ابن بطال: هذا الحديث أجلّ ما جاء في فضل الشهادة، والله أعلم.[3]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يخبر في هاتين الروايتين عن فضل اختص به الشهداء عن باقي الناس الذين فازوا بنعيم الآخرة، فالأصل أن الذي نال النعيم الوافر بمذاقه المميز، أن لا يبادر إلى طلب المستوى الأدنى من النعيم الزائل، وهو قد تجاوزه إلى المستوى الأرفع، غير أن الشهيد يخالف هذا الأصل، ويتمنى العودة إلى الحياة الدنيا، ليس من باب الزهد في نعيم الآخرة، أو طمع الإقامة في الدنيا، وإنما هناك سبب دعاه إلى هذا التمني، يتلخص فيما لقيه من تقدير ورفعة، جراء شهادته في سبيل الله، فبعد انكشاف الحجب، ومشاهدة

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين، وصفتهن يحار فيها الطرف شديدة سواد العين شديدة بياض العين.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا.
3. عمدة القاري: 114/14.

النتائج، تبين للشهيد فضل الشهادة أكثر مما كان يتصور، مما دفعه إلى تمني تكرار مروره في معترك الشهادة؛ ليتمتع بمزيد من الفضل والإشادة، وذلك بلا ريب أنه يضيف إلى النعيم المميز مزيداً من التميز، والمتعة، والشعور بالرضا، وهذا يفسر أيضاً تمني النبي، صلى الله عليه وسلم، العودة إلى الدنيا للشهادة في سبيل الله رغم درجة النبوة التي نالها من ربه عز وجل.

ما يسر الشهداء أنهم عندنا

تمني الشهداء العودة إلى الدنيا؛ ليتكرر تعرضهم للشهادة؛ لينالوا مزيداً من فضلها، أمر يبقى في إطار التمني غير الواقعي، فالذاهبون عن الدنيا بالشهادة، أو الموت، لا يعودون إليها، وفق ما جرت عليه سنة الله في خلقه، فالشهداء سيبقون يتمتعون بمنازلهم عند الله تعالى، وبعد أن يروا منازلهم الرفيعة عند ربهم، ويتأكدوا من استحالة عودتهم إلى الدنيا، فلن يجدوا لديهم طموحاً، أو رغبة، أو شوقاً، للعودة إلى الحياة الدنيا ونعيمها، فما هم فيه من خيرات يجذبهم إلى البقاء هناك، حيث الراحة الأبدية، والنعيم الخالد، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: خَطَبَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عبد اللهِ بن رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بن الْوَلِيدِ عن غَيْرِ إِمْرَةٍ، فَفُتِحَ له، وقال: ما يَسُرُّنَا أَنَّهُمْ عِنْدَنَا، قال أَيُّوبُ أو قال: ما يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ).(*)

الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذرف دمعاً على فراق قادة مؤتة، في تعبير طبيعي يتناسب مع موقفه، صلى الله عليه وسلم، حين مات ولده إبراهيم، كما جاء عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (دَخَلْنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وكان ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ، عليه السَّلام، فَأَخَذَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلك، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه

*. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من تأمر في الحرب من غير إمرة إذا خاف العدو.

وسلم، تَذْرِفَانِ، فقال له عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه: وَأَنْتَ يا رَسُولَ اللهِ؟ فقال: يا ابن عَوْفٍ؛ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ).[1]

والحزن على فراق الشهداء لا يتنافى مع الارتياح لما آلوا إليه، فهم الأحياء عند ربهم يرزقون، ما تسرهم العودة للعيش في الدنيا، والإقامة على ظهر الأرض، بعد فرحهم بما آتاهم الله تعالى من فضله، وهذه الحقيقة التي ستنجلي للشهداء في الآخرة، تفسر سر شجاعتهم، واستبسالهم في الدنيا، رغم ما يتعرضون له من أخطار تتهدد حياتهم، من هنا يأتي فهم المفارقة بين الذين يحرصون على الحياة، وبين الذين باعوا الله ما اشتراه منهم، بخلاف الذين جل همهم، وبالغ حرصهم، ينصبان على أن يبقوا أطول زمن في الإقامة على ظهر الأرض، من الذين قال الله تعالى فيهم: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[2]، ومن شيعة أولئك الذين تمنوا الموت في مواقف المزايدة، والزعم الزائف، وعند الحقيقة كان منهم الخوف والهروب منه، والله تعالى يقول فيهم: {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}.[3]

وورد طلب تمني الموت في سياق الدلالة على صدق المواقف، غير أن المخادعين من أصحاب المزاعم الباطلة والكاذبة يفشلون في هذا الاختبار، كما حصل مع الذين هادوا من قبل، فقال الله تعالى فيهم: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: إنا بك لمحزنون.
2. البقرة: 96.
3. آل عمران: 143.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.[1]

من هنا؛ تختلف المواقف بين فئات الناس، حيال التضحية والفداء، أو الاسترخاء وراء مظان رغد العيش، وسلامة الأحوال، فالحريصون على حياة يخافون الموت، ويتجنبون ما قرب إليه من أعمال ومواقف، بينما المؤمنون ينطق حالهم ومقالهم أمام التضحيات بأنهم ينتظرون إحدى الحسنيين، من هنا كان من خطاب سيف الله المسلول خالد بن الوليد، رضي الله عنه، الموجه إلى كسرى عظيم الفرس، قوله: قد جئتك بقوم يحرصون على الموت، كما تحرصون أنتم على الحياة.

الشهداء رضي الله عنهم وأرضاهم في الفردوس الأعلى

من خير جزاء الشهداء نيلهم رضا الله، ففي الحديث الصحيح عن القراء السبعين من بني سليم الذين قتلوا غدراً، (أن جِبْرِيل، عليه السَّلام، أخبر النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُمْ قد لَقُوا رَبَّهُمْ، فَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، فَكُنَّا نَقْرَأُ أَنْ بلغوا قَوْمَنَا أَنْ قد لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ، فَدَعَا عليهم أَرْبَعِينَ صَبَاحًا على رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ وَبَنِي عُصَيَّةَ، الَّذِينَ عَصَوْا اللهَ تعالى وَرَسُولَهُ، صلى الله عليه وسلم).[2]

والرضا المشترك بين الله تعالى والذين صدقوه الوعد: {قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.[3]

كما أن الشهداء ينالون منازل رفيعة في الجنة، كالخلود في الفردوس الأعلى منها، وفي الحديث: (أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بن سُرَاقَةَ، أَتَتْ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا نَبِيَّ اللهِ؛ ألا تُحَدِّثُنِي عن حَارِثَةَ، وكان قُتِلَ يوم بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ

1. الجمعة: 6-8.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله.
3. المائدة: 119.

كان في الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كان غير ذلك، اجْتَهَدْتُ عليه في الْبُكَاءِ، قال: يا أُمَّ حَارِثَةَ؛ إِنَّهَا جِنَانٌ في الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعلى).[*]

سائلين الله العلي القدير أن يتقبل شهداءنا، وأن يسكنهم الفردوس الأعلى، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبشر أمهات الشهداء

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: (قالت النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لنا يَوْمًا من نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فيه، فَوَعَظَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قال لَهُنَّ، ما مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً من وَلَدِهَا، إلا كان لها حِجَابًا من النَّارِ، فقالت امْرَأَةٌ: واثنين؟ فقال: واثنين).(*)

ورد في عمدة القاري، شرح معاني هذا الحديث الشريف، فقوله: (غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ) معناه أن الرجال يلازمونك كل الأيام، ويسمعون العلم وأمور الدين، ونحن نساء ضعفة، لا نقدر على مزاحمتهم، فاجعل لنا يوماً من الأيام نسمع العلم، ونتعلم أمور الدين.

وقوله: (ثَلَاثَةً) أي ثلاثة أولاد؛ ولا يشترط أن يكون الولد الميت ذكراً حتى يحصل لها الحجاب من النار بسبب فقده، وإنما تم تذكير اللفظ هنا بالنظر إلى لفظ الولد، وهو يقع على الذكر والأنثى.

وقوله:(قال: واثنين) دليل على احتمال أنه أوحي إليه في الحين بأن يجيب بذلك، ولا يمتنع أن ينزل الوحي بذلك حين السؤال، ولا يمتنع أن ينزل الوحي طرفة عين، وقال النووي: ويجوز أن يكون أوحي إليه قبله.

وقول المرأة: (واثنين يا رسول الله؟) دليل على أن تعلق الحكم بعدد ما لا يدل من جهة دليل الخطاب على انتفائه عن غيره من العدد لا أقل ولا أكثر.

وفي هذا الحديث دليل على أن أولاد المسلمين في الجنة؛ لأن الله سبحانه إذا أدخل الآباء

*. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم.

الجنة بفضل رحمته للأبناء، فالأبناء أولى بالرحمة.[1]

وهل للرجل مثل ما للمرأة إذا قدم الولد؟ نعم؛ لأن حكم المكلفين على السواء، إلاَّ إذا دل دليل على التخصيص، ومن مبررات ذكر الوالدة دون الوالد في هذا الحديث، أن الأم أوفى شفقة من الأب، فذكر للنساء ما هو أخص بهن من فراق المحبوب.[2]

جزاء احتساب قبض الصفي

ورد في الحديث القدسي الصحيح ما يدل على أن الواحد كالاثنين، فعن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله تَعَالَى: ما لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ من أَهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلا الْجَنَّةُ).[3]

جاء في فتح الباري، أن الصفي هو الحبيب المصافي كالولد والأخ، وكل من يحبه الإنسان، والمراد بالقبض قبض روحه، وهو الموت، قوله: (ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلا الْجَنَّةُ) قال الجوهري: احتسب ولده إذا مات كبيراً، فإن مات صغيراً قيل: أفرطه، وليس هذا التفصيل مراداً هنا، بل المراد بـ(احْتَسَبَهُ)، صبر على فقده، راجياً الأجر من الله على ذلك، وأصل الحسبة بالكسر الأجرة، والاحتساب طلب الأجر من الله تعالى.[4]

أصاب الفردوس الأعلى

إذا كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعد الوالدة المسلمة التي يموت ولدها بأن تحجب عن النار، إن هي صبرت واحتسبت، فكيف إذا قضى ولد الأم شهيداً في سبيل الله تعالى؟ فبالتأكيد إن أجرها يتضاعف نظراً للمنزلة التي نالها ولدها باستشهاده، فالجنة موعده، في أرفع منازلها، فعن أَنَس بن مَالِكٍ: (أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بن سُرَاقَةَ، أَتَتْ

1. عمدة القاري: 134/2-135.
2. كشف المشكل من حديث الصحيحين: 776/1.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب العمل الذي يبتغي به وجه الله.
4. فتح الباري: 242/11.

النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا نَبِيَّ اللهِ؛ ألا تُحَدِّثُنِي عن حَارِثَةَ، وكان قُتِلَ يوم بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كان في الْجَنَّةِ، صَبَرْتُ، وَإِنْ كان غير ذلك، اجْتَهَدْتُ عليه في الْبُكَاءِ، قال: يا أُمَّ حَارِثَةَ؛ إِنَّهَا جِنَانٌ في الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعلى). [1]

والفردوس مدينة الجنة، وهي جنة الأعناب، واللفظة فيما قال مجاهد: رومية عربت، والعرب تقول للكروم فراديس.[2]

وقيل: إن الفردوس ربوة الجنة، وأوسطها، وأفضلها. [3]

فحارثة بن سراقة، استشهد يوم بدر، فجاءت أمه لتطمئن على مصيره في الآخرة، فعبرت في موقفها عن إيمانها العميق، ورضاها التام بقضاء الله وقدره، فإن كان مصيره الجنة، فستتحلى بالصبر على فراقه، مستأنسة بحسن جزائه، أما لو كان مصيره غير ذلك، فستجتهد بالبكاء؛ تحسراً عليه، في دلالة واضحة أن قسوة فراق الولد ولهيبه، يطفئه الاطمئنان على مصيره الحسن في الآخرة.

وفي هذا بشارة لأمهات الشهداء من وجه، إضافة إلى تبشيرهن بحسن مجازاتهن بصفتهن أمهات شهداء، فلهن جزاء آخر يتمثل في طمأنتهن على مصير أبنائهن الشهداء الذين صدقوا الله، فأحسن جزاءهم وذويهم.

أجر الصبر على الابتلاء بنقص الأنفس

يحسن في سياق الحديث عن تبشير أمهات الشهداء، الوقوف عند قضاء الله وقدره فيما يخص الابتلاء بفقد الأبناء، فما يقع في الكون من أحداث يتم في إطار قضاء الله تعالى وقدره، ومن ذلك رزق الولد، أو حجبه، وأن يكون ذكراً أو أنثى، فالله تعالى يقول: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله.
2. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 137/4.
3. تفسير الطبري: 38/16.

ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}.[1]

والله سبحانه خلق الموت والحياة، ولا يتم شيء من ذلك إلا بإذنه، وفي ذلك يقول جل شأنه: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}.[2]

وفي إطار القدر الإلهي يكون الابتلاء بأنواعه المختلفة وأشكاله كلها، التي منها الابتلاء بنقص الأنفس، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[3]

جاء في أضواء البيان، أن هذه المصائب معلومة له جل وعلا قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم؛ لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات، مما أصاب من مصيبة. ونقص الأنفس في قوله: {وَالأنفُسِ} أي مما أصاب من مصيبة في الأنفس.[4]

والمراد بنقص الأنفس؛ أي ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه.[5]

ويقول الألوسي: فالظاهر والله تعالى أعلم أن (من) للتبعيض، والمراد التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل بالنسبة إلى مقدور الله تعالى، وأنه تعالى قادر على أن يجعل ما يبتليهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول، وأنه مهما اندفع عنهم ما هو أعظم في المقدور، فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل؛ لطفاً بهم ورحمة، ليكون

1. الشورى: 49-50.
2. الملك: 1-2.
3. البقرة: 155-157.
4. أضواء البيان: 549/7.
5. تفسير السعدي: 76/1.

هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر، وحاملاً على الاحتمال، الذي يرشد إلى هذا سبق الإخبار بذلك قبل حلوله؛ لتوطين النفوس عليه، فإن المفاجأة بالشدائد شديدة الألم، والإنذار بها قبل وقوعها مما يسهل موقعها، وإذا فكر العاقل فيما يُبتلى به من أنواع البلايا، وجد المندفع منها عنه، أكثر مما وقع فيه بأضعاف لا تقف عنده غاية، فسبحان اللطيف بعباده.[1]

الخنساء أنموذج لصبر أمهات الشهداء

مما ورد في الصبر على الابتلاء بنقص الأنفس، ما قالته الخنساء عندما بلغها خبر استشهاد بنيها الأربعة في معركة القادسية، حيث قالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)[2]، هذا ما كان منها بعد إسلامها، بخلاف نحيبها على أخيها الذي مات قبل ذلك، حيث بكته بشعر الرثاء المفرط، وكان مما قالت: ألا

يا عين فانهمري بغدر وفيضي فيضة من غـير نزر

ولا تعدي عزاء بعد صخر فقد غلب العزاء وعيل صبري.

فالمجد والخلود لشهدائنا الأبرار، والصبر والسلوان لأمهاتهم وآبائهم وأزواجهم وأبنائهم، ومحبيهم، وصلى الله وسلم على نبينا الأسوة وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. روح المعاني: 21/7.
2. أسد الغابة: 1342/1.

الفصل الرابع
مناهج وقيم

	الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم	
.1	ينهاه الله تعالى عن المخاصمة لصالح الخائنين	173
.2	يأمر بالمعروف و تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة/ الحلقة الأولى	178
.3	يأمر بالمعروف و تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة/ الحلقة الثانية	183
.4	يأمر بالمعروف و تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة/ الحلقة الثالثة والأخيرة	188
.5	يحث على إغاثة الملهوف	193
.6	يشيد بالصادقين/ الحلقة الأولى	198
.7	يشيد بالصادقين/ الحلقة الثانية	203
.8	يمنع نفي النسب بالشبهات/ الحلقة الأولى	208
.9	يمنع نفي النسب بالشبهات/ الحلقة الثانية	213
.10	يمنع نفي النسب بالشبهات/ الحلقة الثالثة والأخيرة	218
.11	الخير باق في أمته إلى يوم القيامة	223
.12	يبين فضل العلم وأهميته	228
.13	يرشد الأمة إلى واجبها تجاه نصرة المستضعفين	233
.14	وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ/ الحلقة الأولى	238
.15	وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ/ الحلقة الثانية والأخيرة	243

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
ينهاه الله تعالى عن المخاصمة لصالح الخائنين

يخاطب الله تعالى رسوله الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، في محكم كتابه العزيز، فيقول تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}.[1]

الخطاب في الآية الكريمة موجه إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، غير أن أمته كلها مشمولون به، وبخاصة المحامين الذين يمتهنون تولي الدفاع والمرافعة عمن يكلفهم أمام المحاكم ذات العلاقة، وفي التفسير الكبير، أن معنى قوله: {وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}؛ أي ولا تكن لأجل الخائنين مخاصماً لمن كان بريئاً عن الذنب. والخصم؛ الذي يخاصمك، وجمعه الخصماء، وأصله من الخصم، وهو ناحية الشيء وطرفه، والخصم طرف الزاوية، وطرف الأشفار، وقيل للخصمين خصمان؛ لأن كل واحد منهما في ناحية من الحجة والدعوى.[2] ومن دلالات هذه الآية الكريمة النهي عن نوع من المخاصمة، التي من معانيها المرافعة والدفاع عن الخائنين، وهم ينبذهم الله تعالى، ولا يمنحهم حبه، وفي ذلك يقول تعالى: {...إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ }.[3]

كما أن الله تعالى يحجب هدايته عن الخائنين، فيقول عز وجل: {...وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}.[4]

سبب نزول النهي الرباني عن المخاصمة لصالح الخائنين

ورد في بعض كتب التفسير والسنن، روايات تدور حول شخص وقومه، تسبب تمويههم

1. النساء: 105.
2. التفسير الكبير: 11/27-28.
3. الأنفال: 58.
4. يوسف: 52.

الكذب، والخيانة، في استجلاب تعاطف الرسول، صلى الله عليه وسلم، معهم في بادئ الأمر، حتى نزلت الآية الكريمة تكشف الحقيقة، وتعيد الحق إلى نصابه، ومن روايات سبب نزول هذه الآية الكريمة، وما بعدها، ما ذكره النيسابوري من أنها نزلت في قصة طعمة بن الأبيرق؛ إذ سرق طعاماً وسلاحاً لبعض الأنصار، وجاء قومه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنه بريء، ونسبوا السرقة إلى غيره، وظن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنهم صادقون، فجادل عنهم؛ ليدفع ما نسب إليهم، حتى نزل القرآن، فافتضحوا، فالخائنون في الآية هم السراق بن الأبيرق. وقال السهيلي: هم بشر، وبشير، ومبشر، وأسيد، ومعناها: لا تكن لأجل الخائنين مخاصماً لغيرهم.[1]

المجادلة عن الخائنين

النهي الرباني للنبي، صلى الله عليه وسلم، لم يقتصر على ما تضمنته الآية الخامسة بعد المائة، من سورة النساء، بل تلاه تأكيد مباشر في السورة نفسها، وذلك في الآية السابعة بعد المائة، فقال تعالى: {وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}.[2]

وفي التفسير الكبير، أن الاختيان كالخيانة، يقال: خانه واختانه، فالخائن حرم نفسه الثواب، وأوصلها إلى العقاب، فكان ذلك منه خيانة مع نفسه، ولهذا المعنى يقال لمن ظلم غيره: إنه ظلم نفسه، وأجاب الرازي عن تساؤل مفترض، لِمَ قال: {خَوَّاناً أَثِيمًا} مع أن الصادر عنه خيانة واحدة، وإثم واحد؟ فأجاب أن الله تعالى علم أنه كان في طبع ذلك الرجل الخيانة الكثيرة، والإثم الكثير، فذكر اللفظ الدال على المبالغة؛ بسبب ما كان في طبعه من الميل إلى ذلك، وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة، فاعلم أن لها أخوات، وساق الرازي في

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 157/1.
2. النساء: 107.

تفسيره عن عمر، رضي الله عنه، أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي، وتقول: هذه أول سرقة سرقها، فاعف عنه، فقال: كذبت، إن الله لا يؤاخذ عبده في أول الأمر. ومن اللطائف المستنبطة من الآية أنه تعالى لما خص هذا الوعيد بمن كان عظيم الخيانة والإثم، دل ذلك على أن من كان قليل الخيانة والإثم، فهو خارج عنه.[1]

حصحصة الحق وبهتان الخائنين

الخائن الكاذب يحاول عادة تسويق خيانته وباطله، بالتدليس والتزيين، ولا يتردد في محاولة إلباس ثوب الخيانة لبريء، والله تعالى يحذر من يحلو له هذا الصنيع الشائن، فيقول تعالى: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}.[2]

والله تعالى أبقى لنا وللعالمين درساً معبراً لعاقبة الخيانة، حين يحصحص الحق، وذلك أورده سبحانه في ثنايا قصة يوسف، عليه السلام، بعد فشل امرأة العزيز في تطويعه للتعاطي مع مراودتها له، وبعد أن افتضح أمرها، رمته بالخطيئة زوراً وبهتاناً، فهيأ الله للحقيقة من يظهرها، ولم تبق حكراً في مخابئ الخائنين، ومما ذكره القرآن الكريم بهذا الشأن: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ* فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}[3]، واعترفت امرأة العزيز للنسوة بحقيقة رميها يوسف بالإثم، وفي ذلك يقول تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ

1. التفسير الكبير: 28/11-29.
2. النساء: 112.
3. يوسف: 25 - 28.

وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ} [1]، وأعادت الإقرار بهذه الحقيقة الدامغة التي نطقت فيها ببراءة يوسف، عليه السلام، مما رمته به، وفي ذلك يقول تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ* قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}.[2]

مشروعية المحاماة المنضبطة بالعدل والشرع

الناس حين اطّلاعهم على النهي الرباني للرسول، صلى الله عليه وسلم، عن المخاصمة عن الخائنين، يخطر ببال بعضهم أن مهنة المحاماة محرمة أو مذمومة، وهي كذلك إذا حاججت عن الباطل، ودافعت عن الخيانة، والكذب، وغير ذلك من المعاني السلبية، التي يذمها الله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، إلا أنها حين تعتمد الحق منهجاً، والعدل ميزاناً، فإنها تكون من المهن المشروعة، بل مما يحبه الله تعالى ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، ففي الشفاعة الحسنة يقول الله تعالى: {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}.[3]

وقمة حسن الشفاعة موافقتها للشرع، وتحقيقها للعدل، فمن كان هذا سبيله للمخاصمة عمن يحتاجها، فمسعاه طيب، وسلوكه حسن، وأجره الذي يتقاضاه بالمعروف حلال زلال، وثوابه عند الله جزيل، فالله تعالى يقول: {يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا}؛ أي حظ من ثوابها وخيرها، بخلاف الذي يخاصم عن الخائنين، فيكذب، ويزين الباطل، بلسان فصيح ظاهراً، غير أنه أداة تقود إلى جهنم، فالله تعالى جعل لصاحب الشفاعة السيئة، كفلاً منها، والكفل هو النصيب

1. يوسف: 32.
2. يوسف: 50-52.
3. النساء: 85.

الذي عليه يعتمد الإنسان في تحصيل المصالح لنفسه، ودفع المفاسد عنها.[1]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، لما جاءه المتخاصمان، حذرهما من تزيين الباطل بالفصاحة، واستصناع الحجج القوية، التي قد تنطلي على سامعها، فيساند صاحبها، على حساب خصمه، الذي لم يملك فصاحة الحجة، وقوة البرهان، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إليّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ له بِحَقِّ أَخِيهِ شيئاً بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ له قِطْعَةً من النَّارِ، فلا يَأْخُذْهَا).[2]

وصلى الله وسلم وبارك على النبي الهادي محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التفسير الكبير: 165/10.
2. صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يأمر بالمعروف وتغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة ـ الحلقة الأولى

عن أبي سَعِيدٍ، أنه سمع رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ).[1]

الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأمر في هذا الحديث الشريف المسلم الذي يرى منكراً بالعمل على تغييره، وفق قدرته واستطاعته، ومحصلة الأمر أنه إذا ثبت تحريم أمر، لزم تركه وإنكاره.

مفهوم المعروف والمنكر

المعروف اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله، والتقرّب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندَب إليه الشرعُ، ونهى عنه.[2]

والمُنْكَرُ من الأَمر: خلاف المعروف، وقد تكرر في الحديث، الإِنْكارُ والمُنْكَرُ، وهو ضد المعروف، وكلُّ ما قبحه الشرع وحَرَّمَهُ وكرهه، فهو مُنْكَرٌ.[3]

ومحصلة مفهومهما في الاصطلاح أن المعروف ما يقبله الشرع أو يحث عليه، والمنكر خلافه؛ فيشمل ما يرفضه الشرع أو ينهى عنه، وذلك بغض النظر عن مخالفة قليل الناس، أو كثيرهم لذلك.

مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مهمة الأمر بالمعروف وتغيير المنكر، كلف الله بها أمة الإسلام، فقال تعالى:

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.
2. لسان العرب: 112/10.
3. لسان العرب: 353/14.

{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[1]

والأصل في حكم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أنهما فرض كفاية، إذا قام بواجبهما بعض المسلمين، سقط الفرض عن الآخرين منهم، وقد يصبح في بعض الأحيان فرض عين، إذا لم يتم أداء فرضه، أو إذا تعين الأمر والنهي على أناس بأعينهم، كأن يكونوا في حضرة ترك المعروف، أو إتيان المنكر.

يقول النووي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع، أثم كل من تمكن منه، بلا عذر ولا خوف.

ثم أنه قد يتعين؛ كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته، أو ولده، أو غلامه على منكر، أو تقصير في المعروف.

ويذكر النووي أن وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تطابق عليه الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم، كما قال إمام الحرمين: لا يكترث بخلافهم في هذا، فقد أجمع المسلمون عليه، قبل أن ينبغ هؤلاء.[2]

وأثنى الله تعالى على المسلمين، كونهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}.[3]

أما المنافقون؛ فيخالفون ما يعمل المؤمنون تجاه المعروف والمنكر، وفيهم يقول تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ

1. آل عمران: 104.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 23/2.
3. آل عمران: 110.

أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ}.[1]

ولا يغير من حقيقة قبح المنكر تبني جماهير من الناس له، وحربهم ضد منكريه، فقوم لوط الذين استساغوا فاحشة اللواط، تجندوا لحمل لوائها، والتنظير لها، وفيهم يقول تعالى: {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.[2]

التوفيق بين {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقف النووي عند قول الله عز وجل: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[3] ، وينفي أن يكون قد خالفه فيما ذكر، بشأن حكم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويقول: إن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية؛ أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به، فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[4]، وإذا كان كذلك، فمما كلف به الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب، فلا عتب بعد ذلك على الفاعل؛ لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي، لا القبول، والله أعلم.[5]

محبطات خاطئة

يتقاعس بعض الناس عن القيام بمهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ظناً بأنها لن تجدي نفعاً، ولن تأتي بنتائج إيجابية، متسلحين بقول: لا يصلح العطار ما أفسد الدهر، وبخلاف ذلك هناك عبرة فيما قاله بعض الصحابة لما شاهدوا عمر بن الخطاب قادماً إلى دار عبد الله بن جدعان، حيث كانت إقامة الثلة الأولى من المسلمين، قالوا: يسلم حمار عمر، ولا يسلم عمر، وكانت النتيجة على خلاف توقعهم، فقد حضر عمر ليعلن إسلامه، ويلتحق

1. التوبة: 67.
2. العنكبوت: 29.
3. المائدة: 105.
4. الأنعام: 164.
5. صحيح مسلم بشرح النووي: 2/22-23.

بالمؤمنين، والله تعالى يقرر حقيقة إيمانية دالة بهذا الخصوص، إذ يقول تعالى: {وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[1]، فالهداية إلى الرشاد أمرها لله من قبل ومن بعد، وعلى المهتدين مهمة دعوة الآخرين لما اهتدوا إليه؛ ليخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة الواحد الدّيان، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

والنووي ينقل قول العلماء، رضي الله عنهم، الخاص بنفي سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن المكلف؛ لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله {فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}.[2]

والمكلف عليه الأمر والنهي، لا القبول، وكما قال الله عز وجل: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ}[3][4]

ومما قد يحبط، عن القيام بمهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو يقعد عنهما، نظر المكلف بهذه المهمة إلى عيوب نفسه، فيقول كيف أصلح الناس، وأنا صاحب العيوب؟!! ويغيب عن باله حقيقة أن الإنسان خطّاء، وعيوبه لا تنقطع، وإلا كان من الملائكة، ويذكر النووي أن العلماء لم يشترطوا في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر، وإن كان مخلاً بما يأمر به، والنهي، وإن كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان، أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما، كيف يباح له الإخلال بالآخر؟![5]

وما ذهب إليه النووي لا يتناقض مع تحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، من القيام

1. يونس: 25.
2. الذاريات: 55.
3. المائدة: 99.
4. صحيح مسلم بشرح النووي: 23/2.
5. صحيح مسلم بشرح النووي: 23/2.

بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن مخالفة ذلك من قبله، لا تعفيه عن العودة إلى الصواب، فهو مكلف بأمر نفسه ونهيها، إضافة إلى أمر الآخرين ونهيهم، غير أن تجاهل ذلك مع سبق التعمد والإصرار يجرفه ليكون في عداد أصحاب الزعم الكاذب، الذين ينكرون فعلاً ويمارسونه، أو يجاملون أصحابه، وفي الحديث الصحيح: (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يوم الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النَّارِ، فَيَدُورُ كما يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عليه، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلانُ؛ ما شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عن الْمُنْكَرِ؟ قال: كنت آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ، ولا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عن الْمُنْكَرِ، وَآتِيهِ).(*)

وإلى لقاء آخر بإذنه تعالى في حلقة قادمة؛ للوقوف عند مزيد من استنباطات العلماء من الحث على تغيير المنكر، وفق القدرة والاستطاعة، في ضوء توجيهات الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يأمر بالمعروف وتغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة ـ الحلقة الثانية

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما بَعَثَ الله من نَبِيٍّ، ولا اسْتَخْلَفَ من خَلِيفَةٍ، إلا كانت له بِطَانَتَانِ؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَحُضُّهُ عليه، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ، وَتَحُضُّهُ عليه، فَالْمَعْصُومُ من عَصَمَ الله تَعَالى).[1]

في سياق مواصلة الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يأتي الاستدلال بتحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، للأمراء والمسؤولين من بطانة الشر، التي تزين لهم الأخطاء، وتقبح لهم الحسنات، ويعتبر الإسلام نصح الإمام أو السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر من قبيل الواجبات المستحقة له على رعيته، فعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قال: لِلهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، ولأئمة الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ)[2] ، والناصح المخلص الأمين، يصدق صاحبه بالحق، دون أن ينافق إليه بإظهار تصديقه في كل حال، بالصحيح والخطأ، بل الواجب يقتضي أن يؤازره في صوابه، وأن يرشده إلى أخطائه، وبهذا يكون قد أخلص النصح لصاحبه، وأوفى لعهد الصداقة بينهما، على خلاف منهج قوم فرعون الذين أطاعوه في باطله، فاستحقوا وإياه غضب الله وعذابه، وقد أنكر الله تعالى عليهم منهج الرضا بالاستخفاف، والطاعة العمياء، فقال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ}. [3]

من يكلف بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

على ولاة الأمر واجب النصح السديد لرعاياهم، فيقع عليهم واجب كبير نحو حمل

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.
3. الزخرف: 54

أمانة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذلك مما كلف الله به المسلمين، رعاة ورعية، فالواجب يتعلق بهما، دون حصره بأحدهما، فالعلماء لم يقولوا باختصاص الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين، ويذكر النووي عن إمام الحرمين، قوله: إن الدليل على ذلك إجماع المسلمين، فإن غير الولاة في الصدر الأول، والعصر الذي يليه، كانوا يأمرون الولاة بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من غير ولاية، والله أعلم.

ويبين النووي أنه إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به، وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة؛ كالصلاة، والصيام، والزنى، والخمر، ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد، لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء.

ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه؛ لأن على أحد المذهبين كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عند كثير من المحققين، أو أكثرهم. وعلى المذهب الآخر المصيب واحد، والمخطئ غير متعين لنا، والإثم مرفوع عنه، لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف، فهو حسن محبوب، مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلال بسنة، أو وقوع في خلاف آخر.(*)

ويروي النووي عن أبي الحسن الماوردي البصري الشافعي، في كتابه الأحكام السلطانية، خلافاً بين العلماء في أن من قلده السلطان الحسبة، هل له أن يحمل الناس على مذهبه، فيما اختلف فيه الفقهاء، إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد، أم لا يغير ما كان على مذهب غيره،

* صحيح مسلم بشرح النووي: 23/2.

ورجح النووي أنه لا يغير.

ولم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين، ومن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ولا ينكر محتسب ولا غيره على غيره، وكذلك قالوا ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه، إذا لم يخالف نصاً، أو إجماعاً، أو قياساً جلياً، والله أعلم.[1]

خطورة شيوع التقصير بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يرى النووي أن باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبقَ منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث، عمَّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل، أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته، ولا يهابنَّ من ينكر عليه؛ لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}[2] ، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[3]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[4]، وقال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }[5]، ومعلوم أن الأجر على قدر النَصب، ولا يتاركه أيضاً لصداقته، ومودته، ومداهنته، وطلب الوجاهة عنده، ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته، ومودته، توجب له حرمة وحقاً، ومن حقه أن ينصحه، ويهديه إلى مصالح آخرته، وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه، هو من سعى في عمارة آخرته،

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 23/2-24.
2. الحج: 40.
3. آل عمران: 101
4. العنكبوت: 69.
5. العنكبوت: 2-3.

وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب آخرته، أو نقصها، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا، وكان الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أولياء للمؤمنين؛ لسعيهم في مصالح آخرتهم، وهدايتهم إليها.[1]

مهمة لازمة ولها آداب و لو حفت بالمشاق والصعاب

مهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ليست يسيرة، بل محفوفة بالمصاعب، ومحاطة بالشوك، مما يعني لزوم التحلي بالصبر من قبل حاملي لوائها، والجلد على هذا الدرب الشاق، فلقمان الحكيم لما أوصى ابنه بالمعروف والمنكر، حثه على التحلي بالصبر، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}.[2]

وترك هذه المهمة، أو التقاعس في أدائها، يوقع تحت طائلة المسؤولية أمام الله تعالى، وقد تكون العواقب مدمرة ووخيمة، فقد لعن الله تعالى الذين لم يتناهوا عن المنكر، فقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ* كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}.[3]

وهذه المهمة السامية لها من الآداب والأساليب والضوابط ما يساعد على تحقيق النتائج المرجوة منها، فالإمام النووي يقول: وينبغي للآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر أن يرفق؛ ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشافعي، رضي الله عنه: (من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية، فقد فضحه وشانه). ومما يتساهل أكثر الناس فيه من هذا الباب، ما إذا رأى إنساناً يبيع متاعاً معيباً، أو نحوه، فإنهم لا ينكرون ذلك، ولا يعرّفون المشترى بعيبه، وهذا خطأ ظاهر،وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 24/2.
2. لقمان: 17.
3. المائدة: 78-79.

أن ينكر على البائع، وأن يعلم المشتري به، والله أعلم.[*]

وإلى لقاء آخر بإذنه تعالى في حلقة قادمة لمواصلة الوقوف عند مزيد من استنباطات العلماء من الحث على تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة في ضوء توجيهات الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح مسلم بشرح النووي: 2/24-25.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يأمر بالمعروف وتغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة ـ الحلقة الثالثة والأخيرة

عن النُّعْمَان بن بَشِيرٍ، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَثَلُ الْقَائِمَ على حُدُودِ اللهِ، وَالْوَاقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إذا اسْتَقَوْا من الْمَاءِ مَرُّوا عَلى مَن فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لو أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقًا، ولم نُؤْذِ من فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أَرَادُوا، هَلَكُوا جميعاً، وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ، نَجَوْا، وَنَجَوْا جميعاً). (*)

جولة في معاني الحديث ودروسه

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (مَثَلُ الْقَائِمَ على حُدُودِ اللهِ)؛ أي المستقيم على ما منع الله تعالى من مجاوزتها، ويقال: القائم بأمر الله؛ معناه الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر. وقال الزجاج: أصل الحد في اللغة، المنع، ومنه حد الدار، وهو ما يمنع غيرها من الدخول فيها، والحداد الحاجب والبواب.

وقوله: (وَالْوَاقِعِ فيها)؛ أي في الحدود؛ أي التارك للمعروف، المرتكب للمنكر.

(اسْتَهَمُوا)؛ أي اتخذ كل واحد منهم سهماً؛ أي نصيباً من السفينة بالقرعة.

(عَلى مَن فَوْقَهُمْ)؛ أي على الذين فوقهم. وقوله: (ولم نُؤْذِ): من الأذى، وهو الضرر.

(من فَوْقَنَا)؛ أي الذين سكنوا فوقنا. وقوله: (فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أَرَادُوا)؛ أي فإن يترك الذين سكنوا فوقهم إرادة الذين سكنوا تحتهم، من الخرق، والواو بمعنى مع، وكلمة ما مصدرية.

وقوله: (هَلَكُوا): جواب الشرط، وهو قوله (فَإِنْ). وقوله: (هَلَكُوا جميعاً)؛ أي كلهم الذين سكنوا فوق، والذين سكنوا أسفل؛ لأن بخرق السفينة تغرق السفينة، ويهلك أهلها.

---

*. صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه.

وقوله: (وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ)؛ أي وإن منعوهم من الخرق. (نَجَوْا): أي الآخذون. (وَنَجَوْا جميعاً): يعني جميع من في السفينة، ولو لم يذكر قوله: (وَنَجَوْا جميعاً) لكانت النجاة اختصت بالآخذين فقط، وليس كذلك، بل كلهم نجوا؛ لعدم الخرق، وهكذا إذا أقيمت الحدود، وأُمِر بالمعروف، ونُهي عن المنكر، تحصل النجاة للكل، وإلاَّ هلك العاصي بالمعصية، وغيرهم بترك الإقامة.

ويستفاد منه أحكام؛ فيه جواز الضرب بالمثل، وجواز القرعة؛ فإنه صلى الله عليه وسلم، ضرب المثل هنا بالقوم الذين ركبوا السفينة، ولم يذم المستهمين في السفينة، ولا أبطل فعلهم، بل رضيه، وضرب به مثلاً، لمن نجّى من الهلكة في دينه.

وفيه تعذيب العامة بذنوب الخاصة، واستحقاق العقوبة بترك النهي عن المنكر، مع القدرة.

وفيه أنه يجب على الجار أن يصبر على شيء من أذى جاره؛ خوف ما هو أشد.[1]

وفي رواية صحيحة أخرى، ورد ذكر المدهن مكان القائم بحدود الله، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللهِ، وَالْوَاقِعِ فيها، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً...).[2]

قوله: (مَثَلُ الْمُدْهِنِ)، من الإدهان، وهو المحاباة في غير حق، وهو الذي يرائي، ويضيع الحقوق، ولا يغير المنكر.

وقوله: (يَنْقُرُ)، من النقر، وهو الحفر، سواء كان في الخشب، أم الحجر، أم نحوهما.[3]

فالمسؤولية عن فعل المنكر تقع على فاعله أولاً، فكل نفس بما كسبت رهينة، غير أن المجتمع المسلم تقع على أفراده وجماعاته مسؤولية مقاومة المنكر، وإطفاء ناره، ومنع انتشاره، فإن أدى واجبه نجا من الاحتراق بناره، وإلا فسيلحق لهيب شره الأخضر واليابس، ولات حين مندم.

1. عمدة القاري: 56/13-57.
2. صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات.
3. عمدة القاري: 263/12.

مسائل في صفة النهي عن المنكر ومراتبه

في سياق استنباطات العلماء من حثه صلى الله عليه وسلم، على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفق القدرة والاستطاعة، يقول الإمام النووي: وأما صفة النهي ومراتبه، فقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ) وقوله صلى الله عليه وسلم: (فَبِقَلْبِهِ) معناه فليكرهه بقلبه، وليس ذلك بإزالة وتغيير منه للمنكر، ولكنه هو الذي في وسعه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) معناه، أقله ثمرة، والله أعلم.

ويروي النووي عن القاضي عياض، رحمه الله، قوله: إن هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به، قولاً كان، أو فعلاً، فيكسر آلات الباطل، ويريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله، وينزع الغصوب، ويردها إلى أصحابها بنفسه، أو بأمره إذا أمكنه، ويرفق في التغيير جهده، بالجاهل، وبذي العزة الظالم المخوف شره، إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل، لهذا المعنى.

ويغلظ على المتمادي في غيه، والمسرف في بطالته، إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكراً أشد مما غيره؛ لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه؛ من قتله، أو قتل غيره، كفَّ يده، واقتصر على القول باللسان، والوعظ والتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك، غيّر بقلبه، وكان في سعة، وهذا هو المراد بالحديث، إن شاء الله تعالى.

وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان، ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر، إن كان المنكر من غيره، أو يقتصر على تغييره بقلبه، ويرى

القاضي عياض، أن هذا هو فقه المسألة، وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافاً لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال، وإن قتل، ونيل منه كل أذى.

وينقل النووي عن إمام الحرمين، رحمه الله، قوله بهذا الصدد: ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة، إن لم يندفع عنها بقوله، ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال، وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك، ربط الأمر بالسلطان، قال: وإذا جار ولي الوقت، وظهر ظلمه وغشمه، ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول، فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه، ولو بشهر الأسلحة، ونصب الحروب -هذا كلام إمام الحرمين-.

ويرد النووي، فيقول: وهذا الذي ذكره من خلعه، غريب، ومع هذا، فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه.

ويقول إمام الحرمين: وليس للآمر بالمعروف البحث، والتنقير، والتجسس، واقتحام الدور بالظنون، بل إن عثر على منكر غيره جهده.

ويذكر عن القاضي الماوردي، قوله: ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات، فإن غلب على الظن استسرار قوم بها لأمارة، وآثار ظهرت، فذلك ضربان:

أحدهما، أن يكون ذلك في انتهاك حرمة، يفوت استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه، أن رجلاً خلا برجل ليقتله، أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذا الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والبحث؛ حذراً من فوات ما لا يستدرك. وكذا لو عرف ذلك غير المحتسب من المتطوعة، جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار.

الضرب الثاني، من قصر عن هذه الرتبة، فلا يجوز التجسس عليه، ولا كشف الأستار عنه، فإن سمع أصوات الملاهي المنكرة من دار، أنكرها خارج الدار، لم يهجم عليها بالدخول؛ لأن المنكر ظاهر، وليس عليه أن يكشف عن الباطن.

وينبه النووي، أن الماوردي ذكر في آخر الأحكام السلطانية باباً حسناً في الحسبة، مشتملاً على جمل من قواعد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأنه أشار هنا إلى مقاصدها، وبسط الكلام في هذا الباب لعظم فائدته، وكثرة الحاجة إليه، كونه من أعظم قواعد الإسلام، والله أعلم.(*)

فهذا ختام لما تيسر من استنباطات بعض العلماء من الحث على تغيير المنكر، وفق القدرة والاستطاعة، في ضوء توجيهات الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح مسلم بشرح النووي: 2/25-26.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على إغاثة الملهوف

عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (على كل مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يا نَبِيَّ اللهِ؛ فَمَنْ لم يَجِدْ؟ قال: يَعْمَلُ بيده، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عن الشَّرِّ، فَإِنَّهَا له صَدَقَةٌ).[1]

فإعانة صاحب الحاجة من شيم الكرام، ومن خير الأعمال، التي يتقرب بها الناس إلى الله، من هنا جعلها النبي، صلى الله عليه وسلم، من خير الصدقات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى، وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ سُلامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بين الإثنين صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ على دَابَّتِهِ، فَيَحْمِلُ عليها، أو يَرْفَعُ عليها مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خطوة يَخْطُوهَا إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عن الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ).[2]

و(السُلامَى) بضم السين وتخفيف اللام، المفصل، وورد أن الله عز وجل خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، وقوله: (فَقَالُوا: يا نَبِيَّ اللهِ؛ فَمَنْ لم يَجِدْ؟) كأنهم فهموا من لفظ الصدقة العطية، فسألوا عمن ليس عنده شيء، فبين لهم أن المراد بالصدقة ما هو أعم من ذلك، ولو بإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف.

والملهوف هو المستغيث، وهو أعم من أن يكون مظلوماً أو عاجزاً، يقول ابن حجر: إن أعمال الخير تنزل منزلة الصدقات في الأجر، ولا سيما في حق من لا يقدر عليها، ويفهم منه أن الصدقة في حق القادر عليها، أفضل من الأعمال القاصرة، ويدل الحديث على أنه لا بدَّ من الشفقة على خلق الله، وهي إما بالمال، أو غيره، والمال إما حاصل، أو مكتسب، وغير المال

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه.

إما فعل، وهو الإغاثة، وإما ترك، وهو الإمساك.[1]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (السَّاعِي على الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللهِ، أو الْقَائِمَ اللَّيْلَ، والصَّائِمَ النَّهَارَ). [2]

وفي المحصلة؛ فإن القرآن الكريم، والحديث الشريف عنيا أيما عناية في الحث على غوث صاحب الحاجة، ووعد المغيث بخير الجزاء، وتفريج كربه يوم الدين، فعن عَبْدَ اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أخبره أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخِيهِ، كان الله في حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ الله يوم الْقِيَامَةِ).[3]

نماذج لعون الملهوف

ومن النماذج المميزة لعون صاحب الحاجة، ما بدر من الأنصار لإخوانهم المهاجرين، فاقتسموا معهم العيش، واستحقوا مدح الله عز وجل وثناءه، فقال تعالى فيهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[4]

بخلاف الأنموذج السيئ المتمثل في الامتناع عن مساعدة الفقراء، بحجة أن الله لم يغنهم، وفي ذلك يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}.[5]

وضرب لنا نبي الله موسى مثلاً كريماً في الغوث، حين تصدى لعون الفتاتين بالسقاية

1. فتح الباري: 308/3.
2. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.
3. صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.
4. الحشر: 9.
5. يس: 47.

لهما، وفي ذلك يقول تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}.[1]

ومن إعانة أصحاب الحاجة رفع الحرج عن المبتلين، فالله تعالى يقول: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً}.[2]

ثمرات غوث الملهوف

لإغاثة الملهوف ثمرات يجنيها المغيث في الدنيا والآخرة، ففي الآخرة لا يضيع عند الله تعالى ثواب مثقال ذرة، وفي الدنيا البركات، والطمأنينة، وراحة البال، والذكر الطيب، والشعور بالارتياح، وهو ينتفع بغوثه ساعة الكرب، وعند المحن، فالله يفرج كربه، ويرفع العسر عنه، ومن الشواهد على ذلك تفريج كرب أصحاب الصخرة، الذين سبق لأحدهم أن أعان مبتلاة بحاجة وفاقة، متبرعاً بذلك لوجه الله تعالى، بعد أن حاول ابتزازها قبل تذكر الخشية، فعن عَبْد اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ، حتى أَوَوْا الْمَبِيتَ إلى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ من الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عليهم الْغَارَ، فَقَالُوا: إنه لا يُنْجِيكُمْ من هذه الصَّخْرَةِ إلا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فقال رَجُلٌ منهم: اللهم كان لي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا، أَهْلاً ولا مَالاً، فَنَأَى بِي في طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فلم أُرِحْ عَلَيْهِمَا حتى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أو مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ على يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حتى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللهم إن كنت فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ

1. القصص: 23-24.
2. الفتح: 17.

وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه من هذه الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شيئاً لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: وقال الآخَرُ: اللهم كانت لي بِنْتُ عَمٍّ، كانت أَحَبَّ الناس إلي، فَأَرَدْتُهَا عن نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ من السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ، على أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حتى إذا قَدَرْتُ عليها، قالت: لا أُحِلُّ لك أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إلا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ من الْوُقُوعِ عليها، فَانْصَرَفْتُ عنها، وَهِيَ أَحَبُّ الناس إليّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الذي أَعْطَيْتُهَا، اللهم إن كنت فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، غير أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ منها، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: وقال الثَّالِثُ: اللهم إني اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غير رَجُلٍ وَاحِدٍ، تَرَكَ الذي له وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حتى كَثُرَتْ منه الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فقال: يا عَبْدَ اللهِ؛ أَدِّ إلي أَجْرِي، فقلت له: كُلُّ ما تَرَى من أَجْرِكَ من الإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ، وَالرَّقِيقِ، فقال: يا عَبْدَ اللهِ؛ لا تستهزىء بِي، فقلت: إني لا أستهزىء بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فلم يَتْرُكْ منه شيئاً، اللهم فَإِنْ كنت فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ).[1]

وفي الإسلام لا يقتصر الجزاء على عون الملهوف من بني البشر، بل يشمل الحيوان كذلك، فقد أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن ثواب مساعدة الحيوان في الحصول على ماء يشربه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عليه الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ منها، ثُمَّ خَرَجَ، فإذا هو بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ، فقال: لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ الله له، فَغَفَرَ له، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ وَإِنَّ لنا في الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قال: في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ).[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل.
2. صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء.

وفي رواية صحيحة أن الله غفر لامرأة مومسة، جراء تقديمها مساعدة احتاجها كلب، فعن أبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ على رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قال: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ له من الْمَاءِ، فَغُفِرَ لها بِذَلِكَ).[1]

في مقابل الإخبار عن عذاب امرأة بالنار لحبسها هرة، فكبدتها معاناة الجوع والعطش، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (دَخَلَتْ امْرَأَةُ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فلم تُطْعِمْهَا ولم تَدَعْهَا تَأْكُلُ من خَشَاشِ الأرض).[2]

وفقنا الله لغوث المستغيثين بأمره سبحانه وتعالى ومشيئته، وصلى الله وسلم على قدوتنا في الغوث، وعون المحتاج، وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يشيد بالصادقين ـ الحلقة الأولى

خاطب كَعْب بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد أن تاب الله تعالى عليه، على تخلفه عن غزوة تبوك، فقال: (يا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ اللهَ إنما نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إلا صِدْقًا، ما لقيت فَوَ اللهِ ما أَعْلَمُ أَحَدًا من الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ الله في صِدْقِ الحديث، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى يَوْمِي هذا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ الله على رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم: {لقد تَابَ الله على النبي وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ... إلى قَوْلِهِ: وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ...}).[1]

يؤكد هذا الحديث الشريف على أهمية الصدق، الذي اختاره الصحابي الجليل كعب ابن مالك منهجاً، وأمر الله المؤمنين بالحرص على التمسك به.

تبعات الصدق أولى من سراب النجاة بالكذب

خبر كعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، يدل على أهمية الصدق في حياة الناس، حتى لو كلفهم أحياناً المعاناة الوقتية، أو الآنية من بعض المصاعب والتبعات، إلا أن عواقبه الآجلة حميدة؛ فهو منجاة وطمأنينة، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا).[2]

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز و جل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} (التوبة: 118).

2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} (التوبة: 119)، وما ينهى عن الكذب.

فالثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، جرى عليهم من الضيق، والكرب، وهجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة، فصبروا على ذلك، واستكانوا لأمر الله، ففرج الله عنهم بسبب صدقهم، وتاب عليهم، وكان عاقبة صدقهم وتقواهم نجاة لهم وخيراً.[1]

كان بإمكان هؤلاء الثلاثة أن ينخدعوا بسراب النجاة بالكذب في أول الأمر، مثلما حصل مع المنافقين الذين اختلقوا الأعذار، وقبل منهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ظاهرهم، وترك باطنهم وما يخفون في صدورهم إلى الله تعالى، غير أن الثلاثة الذين صدقوا، نطقوا بالحق والصدق، فبينوا أن تخلفهم ما كان له ما يبرره، سوى أنهم تقاعسوا عن المشاركة لأسباب واهية، فقال كَعْبٌ: (كان من خَبَرِي أَنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ، حين تَخَلَّفْتُ عنه في تِلْكَ الْغَزَاةِ، والله ما اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حتى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الْغَزْوَةِ، ولم يَكُنْ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يُرِيدُ غَزْوَةً إلا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حتى كانت تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا، وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كَثِيرٌ).[2]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، قَبِل من المنافقين ظاهرهم، وعاقب الثلاثة الذين اعترفوا بحقيقة تخلفهم عنها دون عذر شرعي، قال كَعْبٌ: (وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عن أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهم رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حين حَلَفُوا له فَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لهم، وَأَرْجَأَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَمْرَنَا، حتى قَضَى الله فيه).[3]

وكان بعض المتخلفين عن غزوة تبوك قد استأذنوا النبي، صلى الله عليه وسلم، بذلك، فأذن

1. عمدة القاري: 279/18.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز و جل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} (التوبة: 118).
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز و جل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} (التوبة: 118).

لهم، فأنزل الله قوله تعالى: {عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}.[1]

فالله جل شأنه عاتب نبيه، صلى الله عليه وسلم، على إذنه لهم، وقدم الله ذكر العفو على العتاب؛ إكراماً له صلى الله عليه وسلم، وقيل إن قوله: {عَفَا اللهُ عَنكَ} ليس لذنب، ولا عتاب، ولكنه استفتاح كلام، كما يقول أصلحك الله،{حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}، كانوا قد قالوا: استأذنوه في القعود، فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا، وإنما كان يظهر الصدق من الكذب لو لم يأذن لهم، فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق، ويسافر المطيع.[2]

وفي الثلاثة والتوبة عليهم نزل قرآن يتلى، فقال تعالى: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.[3]

وعقاب الثلاثة الذين صدقوا الله ونبيه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن لأنهم صدقوا، بل لأنهم تخلفوا دون سبب شرعي مقبول، فضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، جراء هذا العقاب الدنيوي، وألمهم بسبب هذا العقاب رغم قسوته، إلا أنه أيسر من عقاب الآخرة، وهم في النهاية نالوا الرحمة والعفو، وتمتعوا بفرح التوبة عليهم، وفي وصف ساعة البشارة بالتوبة، يقول كعب، رضي الله عنه: (أنه بعد أن ضَاقَتْ عَلَيَّه نَفْسه، وَضَاقَتْ عَلَيَّه الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سمع صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى على جَبَلِ سَلْعٍ[4] بِأَعْلَى صَوْتِهِ، يا كَعْبُ بن مَالِكٍ؛ أَبْشِرْ، قال: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قد جاء فَرَجٌ، وَآذَنَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا).[5]

---

1. التوبة: 43.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 76/2-77.
3. التوبة: 118.
4. جبل سَلْع بفتح السين وسكون اللام، وهو جبل معروف بالمدينة. (عمدة القاري: 54/18).
5. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز و جل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} (التوبة: 118).

وما ندم الثلاثة على صدقهم، بل اعتبروا أنه جلب لهم الغفران، وفي هذا يقول كعب: (فَوَ اللهِ ما أَنْعَمَ الله عَلَيَّ من نِعْمَةٍ قَطُّ، بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ، أَعْظَمَ في نَفْسِي من صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإن اللهَ قال لِلَّذِينَ كَذَبُوا حين أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ ما قال لأَحَدٍ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ} إلى قَوْلِهِ {فإن اللهَ لا يَرْضَى عن الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}).[1]

ودعا كعب أن يحفظه الله تعالى من الوقوع في حبال الكذب ما بقي، فقال: (فَوَ اللهِ ما أَعْلَمُ أَحَدًا من الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ الله في صِدْقِ الحديث، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى يَوْمِي هذا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيتُ)

فهذه بعض جوانب قصة الذين تخلفوا عن غزوة العسرة –تبوك– بما تتضمنه من حقائق واضحة عن مآل كل من الصدق والكذب، فالصادقون ابتلوا بالضيق والشدة، وانتهى بهم المطاف إلى نيل التوبة والمغفرة، بينما المنافقون الذين كذبوا، واختلقوا الأعذار الزائفة؛ ليبرروا تخلفهم عن المشاركة في الغزوة، نجوا من المحاسبة الدنيوية في بادئ الأمر، غير أن الله تعالى توعدهم بعذاب بئيس يوم القيامة، فقال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}[2].

ويتماشى الموقف من جزاء المخلفين عن تبوك، مع ما جاء به الوحي الإلهي بشأن الصادقين والكاذبين، فالصادقون لهم الجنة، والكاذبون إلى النار، وبئس المصير، والله وعد الصادقين، وتوعد الكاذبين، فقال تعالى: {لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز و جل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} (التوبة: 118)
2. التوبة: 81.

إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}.[1]

وفي طمأنة الصادقين إلى حسن مصيرهم يوم الدين، يقول تعالى: {قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.[2]

جعلنا الله تعالى من الصادقين، ونجانا من الكذب وآفاته، وإلى لقاء آخر مع الإشادة بالصادقين، وصلى الله وسلم على رسولنا صادق الوعد الأمين، وعلى آله وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. الأحزاب: 24.
2. المائدة: 119.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يشيد بالصادقين ـ الحلقة الثانية والأخيرة

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بن النَّضْرِ، عن قِتَالِ بَدْرٍ، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ غِبْتُ عن أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ الله أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ، لَيَرَيَنَّ الله ما أَصْنَعُ، فلما كان يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قال: اللهم إني أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ -يَعْنِي أَصْحَابَهُ- وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ -يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ- ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بن مُعَاذٍ، فقال: يا سَعْدُ بن مُعَاذٍ؛ الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إني أَجِدُ رِيحَهَا من دُونِ أُحُدٍ، قال سَعْدٌ: فما اسْتَطَعْتُ يا رَسُولَ اللهِ ما صَنَعَ، قال أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أو طعنة بِرُمْحٍ، أو رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قد قُتِلَ، وقد مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فما عرفه أَحَدٌ إلا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قال أَنَسٌ: كنا نُرَى أو نَظُنُّ أَنَّ هذه الآيَةَ نَزَلَتْ فيه وفي أَشْبَاهِهِ {من الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه...} إلى آخِرِ الآيَةِ).(*)

يبرز هذا الحديث الشريف موقف صدق لأحد الصحابة، الذي انتهى باستشهاده، فأنس ابن النضر، رضي الله عنه، تغيب عن حضور معركة بدر، ولم يشارك في تسجيل أحداثها المشرفة، فأبدى ألمه لتخلفه عنها، وقطع للرسول، صلى الله عليه وسلم، عهداً، مفاده؛ إنه لو كتب الله له أن يشهد قتالاً قادماً مع المشركين، فسيري الله ما يصنع، بما يدل على عزمه البلاء الحسن، عند مشاركته في حرب أعداء الإسلام والمعتدين على حرماته، وهذا ما حصل فعلاً، فقد شهد غزوة أحد، ومن شدة بلائه أنه أصيب ببضع وثمانين جرحاً، ما بين ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ، أو طعنة بِرُمْحٍ، أو رَمْيَةٍ بِسَهْمٍ، وَوُجِدَ قد قُتِلَ، وقد مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وفي رواية صحيح مسلم، عن ثَابِتٍ قال: قال أَنَسٌ: (عَمِّيَ الذي سُمِّيتُ بِهِ، لم يَشْهَدْ مع رسول اللهِ، صلى الله

*. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا} (الأحزاب: 23)

عليه وسلم، بَدْرًا، قال: فَشَقَّ عليه، قال: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، غُيِّبْتُ عنه، وَإِنْ أَرَانِيَ الله مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَيَرَانِي الله ما أَصْنَعُ، قال: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قال: فَشَهِدَ مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يوم أُحُدٍ، قال: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ، فقال له أَنَسٌ: يا أَبَا عَمْرٍو؛ أَيْنَ؟ فقال: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ، أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قال: فَقَاتَلَهُمْ حتى قُتِلَ، قال: فَوُجِدَ في جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ من بَيْنِ ضَرْبَةٍ، وَطَعْنَةٍ، وَرَمْيَةٍ، قال: فقالت أُخْتُهُ -عَمَّتِيَ الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فما عَرَفْتُ أَخِي إلا بِبَنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هذه الآيَةُ {رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه فَمِنْهُمْ من قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ من يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} قال: فَكَانُوا يُرَوْنَ أنها نَزَلَتْ فيه وفي أَصْحَابِهِ).[1]

رجال صدقوا الله

يثني الله تعالى على الذي يصدق الوعد والعهد معه، جل شأنه، فيقول سبحانه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}[2] وفي زاد المسير، أن العلماء، اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية الكريمة، على قولين: أحدهما أنها نزلت في أنس بن النضر، والثاني أنها نزلت في طلحة بن عبيد الله، وجعل بعض المفسرين هذا القدر من الآية في طلحة، وأولها في أنس، قال ابن جرير: ومعنى الآية؛ وفوا لله بما عاهدوه عليه، وفي ذلك أربعة أقوال:

أحدها: أنهم عاهدوا ليلة العقبة على الإسلام والنصرة.

والثاني: أنهم قوم لم يشهدوا بدراً، فعاهدوا الله أن لا يتأخروا بعدها.

والثالث: أنهم عاهدوا أن لا يفروا إذا لاقوا فصدقوا.

والرابع: أنهم عاهدوا على البأساء والضراء وحين البأس.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.
2. الأحزاب: 23.

وقوله تعالى: {فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ} فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: فمنهم من مات، ومنهم من ينتظر الموت، قاله ابن عباس.

والثاني: فمنهم من قضى عهده، قُتِل أو عاش، ومنهم من ينتظر أن يقضيه بقتال، أو صدق لقاء، قاله مجاهد.

والثالث: فمنهم من قضى نذره الذي كان نذر، قاله أبو عبيدة.

فيكون النحب على القول الأول الأجل، وعلى الثاني العهد، وعلى الثالث النذر، وقال ابن قتيبة: {قَضَى نَحْبَهُ}؛ أي قتل، وأصل النحب النذر، كأن قوماً نذورا أنهم إن لقوا العدو قاتلوا حتى يقتلوا، أو يفتح الله عليهم، فقتلوا، فقيل: فلان قضى نحبه؛ أي قتل، فاستعير النحب مكان الأجل؛ لأن الأجل وقع بالنحب، وكان النحب سبباً له، ومنه، قيل للعطية من؛ لأن من أعطى فقد من، قال ابن عباس ممن قضى.[1]

وفي التفسير الكبير، أن في هذه الآية الكريمة إشارة إلى وفائهم بعهدهم، الذي عاهدوا الله، أنهم لا يفارقون نبيه، إلا بالموت، فمنهم من قضى نحبه؛ أي قاتل حتى قُتِل، فوفى **بنذره**، والنحب النذر، ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة؛ وفاء بالعهد، وما بدلوا تبديلاً.[2]

جزاء الصادقين ومقامهم عند ربهم

عقب الله تعالى على موقف من صدقوا الله العهد، ولم يبدلوا تبديلاً، بقوله جل شأنه: {لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}.[3]

أي قدر الله ما قدر من الفتن، والمحن، والزلازل؛ ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الله

1. زاد المسير: 369/6-371.
2. التفسير الكبير: 176/25.
3. الأحزاب: 24

الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين، الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم، عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه.[1]

فبسبب الصدق في الأقوال والأحوال والمعاملة مع الله، واستواء الظاهر مع الباطن، وعد الله الصادقين حسن الجزاء، فقال تعالى: {قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.[2]

وذكر الرازي في التفسير الكبير الإجماع على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة، والمعنى أن صدقهم في الدنيا، ينفعهم في الآخرة.

وأنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا، ينفعهم في القيامة، شرح كيفية ذلك النفع، وهو الثواب، وحقيقة الثواب أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله: {لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ}، إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً} إشارة إلى الدوام.[3]

ومدح الله تعالى الصادقين والصادقات مع أصحاب صفات أخرى، منها: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفروج، وَذِكْر الله، وأصحاب هذه الصفات والخصائص أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}.[4]

---

1. تفسير السعدي: 661/1-662.
2. المائدة: 119.
3. التفسير الكبير: 114/12-115.
4. الأحزاب: 35.

وأثنى الله تعالى على الصادقين في سياق الثناء على أصناف أخرى من المؤمنين، وهم: الصابرون، والقانتون، والمنفقون، والمستغفرون بالأسحار، فقال تعالى: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ}.[1]

فالإيمان والتقوى والصدق يحرص على الاتصاف بها أخيار الناس؛ استجابة لأمره {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}.[2]

بخلاف المنافقين الذين منهجهم الكذب والخيانة، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ).[3]

ومن عقاب الكاذب ما ذكره صلى الله عليه وسلم: (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، قَالا: الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ،تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).[4]

جنبنا الله الكذب وشره، وهدانا لنكون مع الصادقين في زمرة رسولنا الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 17
2. التوبة: 119.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.
4. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} (التوبة: 119)، وما ينهى عن الكذب.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يمنع نفي النسب بالشبهات ـ الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ أَعْرَابِيًّا أتى رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: (إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ، وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فقال له رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: هل لك من إِبِلٍ؟ قال: نعم. قال: فما أَلْوَانُهَا؟ قال: حُمْرٌ. قال: هل فيها من أَوْرَقَ؟ قال: إِنَّ فيها لَوُرْقًا. قال: فَأَنَّى تُرَى ذلك جَاءَهَا؟ قال: يا رَسُولَ اللهِ؛ عِرْقٌ نَزَعَهَا، قال: وَلَعَلَّ هذا عِرْقٌ نَزَعَهُ، ولم يُرَخِّصْ له في الانْتِفَاءِ منه).[1] الأورق: الذي فيه سواد ليس بصاف، ومنه قيل: للرماد أورق، وللحمامة ورقاء، وجمعه وُرق بضم الواو وإسكان الراء كأحمر وحمر.[2]

ينبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف، إلى أن الحكم بنفي نسب الولد، لا يقبل بشبهة لونه، أو ملامح جسده، فقد تقف أسباب جينية، ووراثية، وخلقية، وراء الاختلاف بين شكل الولد والوالد، والتي أشار إليها صلى الله عليه وسلم بالعرق، والمراد به هنا؛ الأصل من النسب تشبيهاً بعرق الثمرة، ومنه قولهم فلان معرق في النسب والحسب، وفي اللؤم والكرم. ومعنى نزعه أشبهه، واجتذبه إليه، وأظهر لونه عليه، وأصل النزع الجذب، فكأنه جذبه إليه لشبهه، يقال منه: نزع الولد لأبيه، وإلى أبيه، ونزعه أبوه، ونزعه إليه. وفي هذا الحديث أن الولد يلحق الزوج وإن اختلفا في اللون، حتى لو كان الأب أبيض، والولد أسود، أو عكسه، لحقه، ولا يحل له نفيه بمجرد المخالفة في اللون، وكذا لو كان الزوجان أبيضين، فجاء الولد أسود، أو عكسه؛ لاحتمال أنه نزعه عرق من أسلافه، وفي هذا الحديث أن التعريض بنفي الولد، ليس نفياً، وأن التعريض بالقذف ليس قذفاً،

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين، وقد بين النبي، صلى الله عليه وسلم، حكمهما ليفهم السائل.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 134/10.

وهو مذهب الشافعي وموافقيه، وفيه إثبات القياس، والاعتبار بالأشباه، وضرب الأمثال، وفيه الاحتياط للأنساب، وإلحاقها بمجرد الإمكان.[1]

إثبات النسب

لزوم إلحاق المواليد بنسب آبائهم، أمر قضاه الله تعالى، فقال جل شأنه: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً}.[2]

فالله تعالى يأمر بإلحاق الأبناء بنسب آبائهم، ملغياً بذلك التبني الذي كان شائعاً، والذي بمقتضاه كان يُنسب المتبَنَّى إلى الذي تبناه، حتى إن زيداً بن حارثة قبل نزول هذه الآية الكريمة كان ينادى بـ زيد محمد؛ لأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان متبنيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (...كَمَا تَبَنَّى النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْدًا، وَكَانَ مَنْ تَبَنَّى رَجُلاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، دَعَاهُ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَوَرِثَ مِنْ مِيرَاثِهِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ} إِلَى قَوْلِهِ {وَمَوَالِيكُمْ}، فَرُدُّوا إِلَى آبَائِهِمْ، فَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ لَهُ أَبٌ، كَانَ مَوْلًى وَأَخًا فِي الدِّينِ، فَجَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الْقُرَشِيِّ، ثُمَّ العَامِرِيِّ، وَهِيَ امْرَأَةُ أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّا كُنَّا نَرَى سَالِمًا وَلَدًا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ).[3]

وعن سَعْدٍ عن أبيه، قال عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه، لِصُهَيْبٍ: (اتَّقِ اللهَ، ولا تَدَّعِ إلى غَيْرِ أَبِيكَ، فقال صُهَيْبٌ: ما يَسُرُّنِي أَنَّ لي كَذَا وَكَذَا، وَأَنِّي قلت ذلك، وَلَكِنِّي سُرِقْتُ وأنا صَبِيٌّ).[4]

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 10/113-134.
2. الأحزاب: 5.
3. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.
4. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه.

ورسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ من أَعْظَمَ الْفِرَى، أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إلى غَيْرِ أبيه، أو يُرِيَ عَيْنَهُ ما لم تره، أو يقول على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ما لم يَقُلْ).[1]

وهذا الحديث الشريف يلتقي مع النهي العام عن ارتكاب كبيرة الزور، التي هي من أعظم الإثم، كما جاء في الحديث الصحيح، فعن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ ثَلاثًا، أو قَوْلُ الزُّورِ، فما زَالَ يُكَرِّرُهَا، حتى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ).[2]

ومرتكب إثم الزور لا تشفع له عبادة، ولا تغني عن عقابه طاعة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ).[3]

والذي يزور حقائق النسب بنفي أو إثبات على غير الحقيقة، إنما هو كذاب أشر، وقائل زور، ومرتكب إثم عظيم، لهذا توعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، مقترف هذا الذنب العظيم، بمقعد في النار، وبئس المصير، فعن أبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، أَنَّهُ سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (ليس من رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أبيه، وهو يَعْلَمُهُ، إلا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى قَوْمًا ليس له فِيهِمْ نسب، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ).[4]

ويقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (من ادَّعَى إلى غَيْرِ أبيه وهو يَعْلَمُ، فَالْجَنَّةُ عليه حَرَامٌ).[5]

إثم المرأة التي تلحق بزوجها ولداً ليس من صلبه

من بين بنود مبايعة النساء التي أمر بها الله تعالى، امتناعهن عن الإتيان ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل.
2. صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
4. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل.
5. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف.

بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1]

قال بعض العلماء: معنى قوله تعالى: {وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ}؛ أي ولا يأتين بولد زنى، يقصدن إلحاقه برجل ليس أباه، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية.[2]

وفي التفسير الكبير، قال ابن عباس: لا تلحق بزوجها ولداً ليس منه، قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن.[3]

وفي الكشاف، كنى بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين.[4]

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان عُتْبَةُ بن أبي وَقَّاصٍ، عَهِدَ إلى أَخِيهِ سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، أَنَّ ابن وَلِيدَةِ زَمْعَةَ مِنِّي، فَاقْبِضْهُ، قالت: فلما كان عَامَ الْفَتْحِ، أَخَذَهُ سَعْدُ بن أبي وَقَّاصٍ، وقال: ابن أَخِي قد عَهِدَ إليّ فيه، فَقَامَ عبد بن زَمْعَةَ، فقال: أَخِي وابن وَلِيدَةِ أبي وُلِدَ على فِرَاشِهِ، فَتَسَاوَقَا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: سَعْدٌ يا رَسُولَ اللهِ ابن أَخِي، كان قد عَهِدَ إليّ فيه، فقال عبد بن زَمْعَةَ: أَخِي وابن وَلِيدَةِ أبي، وُلِدَ على فِرَاشِهِ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، هو لك يا عبد بن زَمْعَةَ، ثُمَّ قال النبي، صلى الله عليه وسلم: الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، ثُمَّ قال لِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ -زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم- احْتَجِبِي منه؛ لِمَا رَأَى من شَبَهِهِ بِعُتْبَةَ، فما رَآهَا حتى لَقِيَ اللهَ).[5]

1. الممتحنة: 12.
2. أضواء البيان: 413/3.
3. التفسير الكبير: 267/29.
4. الكشاف: 519/4.
5. صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب الولد للفراش حرة كانت أو أمة.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد في حديثه هذا على قاعدة إثبات نسب المولود لأبيه بصفته صاحب فراش المعاشرة والزواج، ولا يستثنى من هذه القاعدة سوى حالة اللعان، التي ينسب الولد لأمه في أعقابها.

وإلى لقاء قادم مع مزيد من الوقوف عند محاذير التلاعب في الأنساب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يمنع نفي النسب بالشبهات ـ الحلقة الثانية

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: سَأَلُوا النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَصَعِدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ يَوْمٍ الْمِنْبَرَ، فقال: (لا تَسْأَلُونِي عن شَيْءٍ إلا بَيَّنْتُ لَكُمْ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فإذا كُلُّ رَجُلٍ رَأْسَهُ في ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كان إذا لاحَى يُدْعَى إلى غَيْرِ أبيه، فقال: يا نَبِيَّ اللهِ؛ من أبي؟ فقال: أَبُوكَ حُذَافَةُ، ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ، فقال: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، نَعُوذُ بِاللهِ من سُوءِ الْفِتَنِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، ما رأيت في الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، إنه صُوِّرَتْ لي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، حتى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ، قال: فَكَانَ قَتَادَةُ يَذْكُرُ هذا الحديث عِنْدَ هذه الآيَةِ: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عن أَشْيَاءَ إن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}).(*)

لجأ الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الحادثة التي يخبر عنها هذا الحديث الشريف إلى كشف المستور، بشأن نسب شخص سأله عن والده الحقيقي، وذلك على غير الدارج من بقاء ذلك سراً أبدياً، يعلمه الله تعالى، والمرأة التي حملت في أحشائها، تعلم من عاشرت، فإن كان معاشرها زوجاً شرعياً، فهي تقطع بصحة نسبة حملها إليه، وإن حملت من معاشرة أجنبي واحد، فهي تعلم أنه والد جنينها، وفي حالة تعدد معاشريها، فقد تختلط الأمور عليها، وتصبح ممن يعجزون عن الجزم بتحديد والد ابنها، ومثل هذه المعضلة، يطالع الناس أخبارها بين الحين والآخر عبر وسائل الإعلام، ومن خلال المشكلات التي تعرض أحياناً على القضاء للبت فيها، والمتأمل في أبعاد هذه المشكلة أخلاقياً واجتماعياً، يلحظ الأهمية البالغة للثناء القرآني على حافظات الغيب، فقال تعالى: {...فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ

*. صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن.

اللهُ ...}[1]، فمن صفات النساء المتميزات بالصلاح، أنهن مطيعات لأزواجهن، حافظات لفروجهن، وغيرها في غيبة أزواجهن، ومن كانت هذه صفاتها، فإنها لن تمارس الرذيلة، وبالتالي لن تحمل إلا من زوجها الذي تمت المعاشرة بينها وبينه، وفق شرع الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وبالتالي لن تلد لقيطاً أو مجهول النسب.

إثم الاتهام الظالم

إلى جانب حث الإسلام على الطهر والعفاف، الذي يحقق حفظ الأنساب، ومنع اختلاطها، فإنه ينفر من الاسترسال في الظنون والشك، دون مبررات يقينية، فالظن يولد المتاعب، ويخلق المشكلات، وقد يجر إلى الظلم، كونه لا يغني من الحق شيئاً، والله عز وجل ذم اتّباع الظن، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}[2]، وقال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}[3]، وحتى في حالات رواج شائعة مغرضة بحق مؤمن أو مؤمنة من أبناء المجتمع، فالإسلام يحث على حسن الظن، وينهى عن سوئه؛ لمجرد شائعة صدرت من هذا الطرف أو ذاك، فيقول تعالى: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ}[4]، ومعلوم أن هذه الآية الكريمة نزلت في سياق معالجة قصة الإفك، التي اتهمت فيها أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بالفاحشة ظلماً وزوراً.

ومع هذا الموقف الواضح، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كشف عن أسماء آباء بعض الناس في ظروف محددة ومحصورة جداً، كما حصل في الحادثة التي يخبر عنها الحديث الشريف المذكور أعلاه.

---

1. النساء: 34.
2. الحجرات: 12.
3. يونس: 36.
4. النور: 12.

وإلى جانب هذا كله؛ فإن الإسلام يشجع على الستر، وينهى عن ظلم الآخرين في أعراضهم، وأموالهم، ودمائهم، وحقوقهم كلها، وعلماء المسلمين وأخيارهم كانوا يقدمون الخطأ في العفو، على الخطأ في العقوبة، إذا تنازع الخياران، بخلاف الذين يقترفون الآثام والخطايا، ويستغلون قدرتهم على التنميق والتزيين في نفي التهم عن أنفسهم، ورمي أبرياء الناس بها، والله تعالى يحذر من هذا السلوك الشائن، بغض النظر عن مقترفيه، أزواجاً كانوا أم غيرهم، فيقول تعالى: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}.[5]

الملاعنة

لم يترك الإسلام مشكلة إلا شرع لها حلاً عادلاً، ومخرجاً مناسباً، ففي حال تيقن الزوج من أن امرأته، وهي على ذمته، انتهكت ميثاق الزوجية، وعاشرت غيره، ولم يتمكن من إثبات هذه الجريمة بالشهود، فشهادته عليها تبقى تتأرجح بين القبول والرد، إن لم تعترف هي بصدق اتهامه لها، وهنا تتفاقم المشكلة، فالله تعالى أعلم بالصادق منهما من الكاذب، ومن المؤكد أن أحدهما صادق، والآخر كاذب، فعن ابن عُمَرَ، قال: (فَرَّقَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بين أَخَوَيْ بني الْعَجْلانِ، وقال: الله يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟).[6]

فالإسلام شرع إجراء الملاعنة بين الزوجين حين يتهم الزوج امرأته بالفاحشة دون دليل أو إقرار منها، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ* وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.[7]

1. النساء: 112.
2. صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب صداق الملاعنة
3. النور: 6-9.

ولما رفعت إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، قضية بين زوجين انتهت باللعانة، عقب صلى الله عليه وسلم، قائلاً: (إن جَاءَتْ بِهِ أَحْمَرَ قَصِيرًا، كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ، فلا أُرَاهَا إلا قد صَدَقَتْ، وَكَذَبَ عليها، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْوَدَ أَعْيَنَ، ذَا إليتين، فلا أُرَاهُ إلا قد صَدَقَ عليها، فَجَاءَتْ بِهِ على المَكْرُوهِ من ذلك)[1]، فاللعانة فيها أحد المتلاعنين صادق، والآخر كاذب، ومسألة الولد في هذه الحالة تدخل دائرة الشك القاهر، والرسول، صلى الله عليه وسلم، برؤيته الثاقبة، أشار إلى الصادق منهما من الكاذب، بناء على وصف المولود الذي ستضعه الملاعنة.

وبالنسبة إلى مفهوم الملاعنة، فهي في اللغة مأخوذة من اللعن، وهو الإِبْعادُ والطَّرْد من الخير، أو من الله تعالى، واللَّعْنَة في القرآن: العذابُ. واللعن من الخَلْق السَّبُّ والدُّعاء، واللِّعَانُ والمُلاعَنة: المُباهَلَةُ. واللَّعْنُ يكون بين اثنين فصاعداً. وتَلاعَنَ القومُ: لَعَنَ بعضهم بعضاً. والمُلاعَنَة بين الزوجين إِذا قَذَفَ الرجلُ امرأَته، أَو رماها برجل أَنه زنى بها، فالإمام يُلاعِنُ بينهما، وجائز أَن يقال للزوجين إِذا فعلا ذلك: قد تَلاعنا ولاعَنا والْتَعنا، وجائز أَن يقال للزوج: الْتَعَنَ، ولم تَلْتَعِنِ المرأَةُ، وقد الْتَعَنتْ هي، ولم يَلْتَعِنِ الزوجُ. [2]

والأصل في الشرع النهي عن اللعن، فاللّعن يعني الطرد من رحمة الله، وذلك أمر يختص به سبحانه وتعالى، ومَن يمارس مِن البشر النطق باللعن، فإنما يتجاوز حده، ويُعتبر من المتآلين على الله، وفي الحديث الصحيح أَنَّ رَجُلاً قال: (وَاللهِ؛ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ، أَوْ كَمَا قَالَ). [3]

وذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، أن من أسباب كون النساء أكثر أهل النار، أنهن يكثرن اللعن، فقد خَرَجَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في أَضْحَى، أو فِطْرٍ، إلى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ على

1. صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب التلاعن في المسجد.
2. لسان العرب: 13/208-209، مادة لعن.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى.

النِّسَاءِ، فقال: (يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ؛ تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ). (*)

ولم يرد في الشرع إباحة اللّعن إلا في حالاتٍ محدودة جداً، من أبرزها، اللّعان بين الزوجين. حفظنا الله تعالى من شر اللعان ومسبباته، وإلى لقاء قادم مع مزيد من الوقوف عند محاذير التلاعب في الأنساب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح البخاري، كتاب الحيض، ترك الحائض الصوم.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يمنع نفي النسب بالشبهات ـ الحلقة الثالثة والأخيرة

عن ابن عُمَرَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لِلْمُتَلاعِنَيْنِ: (حِسَابُكُمَا على اللهِ؛ أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، لا سَبِيلَ لك عليها، قال: يا رَسُولَ اللهِ؛ مَالِي؟ قال: لا مَالَ لك؛ إن كُنْتَ صَدَقْتَ عليها، فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ من فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عليها، فَذَاكَ أَبْعَدُ لك منها). (*)

متابعة للحديث عن الملاعنة التي تناولت بعض متعلقاتها الحلقة السابقة في سياق عرض موضوع منع نفي النسب بالشبهات، فإذا وقعت الملاعنة بين الزوجين، فإن أحكاماً شرعية وقضائية تترتب عليها، ومن تلك الأحكام: سقوطُ حدِّ القذف عن الزَّوج، وسقوط حدِّ الزِّنى عن المرأة، وثبوتُ الفرقة المؤبّدة بين الزوجين، وانتفاء نسب الولد وإلحاقه بالزوجة، والحديث أعلاه يشير إلى بعض تلك الأحكام، التي منها التفريق بين المتلاعنين، والقضاء بالولد بعد الملاعنة للمرأة التي حملت به، كونه أصبح مشكوكاً في نسبه، وعدم استرجاع المهر الذي سبق أن دفعه الملاعن لامرأته عند زواجه منها.

التفريق بين المتلاعنين

الرسول، صلى الله عليه وسلم، بين في حديثه أعلاه بعض أحكام الملاعنة، التي منها التفريق بين المتلاعنين، فعن سَهْلِ بن سَعْدٍ، أَنَّ رَجُلاً من الأَنْصَارِ جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا رَسُولَ اللهِ؛ أَرَأَيْتَ رَجُلاً وَجَدَ مع امْرَأَتِهِ رَجُلاً؟ وَذَكَرَ الحديث بِقِصَّتِهِ، وزاد فيه، فَتَلاعَنَا في الْمَسْجِدِ، وأنا شَاهِدٌ، وقال في الحديث: فَطَلَّقَهَا ثَلاثًا قبل أَنْ يَأْمُرَهُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَفَارَقَهَا عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال النبي، صلى الله

*. صحيح مسلم، مقدمة الإمام مسلم رحمه الله، كتاب اللعان.

عليه وسلم: ذَاكُمْ التَّفْرِيقُ بين كل مُتَلاعِنَيْنِ).[1]

وقد اختلف المجتهدون في وقوع الفرقة باللعان على أربعة أقوال؛ أحدها: عن عثمان: ملاعنة الزوج امرأته لا تقتضي شيئاً يوجب أن يطلقها، وثانيها: قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان، حتى يفرق الحاكم بينهما، وثالثها: قال مالك والليث وزفر: إذا فرغا من اللعان، وقعت الفرقة، وإن لم يفرق الحاكم، ورابعها: قال الشافعي: إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان، فقد زال فراش امرأته، ولا تحل له أبداً.[2] فعند الجمهور أن المتلاعنين يفترقان، مع الاختلاف حول ارتباط الفرقة بقرار القاضي أم لا. واستدل الشافعي على أن المتلاعنين لا يجتمعان بالحديث المذكور أعلاه، فقال الرسول، صلى الله عليه وسلم، للملاعن: (لا سَبِيلَ لَكَ عَليها)، وبناء عليه؛ يصح للمرأة بعد الملاعنة الزواج من غيره، بعد انتهاء العدة، إذا انتفت الموانع، ووجدت الشروط لعموم الأدلة من الكتاب والسنة.

نسب ولد المتلاعنين

ثبت في الحديث الصحيح أن الولد ينسب إلى أمه، بعد إتمام التلاعن بينها وبين زوجها، الذي حملت وهي على فراشه، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَجُلاً رَمَى امْرَأَتَهُ، فَانْتَفَى من وَلَدِهَا في زَمَانِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَمَرَ بِهِمَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَتَلاعَنَا كما قال الله،ثُمَّ قَضَى بِالْوَلَدِ لِلْمَرْأَةِ، وَفَرَّقَ بين الْمُتَلاعِنَيْنِ).[3]

مناسبة تشريع حكم الملاعنة

جاءت روايات صحيحة عدة تخبر عن حوادث متشابهة، نزل بشأنها تشريع الملاعنة بين الزوجين، لكن بعض تلك الروايات اختلفت في تحديد اسم الشخص الذي نزلت بسببه

1. صحيح مسلم، مقدمة الإمام مسلم رحمه الله، كتاب اللعان.
2. التفسير الكبير: 23/147-148
3. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور.

آيات هذا التشريع، وبعضها لم يذكر اسماً بعينه، فالرواية المذكورة أعلاه تبين أن صاحب المناسبة هو عُوَيْمِر الْعَجْلانِي.

وهناك روايات صحيحة أخرى، تذكر أَنَّ هِلالَ بن أُمَيَّةَ، قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِشَرِيك بن سَحْمَاءَ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (الْبَيِّنَةَ أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال: يا رَسُولَ اللهِ: إذا رَأَى أَحَدُنَا على امْرَأَتِهِ رَجُلاً، يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ، فَجَعَلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: الْبَيِّنَةَ وَإِلا حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ؛ إني لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّئُ ظَهْرِي من الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...).[1]

ومن تلك الروايات، ما جاء عن عبد اللهِ، قال: (إِنَّا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ في الْمَسْجِدِ، إِذْ جاء رَجُلٌ من الأَنْصَارِ، فقال: لو أَنَّ رَجُلاً وَجَدَ مع امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَتَكَلَّمَ، جَلَدْتُمُوهُ، أو قَتَلَ قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ؛ سَكَتَ على غَيْظٍ، والله لأَسْأَلَنَّ عنه رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فلما كان من الْغَدِ أتى رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلَهُ، فقال: لو أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مع امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَتَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ، أو قَتَلَ، قَتَلْتُمُوهُ، أو سَكَتَ؛ سَكَتَ على غَيْظٍ، فقال: اللهم افْتَحْ، وَجَعَلَ يَدْعُو، فَنَزَلَتْ آيَةُ اللِّعَانِ ...). [2]

وقد اختلف العلماء بشأن هذه الروايات، بين مرجح أنها نزلت بشأن عويمر، أو بشأن هلال.

وقال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب. [3]

وقال القرطبي: والمشهور أن نازلة هلال كانت قبل، وأنها سبب الآية.[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور.
2. صحيح مسلم، مقدمة الإمام مسلم رحمه الله، كتاب اللعان.
3. فتح الباري لابن حجر: 450/8.
4. تفسير القرطبي: 183/12.

وقيل: نازلة عويمر كانت قبل. قال السهيلي: وهو الصحيح. وقال الكلبي: والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شريكاً عويمر العجلاني؛ لكثرة ما روي أن النبي، صلّى الله عليه وسلم، لاعن بين العجلاني وامرأته.[1]

وورد في تفسير آيات الأحكام أن تلك الروايات جميعها متفقة على ثلاثة أمور، هي:

1. أن آيات اللعان نزلت بعد آية قذف المحصنات بتراخ، وأنها منفصلة عنها.
2. أنهم كانوا قبل نزول آيات اللعان يفهمون من قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} الآية، أنّ حكم من رمى الأجنبية، وحكم من رمى زوجته سواء.
3. أنّ هذه الآية نزلت تخفيفاً على الزوج، وبياناً للمخرج مما وقع فيه مضطراً. [2]

البصمة الوراثية لإثبات النسب

يلجأ بعض الناس في العصر الحديث إلى إجراء فحص البصمة الوراثية (DNA)؛ للتأكد من ثبوت النسب أو نفيه، ويقيد بعض العلماء اللجوء إلى هذا الفحص بوجود مبرر مقبول شرعاً وقضاءً، على أن يتم للاستئناس، وعلى سبيل الاحتياط، ومن خلال أمر قضائي، وعلى أن يجري في مختبرات رسمية متخصصة، مع ضرورة منعه لمجرد الشك، أو التأكد من الأنساب دون مبرر وجيه؛ قطعاً لإشاعة الظنون في الأنساب والبلبلة حولها.

الآثار السلبية لجهل النسب

في أعقاب تناول هذه الحلقة من زاوية الرسول الأسوة، وسابقتيها جوانب من متعلقات موضوع نفي النسب بالشبهات، يظهر مدى حساسية هذه المسألة الأخلاقية والاجتماعية، وكم أولاها الإسلام الحنيف عنايته واهتمامه، حيث تعرضت لتفصيل بعض أحكامها آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الأمين، صلى الله عليه وسلم، ووقفت عند آثارها

1. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 155/18.
2. تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس: 551.

بحوث علمية إسلامية، ودراسات عديدة، منها الدراسة الميدانية التي أجراها كل من د. منى عبد الله، ود. إيهاب عبد العزيز، وإيمان محمد، التي تحمل عنوان: (دراسة في أهم المشكلات النفسية والاجتماعية لدى الأطفال مجهولي النسب في الأسر البديلة والمؤسسات الإيوائية)، وهدفت الدراسة إلى التعرف على بعض المشكلات النفسية والاجتماعية وأهمها للأطفال مجهولي النسب داخل الأسر البديلة، والأطفال مجهولي النسب داخل المؤسسات الإيوائية، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها، أن الأطفال في كل من النظامين يعانون من المشكلات النفسية والاجتماعية، وأن الطفل في هذه الأسر يحس بالحرمان العاطفي؛ نظراً لما يتعرض إليه الأطفال من تفرقة داخل الأسر البديلة بين هؤلاء الأطفال، وأبناء الأسرة الطبيعيين. ومن التوصيات التي انتهت إليها هذه الدراسة، الدعوة إلى تفعيل دور علماء الاجتماع في دراسة حجم مشكلة الأطفال ومجهولي النسب في مجتمعاتنا، وتقديم إحصاءات حولها، ولزوم العودة إلى الالتزام الفعلي بقيمنا الدينية في العالم العربي حتى يقل- بل ينعدم - وجود هذه الفئة من مجهولي النسب.

حفظنا الله تعالى من شر نفي النسب بالشبهات وغيرها، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

الخير باق في أمته إلى يوم القيامة

عن الْمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا تزال طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).[1]

يشير هذا الحديث النبوي الشريف إلى حتمية استمرار الخير في أمة الإسلام، وأنه لن ينقطع أثرها من الوجود حتى يأتي أمر الله، وذلك بقيام الساعة، قال النووي: يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة في المؤمنين، فمنهم قائم بالجهاد، ومنهم قائم بالعلم، ومنهم قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم قائم بأنواع أخرى من الخير.[2]

وقوله: (حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ)؛ أي يوم القيامة، أو علاماتها.[3]

وقوله: (حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)؛ أي على من خالفهم؛ أي غالبون، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين، بل مشهورون، والأول أولى.[4]

والإخبار عن هذا الأمر الغيبي لا يتحصل العلم به إلا من الله سبحانه وتعالى، وقد تأكدت حتمية بقاء الخير في أمة الإسلام في روايات صحيحة أخرى، مع شيء من التفصيل أو الاختلاف في بعض الألفاظ، فتكرر في بعض الروايات ذكر أن الباقين (طائفة) وفي رواية (قوم) وفي أخرى ذكر أن الباقي (أمر). وذكر في روايات (من أمتي) وفي أخرى (من هذه الأمة). وذكر في بعض الروايات عن الطائفة إنهم (ظَاهِرِينَ) وفي رواية (ظَاهِرِينَ على الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ)، وفي رواية ذكر إنهم (يُقَاتِلُونَ على الْحَقِّ ظَاهِرِينَ)، وفي أخرى

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم.
2. الديباج على مسلم: 512/4.
3. عمدة القاري: 135/36.
4. فتح الباري: 369/20.

ذكر أنهم (ظَاهِرِينَ على الناس) وفي الرواية التي ذكرت أن الباقي أمر الأمة، وصف الأمر فيها بأنه (مستقيم).

وبالنسبة إلى حد المدى الذي سيبقى ظهور الطائفة إليه، والاستقامة للأمر، فبإجماع الروايات هو يوم القيامة، لكن بعضها ذكر ذلك صريحاً، وبعضها ذكره بألفاظ دالة، فالصريحة كقوله صلى الله عليه وسلم: (حتى تَقُومَ السَّاعَةُ)، وفي رواية (إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وفي أكثر الروايات ذكر (حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ)، وفي أخرى ذكر (حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ).

نصوص روايات صحيحة أخرى ذات صلة بهذا الوعد

من الروايات الصحيحة المخبرة عن حتمية بقاء أمر الله إلى قيام الساعة، أنه صلى الله عليه وسلم، قال: (وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هذه الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حتى تَقُومَ السَّاعَةُ، أو حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ).[1]

وعن جَابِر بن عبد اللهِ أنه سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قال، فَيَنْزِلُ عِيسَى بن مَرْيَمَ، صلى الله عليه وسلم، فيقول أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لنا، فيقول: لا إِنَّ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هذه الْأُمَّةَ).[2]

وعن ثَوْبَانَ قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ).[3]

وعن قَيْسٍ عن الْمُغِيرَةِ قال: سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم.
3. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.

من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الناس حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).[1]

وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (لَنْ يَبْرَحَ هذا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عليه عِصَابَةٌ من الْمُسْلِمِينَ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ).[2]

فهذه الروايات الصحيحة تدل بما لا يدع مجالاً لأي شك على أن أمر أمة الإسلام سيبقى قائماً بالحق، منتصراً على الباطل، حتى تقوم الساعة، فهو وعد إلهي، وحاشى لله سبحانه وتعالى أن يخلف وعده.

نفحة أمل رغم تزاحم الشدائد

تنفح من الأحاديث سالفة الذكر بشائر الأمل، التي تطارد عوامل الإحباط، الذي قد ينتاب بعض المسلمين، نتيجة الأحوال الصعبة التي تعترض مسيرة حياتهم، وتبدو أحياناً وكأنها زلازل تهدد وجودهم وبقاءهم، إلا أن الضمان الإلهي لهذه الأمة بالبقاء غالبة لمن خالفها، منتصرة على من عادها، يطمئن النفوس التي تعتقد بصدق هذه الأخبار، وتؤمن جازمة بحتمية تحققها، فأمة الإسلام ستبقى الغالبة والمنتصرة، وإن اعترتها بعض الجراح هنا أو هناك، فهي جراح عابرة، لن ينخر ضررها بأصول وجود الأمة، التي بلسم الله جراح سلفها، فقال تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.[3]

وأمة الإسلام موعودة بالبقاء ظاهرة إلى يوم الدين، وفق ما دلت عليه مضامين الأحاديث الصحيحة سالفة الذكر، وهي لن تهلك بسنة ولا غرق، فعن عَامِرِ بن سَعْدٍ، عن أبيه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً،

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.
3. آل عمران: 140.

سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا).[1]

فمهما اشتدت الخطوب بأمة الإسلام، فلن تلحق بها الإبادة، ولن يقضى عليها بالزوال، وإنما قد تعتريها جراح من جولة عاصفة، وقد تصيبها بعض المصائب، وحينذاك عليها أن تبذل جهدها للنهوض من جديد، ليتحقق لأبنائها الناهضين شرف العمل على تحقيق أمر الله الموعود، بانتصار الحق على الباطل، وهو القائل سبحانه وتعالى: {...كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ}[2]

وفوق الانتصار في الدنيا، فالمؤمنون وعدهم الله بخير الجزاء في الآخرة، وتوعد أعداءهم بأشد العذاب، فقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}.[3]

فالمطلوب الاستقامة على أمر الله تعالى، واستحضار خشيته سبحانه في الرخاء والشدة، ومن يفعل ذلك يكن مع الذين أنعم الله عليهم بالأجر العظيم، من الذين قال جل شأنه فيهم: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.[4]

التوفيق بين بقاء الطائفة المؤمنة إلى يوم القيامة وقيامها على شرار الخلق

قد يبدو إلى بعض الناس وجود تعارض بين الوعد ببقاء الطائفة المؤمنة إلى يوم القيامة

1. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.
2. الرعد: 17.
3. النساء: 173.
4. آل عمران: 172

وبين الإخبار عن قيام الساعة على شرار الخلق، فالأمران ثابتان في الأحاديث الصحيحة، فإلى جانب الروايات الصحيحة عن بقاء طائفة من أمة الإسلام ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة، فقد جاءت أحاديث صحيحة كذلك تخبر أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، فعن عبد اللهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إلا على شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ من أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إلا رَدَّهُ عليهم، فَبَيْنَمَا هُمْ على ذلك، أَقْبَلَ عُقْبَةُ بن عَامِرٍ، فقال له مَسْلَمَةُ: يا عُقْبَةُ؛ اسْمَعْ ما يقول عبد اللهِ، فقال عُقْبَةُ: هو أَعْلَمُ، وَأَمَّا أنا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ من أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ، حتى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ على ذلك، فقال عبد اللهِ: أَجَلْ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ، مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فلا تَتْرُكُ نَفْسًا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ من الْإِيمَانِ إلا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ الناس عليهم تَقُومُ السَّاعَةُ).[1]

قال النووي: لا مخالفة بين الأحاديث، لأن المراد من أمر الله الريح اللينة التي تأتي قريب القيامة، فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة، وهذا قبل القيامة، وأما الحديثان الأخيران فهما على ظاهرهما إذ ذلك عند القيامة.[2]

فبقاء الطائفة المؤمنة المنتصرة الظاهرة يكون إلى قبيل قيام الساعة، فإذا ما صدر الأمر الإلهي بقيامها، فإن ذلك مشهد لا يحضره سوى شرار الخلق من الناس، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الكريم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.

2. عمدة القاري: 10/3.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل العلم وأهميته

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا مَاتَ الإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثَلاثَةٍ؛ إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له).[1]

كل الخلق مصيرهم أن يفارقوا الحياة الدنيا بالموت، فإذا ماتوا، غابت أجسادهم وحركاتهم عن الوجود الظاهر، غير أن بعض أعمال الناس تبقى آثارها موجودة بعد موتهم، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر في هذا الحديث الشريف ثلاثة من تلك الأعمال، أحدها العلم النافع، فمن ترك آثاراً علمية، سواء تعلقت بأبحاث، أو كتابات، أو دروس ومناهج وأساليب، فإنها تبقى بارزة، ويبقى سريان نفعها خالداً، رغم أن صاحبها قد مات، فكم من عالم تدرس مؤلفاته وأفكاره في المدارس والمعاهد والجامعات، رغم أنه قد مات من زمن بعيد، وكم من أترابه من الفئة العمرية نفسها، وجدوا على الدنيا معه، ونسي ذكرهم مع موتهم أو بعد ذلك بقليل؛ لأنهم لم يتركوا وراءهم بصمات علمية نافعة، يرجع إليها طلبة العلم وأساتذته من الذين وجدوا في الحياة بعدهم، والحديث أعلاه يبين أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف، وفيه بيان فضيلة العلم، والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه بالتعليم، والتصنيف، والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع.[2]

1. صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 85/11.

والملاحظ أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر العلم هنا مطلقاً، فلم يحدد نوعه، ولا طريقة الانتفاع به، مما يعني أن أي علم نافع يفيد الناس في مجالات الحياة كافة، سواء في عبادتهم أو غذائهم، أو دوائهم، أو فكرهم، أو تسهيل عيشهم، والارتقاء به هو علم مشمول بالفضل، الذي يرفع درجات صاحبه، وتبقى آثاره الطيبة بعد موت صاحبه، من هنا شرعت غبطة أهل العلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً، فَسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ في الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بها وَيُعَلِّمُهَا).[1]

العلم والإيمان

من الحقائق الثابتة أن الله تعالى أنزل أول كلمة قرآنية تتصل بشكل وثيق بالعلم، فقال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}.[2]

فالقراءة هي من أبرز وسائل العلم وأدواته، وفي هذه الآيات الكريمات، ذكر الله تعالى أنه علم بالقلم، والقلم هو أداة الكتابة، التي تقترن أهميتها للعلم بأهمية القراءة، وقد أشارت هذه الآيات القرآنية الأولى إلى الربط الأكيد والمعمق بين القراءة والكتابة، وبين العقيدة الدينية المنطلقة من الإيمان بالله وأسمائه، والخضوع لمبادئه سبحانه وتعالى وقيمه وتشريعه، ولولا فضل الله علينا ما كنا، ولا بقينا، ولا علمنا، ولا فقهنا، فالله خلقنا، وأنزل القرآن يهدينا، وعلمنا إياه، فقال تعالى: {الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ}.[3]

وربط الله تعالى التوفيق إلى العلم وتحصيله والنجاح فيه بالتقوى، فقال تعالى: {...وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.
2. العلق: 1-5.
3. الرحمن: 1-2.
4. البقرة: 282.

وقد عبر عن الإيمان بعمق هذا الربط بين العلم والتقوى الإمام الفقيه الشافعي، رحمه الله تعالى، حيث قال في بعض شعره:

شَكَوْتُ إلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إلَى تَرْكِ المَعَاصي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ونورُ الله لا يهدى لعاصي

وفي صحيح البخاري، بَاب الْعِلْمُ قبل الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الله} (فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ من أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا، سَهَّلَ الله له طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وقال جَلَّ ذِكْرُهُ: {إنما يَخْشَى اللهَ من عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} وقال: {وما يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ} {وَقَالُوا لو كنا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كنا في أَصْحَابِ السَّعِيرِ} وقال: {هل يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وقال أبو ذَرٍّ: لو وَضَعْتُمْ الصَّمْصَامَةَ على هذه، وَأَشَارَ إلى قَفَاهُ، ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا من النبي، صلى الله عليه وسلم، قبل أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لأَنْفَذْتُهَا، وقال ابن عَبَّاسٍ: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ، حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَيُقَالُ الرَّبَّانِيُّ: الذي يُرَبِّي الناس بِصِغَارِ الْعِلْمِ قبل كِبَارِهِ).[1]

وفي عمدة القاري أن معنى إنما يخاف الله من عباده العلماء؛ أي من علم قدرته، وسلطانه، وهم العلماء، قاله ابن عباس. وقال الزمخشري: المراد العلماء الذين علموه بصفاته، وعدله، وتوحيده، وما يجوز عليه، وما لا يجوز، فعظموه، وقدروه، وخشوه حق خشيته، ومن ازداد به علماً، ازداد منه خوفاً، ومن كان عالماً به كان آمناً، وقال رجل للشعبي: افتني أيها العالم، فقال العالم من خشي الله.[2]

وما أجمل استشعار فضل العلم، ومكانة العلماء! وطلبتنا وفلذات أكبادنا يحضرون

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.
2. عمدة القاري: 41/2.

ويعدون العدة بهمم عالية للشروع في العام الدراسي الجديد، سواء على مستوى المدارس، أم رياض الأطفال، أم الجامعات والكليات، والمعاهد على مختلف مستوياتها، والدرجات العلمية التي تمنحها، سائلين الله تعالى أن يحفظهم، ويوفقهم، ويعلمهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

علوم الدين

شمول الفضل لمختلف أنواع العلم ومجالاته النافعة، لا ينفي الفضل الخاص بالعلم الشرعي، الذي أساسه العلم بالقرآن الكريم، وسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي يقول: (من يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ...).[1]

قال الحافظ: نكر خيراً ليشمل القليل والكثير، والتنكير للتعظيم؛ لأن المقام يقتضيه. والفقه هو الفهم، قال الله تعالى: {لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}[2]؛ أي لا يفهمون، والمراد الفهم في الأحكام الشرعية، ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين؛ أي يتعلم قواعد الإسلام، وما يتصل بها من الفروع، فقد حرم الخير.[3]

وفصل النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذكر ثمرات العلم الشرعي، ومدارسته، وبخاصة في المساجد، فقال صلى الله عليه وسلم: (...وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ).[4]

فالله تعالى يسهل لطالب العلم السبيل لدخول الجنة، وينزل سكينته على المجتمعين في

---

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.
2. النساء: 78.
3. تحفة الأحوذي: 338/7.
4. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

المساجد لدراسة القرآن وعلومه وتلاوته، ويتفضل عليهم بواسع رحمته، ويوحي إلى ملائكته لتحفهم، ويذكرهم الله فيمن عنده في الملأ الأعلى.

ومعنى التدارس قراءة بعضهم على بعض؛ تصحيحاً لألفاظه، أو كشفاً لمعانيه، وذلك يشمل جميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم، والمراد بالسكينة ها هنا الطمأنينة والوقار، ومعنى (وحفتهم الملائكة)؛ أي أحاطوا بهم.[1]

فهذه وقفة تأملية عند بعض الآثار المتعلقة ببيان فضل العلم وأهميته، وارتباطه بالإيمان، عسى أن ينفع الله بها المقبلين على الالتحاق بمقاعد الدراسة المختلفة، حتى يثمر علمهم عملاً يقبله الله، ويجزي أصحابه خير الجزاء، وقد جاء في الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ).[2]

وصلى الله على الرسول محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. تحفة الأحوذي: 8/215-216.
2. أخرجه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسنه الهيثمي في المعجم: 11/55.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يرشد الأمة إلى واجبها تجاه نصرة المستضعفين

عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى ها هنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ). (*)

يحدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف بعض واجبات المسلمين تجاه بعضهم بعضاً، في مجالات رئيسة ومتنوعة، ففي إطار حفظ الحقوق، ومنع التعدي، وتوطيد العلاقة، وإدامة المحبة بينهم، ورد النهي عن التحاسد، والتناجش، والتباغض، والتدابر، وعن البيع على بيع بعض، وجاء التأكيد على الأخوة الإيمانية التي تجمعهم، (وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ)، وهذه الأخوة ليست شعارات رنانة فحسب، بل هي باعث متين لأداء التزامات يؤديها المسلم تجاه إخوانه، فلا يظلمهم، ولا يخذلهم، ولا يحقرهم، ويختم الرسول، صلى الله عليه وسلم، حديثه الجامع هذا، بإرساء قاعدة سلوكية تقتضيها الأخوة التي تجمع المسلمين، متمثلة في تأكيد تحريم انتهاك دم المسلم، وماله، وعرضه، من قبل باقي المسلمين، سواء أكانوا أفراداً أم جماعة، حكاماً أم محكومين.

ومن هذا التوجيه النبوي الشامل، نخلص إلى أن المسلمين أفراداً وجماعات، عليهم واجبات تجاه بعضهم بعضاً، يؤدونها من منطلق إيمانهم وإسلامهم، لهم الفضل والأجر إن بذلوا أقصى جهودهم للقيام بها، وعليهم الذنب، ويلحقهم العار والشنار إن قصروا في ذلك، أو تهاونوا، أو رضوا بالحياة الدنيا ومتاعها الفاني دونها، فلا خير في جماعة، ولا أفراد

*. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

تضيع فيهم حقوق الضعيف، ويجوع فقيرهم، ولا يغاث مستجيرهم، فالعرب حتى قبل الإسلام، كان من أخلاقهم الحميدة نصرة المظلوم، وقد شهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل بعثته حلف الفضول الذي عقد في دار عبد الله بن جدعان، وكان من بنوده أن لا يجدوا مظلوماً إلا ردوا إليه مظلمته، من هنا أثنى صلى الله عليه وسلم على هذا الحلف، وقال بعد النبوة: لو دعيت به في الإسلام لأجبت.[1]

ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً

ضمن جانب الالتزام الأخلاقي والديني لنصرة المستضعفين، فإن الولاية المبرم عقدها بين المؤمنين أنفسهم بموجب ميثاق الإيمان، تستلزم القيام بمقتضياتها، ومن أوضح تلك المقتضيات، الانتصار للمظلومين من الأولياء والضعفاء، فالله تعالى يقول: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.[2]

والانتصار للمستضعف مجاله رحب، لا يصح أن يقل عن الدعاء الصادق له بالفرج؛ تأسياً بالرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث كان يدعو لأسرى المسلمين في صلاته، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان يَدْعُو في الصَّلاةِ: اللهم أَنْجِ عَيَّاشَ بن أبي رَبِيعَةَ، وَسَلَمَةَ بن هِشَامٍ، وَالْوَلِيدَ بن الْوَلِيدِ، اللهم أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ من الْمُؤْمِنِينَ، اللهم أشدد وَطْأَتَكَ على مُضَرَ، وابعث عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ).[3]

شجب التقاعس عن نصرة المستضعفين

يستقيم الحال الذي يجد فيه المستضعف مؤازرة وعملاً دؤوباً لنصرته، فلا يجد نفسه وحيداً في مواجهة الاعتداء على حقوقه وحريته، فالمرء قوي بإخوانه، لكن حين يتخلى

1. السنن الكبرى: 367.
2. التوبة: 71.
3. صحيح البخاري، كتاب الإكراه، حديث رقم: 6541.

الأقوياء عن نصرة الضعفاء، فإن خللاً أخلاقياً ودينياً يقع، وينذر أرباب هذا الخلل بعذاب بئيس، من لدن رب العالمين، الذي أنكر سبحانه وتعالى التخاذل عن نصرة المستضعفين، فقال تعالى:{وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}.[1]

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كنت أنا وَأُمِّي من الْمُسْتَضْعَفِينَ، أنا من الْوِلْدَانِ، وَأُمِّي من النِّسَاءِ). [2]

فمسألة الانتصار للمستضعفين لا تندرج تحت باب المن والإحسان، وإنما تقع في صدارة سلم الواجبات، التي يشكر فاعلها، ويذم تاركها، ومهما بلغت درجات المرء ومنازله، فإنه في مرحلة ما قد يبتلى باستهداف الظالمين، فيحتاج إلى نصرة، تكون واجباً ملقى على عاتق محبيه وإخوانه وشركائه في العمل، والأهداف، والمصير، فحتى الأنبياء، عليهم السلام، لزمتهم النصرة من الذين آمنوا بهم واتبعوهم، فعيسى، عليه السلام، قالها صريحة لبني إسرائيل: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ} فردَّ عليه الحواريون قائلين: {نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.[3]

والله عز وجل وجه المؤمنين إلى التأسي بالحوارين، الذين ناصروا عيسى، عليه السلام، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.[4]

---

1. النساء: 75.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام.
3. آل عمران: 52.
4. الصف: 14.

أما الذين تخلوا عن أداء واجب النصرة لإخوانهم وأنبيائهم، فقد ذكر الله تعالى نماذج منهم في قرآنه الكريم في سياق الذم والتقريع، من أمثال الذين تخلوا عن نصرة نبي الله موسى، عليه السلام، فأخبر الله عن تخاذلهم، فقال جل شأنه: {قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}.[1]

وشبيه بهؤلاء المَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، الذين تولوا عن القتال في سبيل الله، فقال الله تعالى فيهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}.[2]

نصرة المسجد الأقصى

لا يخفى على أي مهتم بقضية المسجد الأقصى المبارك، والمتابع لأخبار محنته الراهنة، أنه يحاط الآن بمؤامرة كيدية تستهدف تقسيمه أولاً، ثم وجوده ثانياً، فدسائس الطامعين بوضع أيديهم عليه، لم تعد تحتمل التأويل أو التبرير، بل يجري العمل جهاراً نهاراً للحد من أعداد المسلمين، الذين يشدون الرحال إليه حتى تخلو ساحات المسجد، وأروقته، ومصاطبه منهم، ومن أشد الأمور غرابة وإنكاراً أن تصل مناشدات المسجد الأقصى وصرخاته إلى مسامع المسلمين عرباً وعجماً، وتنشر أخبار انتهاك حرمته أولاً بأول على مرأى منهم، صغاراً وكباراً، ولا تكون ردود أفعالهم نحو ذلك إلا باهتة خافتة، لا صدى لها ولا تأثير.

فما كان الذي يحدث للمسجد الأقصى ورواده أن يحدث، لو كان حال الأمة على غير هذا النحو، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إذ المطلوب حشد المصلين فيه على

1. المائدة: 24.
2. البقرة: 246.

أقل تقدير لأداء الصلوات الخمس، ولو حضر تلك الصلوات وصلاة الجمعة نسبة عالية من المسموح لهم بالدخول إليه من قبل سلطات الاحتلال، لكان في الأقصى حشود تفوق في عددها وحجمها، تلك التي تحتشد فيه الآن مئات المرات، ولو انتصر مسلمو العالم لمسرى نبيهم بمستوى لائق، لما استفرد به الأوغاد، ولما استهان بصرخاته الأعداء، ومع ذلك كله؛ سيبقى للأقصى رجاله ونساؤه، ممن كتب الله لهم شرف الذود عن حياضه، وشد الرحال إليه، من الذين لا ينقطع أملهم برفع رايات الحق على قبابه، طال الزمن أم قصر، دون أن تحبطهم عواصف المحن، ولا عظيم الابتلاءات، سائلين الله العلي القدير أن يجزي مساندي حماية الأقصى من الحكام والمحكومين خير الجزاء، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ـ الحلقة الأولى

يقول تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[1]

يصف الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، وصحبه، رضي الله عنهم، في هذه الآية الكريمة بصفات عظيمة ذات صلة وثيقة بنسيج علاقاتهم المتينة فيما بينهم، وغاياتهم البعيدة على صعيد العمل لله، ذاكراً مثلهم فِي التَّوْرَاةِ والْإِنجِيلِ، فالله تعالى أرسل محمداً، صلى الله عليه وسلم، بدينه الحق، فآمن معه الأصحاب وناصروه، ثم الأتباع، ثم خلف بعد آخر، ومن عمر قلبه الإيمان، فإنه يحب الله ورسوله ودينه وأهله، حباً يفوق حب الدنيا وما عليها، عملاً بهديه سبحانه وتعالى إذ يقول: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.[2]

فالأصل بالمؤمنين عبر الزمان والمكان كليهما، أن يرحموا بعضهم بعضاً؛ انطلاقاً من القواسم المشتركة السامية التي تجمعهم، فهم يؤمنون برب واحد، وبالنبيين، وخاتمهم رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، وبكتب الله ودرتها القرآن الكريم، وقبلتهم واحدة،

1. الفتح: 29.
2. التوبة: 24.

وصلاتهم واحدة، وحجهم واحد، وصومهم واحد، إضافة إلى أن عدوهم على تعدد مسمياته يخاصمهم لسبب واحد؛ أنهم آمنوا بالإسلام العظيم، واتخذوه ديناً، ينافحون عن حياضه، ويبذلون المهج والأرواح رخيصة في سبيله، فطوبى لهم، وحسن مآب، والويل لمن عاداهم، وبئس القرار.

والله وصف المؤمنين أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، بأنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، وفي التفسير أن أشداء جمع شديد، ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة، ومن صفاتهم ما جاء في قوله تعالى: { تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً}؛ أي تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلوات، { يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً} أي ثواباً، {سِيمَاهُمْ}؛ أي سمتهم، {فِي وُجُوهِهِم}؛ أي في جباههم. {مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ}؛ أي من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود في جبهة الساجد، الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله عز وجل، وقيل: هو صفرة الوجه من خشية الله تعالى، وقيل: استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل.[1]

أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

جاء في وصف المؤمنين أيضاً أن الله يحبهم، وهم يحبونه، وأنهم أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، فالله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.[2]

فالله تعالى يخبر المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم، فإن الله يأتي عوضاً عن المرتدين بقوم، من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، بينما هم

1. تفسير أبي السعود: 114/8.
2. المائدة: 54.

قساة على الكافرين وأشداء، وهذا من كمال صفات المؤمنين.[1]

وفي التفسير الكبير، قول صاحب الكشاف، إن أذلة جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه ذلل، وليس المراد بكونهم أذلة هو أنهم مهانون، بل المراد المبالغة في وصفهم بالرفق، ولين الجانب، فإن من كان ذليلاً عند إنسان، فإنه البتة لا يظهر شيئاً من التكبر والترفع، بل لا يظهر إلا الرفق واللين، فكذا ها هنا، فقوله:{أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}؛ أي يظهرون الغلظة والترفع على الكافرين، وقيل: يعازونهم؛ أي يغالبونهم من قولهم عزه يعزه، إذا غلبه.[2]

وخالف الزركشي في البرهان ما ذهب إليه صاحب الكشاف بهذا الصدد، فقال: إنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة وهو السهولة، لتوهم أن ذلك لضعفهم، فلما قيل (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) علم أنها منهم تواضع، ولهذا عدي الذل بعلى لتضمنه معنى العطف؛ أي أن أذلّة عنده جمع ذلول.

وفي أضواء البيان، أنه يفهم من هذه الآيات أن المؤمن يجب عليه أن لا يلين إلا في الوقت المناسب للين، وألا يشتد إلا في الوقت المناسب للشدة؛ لأن اللين في محل الشدة ضعف وخور، والشدة في محل اللين حمق وخرق، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

إذا قيل رفقاً قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل.[3]

خفض الجناح للمؤمنين والقسوة على أعدائهم

لقد أمر الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، بلين الجانب للمؤمنين، بقوله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [4] وقوله:{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[5]، وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ

1. أضواء البيان: 415/1.
2. التفسير الكبير: 21/12.
3. أضواء البيان: 416/1.
4. الحجر: 88.
5. الشعراء: 215.

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[1]، وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[2]، وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين من صفات الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضي الله عنهم.[3]

وإلى جانب ثناء الله تعالى على المؤمنين ورسولهم، صلى الله عليه وسلم، لرحمتهم ولينهم فيما بينهم، فإنه سبحانه وتعالى أمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالقسوة على أعداء دينه، من الكافرين والمنافقين، كما ظهر من الآيات سالفة الذكر، وقد أمر الله المؤمنين بالشدة على أعدائهم حال نشوب القتال بينهم، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.[4]

استبعاد مؤثرات الرأفة عند تنفيذ حدود الله

من المواطن التي يطلب فيها استبعاد الرأفة والشفقة، تلك المتعلقة بتنفيذ حدود الله تعالى، فإذا ما ثبت الجرم على الجاني وفق شروط الشرع وضوابطه، فيلزم من المؤمنين الحزم والصرامة في تنفيذ أمر الله تعالى، وتطبيق أحكامه، وفي هذا يقول تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}[5]، من هنا لم يقبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، شفاعة أسامة ابن حبه زيد بن حارثة في العفو عمن لزمها حد الله تعالى، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ

1. التوبة: 73.
2. آل عمران: 159.
3. أضواء البيان: 415/1.
4. التوبة: 123.
5. النور: 2.

يُكَلِّمُ فيها رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ بن زَيْدٍ، حِبُّ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فقال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللهِ؟ ثُمَّ قام، فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قال: إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا).(*)

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة لمتابعة الحديث عن أحوال الأمة فيما بينها، في ضوء ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف بالخصوص، سائلين الله العلي القدير العفو والعافية، وأن يجعلنا من المتحابين فيه، الرحماء فيما بينهم، الأشداء على أعدائهم، على نهج نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

*. صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم}(الكهف: 9) .

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ـ الحلقة الثانية والأخيرة

عن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ، تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى).(*)

عطفاً على ما تناولته الحلقة السابقة حول رحمة المؤمنين فيما بينهم، وشدتهم على أعدائهم، وأن المؤمنين أَذِلَّة عَلَى بعضهم، أَعِزَّة عَلَى الْكَافِرِينَ، إضافة إلى خفض الجناح للمؤمنين، والقسوة على أعدائهم في الحرب، حيث انتهت تلك الحلقة إلى الوقوف عند مسألة استبعاد مؤثرات الرأفة عند تنفيذ حدود الله، التي يلزمها حزم التنفيذ وصرامته؛ كونها أوامر الله تعالى، وتطبيق أحكامه، حيث نهى الله تعالى عن الخضوع لمؤثرات الرأفة والشفقة، عند إقامة الحد على الزاني، ولم يقبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الشفاعة في المخزومية التي لزمها حد السرقة.

والحديث الشريف أعلاه، يؤكد حال الرحمة التي ينبغي أن تسود بين المؤمنين، فيبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن المؤمنين كالجسد الواحد في الود والتراحم، يشعرون بشعور بعض، ففرحهم مشترك، وحزنهم كذلك، فما يؤلم أحدهم، يؤثر تلقائياً في إيلام الآخرين منهم، وهكذا الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى، وبناء على هذه الخاصية التي تمتاز بها علاقة المسلمين فيما بينهم، فلن يقبل منهم السكوت عن استفراد العدو ببعضهم، وهم يقدرون على إنقاذه منه، وقد أقر فقهاء المسلمين وعلماؤهم قواعد فقهية، واستنبطوا أحكاماً فقهية، تتماشى مع روح الود والتراحم والتعاطف، التي ينبغي أن

*. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

تسود بين المسلمين في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً، في السلم والحرب، والعسر واليسر، والرخاء والشدة، فهم عباد الله إخواناً، مصداقاً لقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.[1]

نموذج مشرق لتَوادُد المسلمين وتراحمهم

من أبلغ العلاقات دلالة على عمق المحبة والرحمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، تلكم التي سطر التاريخ أخبارها بنور مبين، وشرف عظيم، ألا وهي علاقة المهاجرين بالأنصار، التي انطلقت من الإيمان بالله، والحب فيه سبحانه، وقامت على أساس متين، فكان بنيانها صلباً، وثمرها نافعاً، حتى بعد قرون مضت على وجود تلك العلاقة المميزة، ما زلنا نتغنى بها، كيف لا؟! والقرآن الكريم خلد مدحها، والثناء عليها، والإشادة بها في عدد من آياته الكريمة، ففي الثناء على الأنصار لحسن علاقتهم بالمهاجرين، يقول تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[2]

والقرآن الكريم في ذات السياق، يلفت الأنظار إلى أن تفاني الأنصار في حب المهاجرين في الله، لم يكن ظاهرة عابرة، بدليل أن الذين جاءوا من بعدهم، يحبون إخوانهم المؤمنين السابقين واللاحقين، ويدعون الله أن ينزع من قلوبهم أي غل للمؤمنين، وفي هذا يقول تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.[3]

---

1. آل عمران: 103.
2. الحشر: 9.
3. الحشر: 10.

وطلب نزع الغل من القلوب له أهداف بعيدة وعميقة، فهو يغذي نبات التراحم والتواد، بمعززات لتكون صلبة العود، وطيبة الإثمار، فالمحب يتفانى في المحافظة على حبيبه، والذود عنه، والحرص عليه، لا يغمض جفنه لنوم وأخوه يصارع الأرق من ظلم انتابه، أو شر أصابه.

المراد ببأس أبناء الأمة بينهم

يجدر في سياق التعرض إلى موضوع الرحمة بين المؤمنين، وشدتهم على أعدائهم، الإشارة إلى مسألة بأس أبناء أمة الإسلام فيما بينهم، حسب ما يشاهد على أرض الواقع، وما جرى عبر التاريخ الإسلامي من أحداث دموية ومأساوية، وفي الحديث الصحيح: أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا).[1]

فهذا الحديث الشريف يشير إلى نوع من الابتلاء الذي يمكن أن تتعرض إليه أمة الإسلام، ويتمثل في تناحر بعض أبنائها، ووقوع البأس بينهم، لكن هذه الإشارة، ينبغي أن لا تهون علينا استمراء الخصومة بيننا، بل يجب العمل على تخفيف حدتها، ومحاولة تجاوزها بالقدر الذي نستطيع، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يطلب الأهون والأيسر في مثل هذه القضايا، فعن جَابِر بن عبد اللهِ، رضي الله عنهما، يقول: (لَمَّا نَزَلَ على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قُلْ هو الْقَادِرُ على أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا من فَوْقِكُمْ، قال: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، أو من تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، قال: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فلما نَزَلَتْ أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا، وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، قال: هَاتَانِ أَهْوَنُ أو أَيْسَرُ).[2]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.
2. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب في قول الله تعالى: {أو يلبسكم شيعا} (الأنعام: 65)

قوله: {أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا}، أي ليجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين. وقوله: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ)؛ أي بذاتك، وقوله: (وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل، وقوله هذا أهون؛ لأن الفتن من المخلوقين، وعذابهم أهون من عذاب الله، وبالفتن ابتليت هذه الأمة، وقوله: (هَاتَانِ أَهْوَنُ أو أَيْسَرُ) أي خصلة الإلباس، وخصلة إذاقة بعضهم بأس بعض.[1]

ومنع الله تلبية طلب النبي، صلى الله عليه وسلم، الخاص بحفظ أمته من جعل بأسهم بينهم، لا يعني حتمية وقوع بأسهم بينهم أينما وجدوا، بل المراد والله أعلم، أنه ستبقى لديهم قابلية للإصابة بهذه الآفة، لكن ليس بالضرورة أن تصيبهم جميعاً، وإنما قد تلحق ببعضهم دون بعض، وفي زمان دون آخر، وفي المحصلة أنهم غير محصنين منها، إلا إذا اتبعوا ما أرشدهم الله تعالى ونبيه، صلى الله عليه وسلم، إليه من سبل الهداية الواقية من هذا الشر وغيره، ومن ذلك الحث على التزام التقوى، وتجنب مزالق النزاع المفضي إلى الفشل، فالله تعالى يقول: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على إفشاء السلام في أوساط المسلمين؛ لتوثيق عرى المحبة بينهم، فقال: (لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ).[3]

نداء للأمة وقادتها لتجاوز محنة البأس

الناظر في حال الأمة الإسلامية اليوم، يجد صوراً مشرقة لثمرات الخير النابعة من خصب الهدى الذي آمنت به، ويجد في المقابل صوراً أخرى سلبية، ناجمة عن تنكب درب إسلامها،

1. عمدة القاري: 18/224-225.
2. الأنفال: 46.
3. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها.

وعلى رأس ذلك تتربع حالة التشرذم والكراهية، وفي بعض الأحيان التطاحن والاقتتال، بما يعبر بوضوح عن معنى البأس الذي بقيت احتمالات الوقوع في شَرَكه قائمة، والأسباب المباشرة لهذه المحنة؛ من أبرزها، التنافس على الدنيا، وانطلاء حيل أعدائنا وكيدهم علينا، وأنانية بعضنا، واستئثارها بالسطوة، وتكالبها على السيادة، بغض النظر عن الثمن الباهظ الذي ستدفعه الأمة والبلاد جراء ذلك.

والمطلوب باختصار من الحكام والمحكومين أن يتقوا الله في دينهم، وأوطانهم، وأمتهم، وأنفسهم، فلا يوردونها المهالك، بل عليهم أن يجنبوها الردى، حتى لا يكونوا المعاول التي تشعل نار البأس في حياضها، وتدمر قوتها، وتوهن جسدها، وتصبح فريسة سائغة لأعدائها. سائلين الله العلي القدير العفو والعافية، وأن يجنبنا شر بأسنا وكيد أعدائنا، وأن يجعلنا من المتحابين فيه، الرحماء فيما بينهم، الأشداء على أعدائهم، على نهج نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الخامس
زراعة وغذاء

	الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم	
.1	يحث على زراعة الأرض وحسن عمارتها	249
.2	وما نسب إليه من حث على الأكل من زيت الزيتون والادهان به	254

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على زراعة الأرض وحسن عمارتها

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانت لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أو لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ أَبَى، فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ).(*)

يحث الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث على زراعة الأرض، ويعبر هذا الحث عن جدية في التعامل مع الأرض؛ لتحقيق الحياة الكريمة على ظهرها، بما يخدم الإنسانية جمعاء، والاحتفال بالأرض ويومها، ينبغي أن يكون على هذا النحو من الجدية، والفاعلية المجدية، بما يخدم التمكين فيها، والغلبة على ظهرها، دون الاقتصار على التغني بالشعارات البراقة، أو التحسر على ما ضاع منها، أو التباكي السلبي على خسارة التمكين فيها.

فمن متطلبات التمسك بالأرض رعايتها بالزراعة؛ لتخرج النبت المبارك، والثمر الطيب، والأرض التي يحث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على زراعتها، ينبغي أن تكون مملوكة لزارعها، أو سُمِحَ له بزراعتها بتفويض شرعي، من هنا؛ قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانت لَهُ أَرْضٌ)؛ أي يملكها، أو مفوض باستغلالها.

جاء في مرقاة المفاتيح أن الأمر في الحديث أعلاه يفيد الإباحة؛ أي ينبغي له أن ينتفع بها بأن يزرعها، أو ليمنحها؛ أي ليعطِها مجاناً أخاه؛ ليزرعها هو لنفسه، فإن أبى؛ أي صاحب الأرض، عن الأمرين، فليمسك أرضه، فالأمر للتوبيخ أو التهديد.

وقيل: التقدير فإن أبى أخوه عن قبول العارية، فليمسك أرضه، فالأمر للإباحة، إشارة إلى أنه لا تقصير له فيه، قيل: يعني ينبغي أن يحصل للإنسان نفع من ماله؛ فمن كانت له أرض، فليزرعها حتى يحصل له نفع منها، أو ليعطها أخاه ليحصل له ثواب، فإن لم يفعل هذين

*. صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب فضل المنيحة.

الشيئين، فليمسك أرضه، فهذا توبيخ لمن له مال، ولم يحصل له منه نفع.[1]

ومن الروايات الصحيحة الأخرى التي وردت بهذا المعنى، قوله صلى الله عليه وسلم: (من كانت له أَرْضٌ، فَلْيَزْرَعْهَا، أو فَلْيُحْرِثْهَا أَخَاهُ، وَإِلا فَلْيَدَعْهَا).[2]

عمارة الأرض والتمكين فيها

من بين تذكير نبي الله صالح قومه ثمود، أنه أخبرهم باستعمار الله إياهم الأرض، فقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}.[3]

قوله: {وَاسْتَعْمَرَكُمْ}؛ أي جعلكم عماراً، وقيل: استعمركم من العمر؛ أي استبقاكم فيها، قاله الضحاك؛ أي أطال أعماركم، وقيل: من العمرى، قاله مجاهد، فيكون استعمر في معنى أعمر، كاستهلكه في معنى أهلكه، والمعنى أعمركم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم، أو بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأنّ من ورث داره من بعده، فإنه أعمره إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره. وقيل: استعمركم أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه؛ من بناء مساكن، وغرس أشجار، وقيل: ألهمكم عمارتها؛ من الحرث، والغرس، وحفر الأنهار، وغيرها.[4]

وينسجم معنى عمارة الأرض هنا، مع مهمة الاستخلاف في الأرض، التي كلف الله بها آدم، عليه السلام، وذريته من بعده، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.[5]

1. مرقاة المفاتيح: 157/6.
2. صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب كراء الأَرْض.
3. هود: 61.
4. تفسير البحر المحيط: 239/5.
5. البقرة: 30.

والأرض منبت الزرع، وعليها يقام العمران، وتسير الحياة، والله عز وجل ذلل الأرض، ويسرها للإنسان، ليستغل خيراتها، ويأكل من رزق الله الذي أخرجه منها، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}.[1]

ويقول تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}.[2]

فالأرض مسخرة للإنسان؛ ليمارس نشاطه واجتهاده في استغلالها لمعاشه ورفاهيته، لا ليهملها، ويتركها مواتاً، والرسول، صلى الله عليه وسلم، شجع على إحياء الأرض الموات بإعمارها، فمنح من يحيي أرضاً مواتاً الحق في تخصيصها له، ففي صحيح البخاري، بَاب من أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا، وَرَأَى ذلك عَلِيٌّ في أَرْضِ الْخَرَابِ بِالْكُوفَةِ مَوَاتٌ، وقال عُمَرُ: من أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ له، وَيُرْوَى عن عمر وابن عَوْفٍ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (في غَيْرِ حَقِّ مُسْلِمٍ، وَلَيْسَ لِعِرْقِ ظَالِمٍ فيه حَقٌّ).[3]

ومعنى (لِعِرْقٍ)؛ أي من غرس في أرض غيره دون إذنه، فليس له في الإبقاء فيها حق.[4]

التمكين في الأرض وعمارتها بالمعروف والإحسان

بين الله تعالى في قرآنه الكريم أن عباده الصالحين هم الذين سيؤول إليهم ميراث الأرض، فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}.[5]

والناس من عهد أبيهم آدم، عليه السلام، يقومون بعمارة الأرض؛ تحقيقاً لمصالحهم، وبأساليب مختلفة، غير أن عمارة الأرض بصورة متجردة عن القيم والمبادئ السمحة، التي أرسى قواعدها الله تعالى، تقصر عن تحقيق السعادة الحقيقية للإنسان، والله تعالى

1. الملك: 15.
2. الأعراف: 10.
3. صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتاً.
4. عمدة القاري: 175/12 .
5. الأنبياء: 105.

يقول: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[1]، فالعبرة إذن بالصلاح المنبثق من العمل بالهدي الرباني، لا بالقدرة على الإنجاز العمراني المجرد، وتحقيق النفع المادي لعمار الأرض، فعاقبة المفسدين الدمار والهلاك، ومن ثم النار وبئس المهاد، بخلاف المتقين الأخيار الذين يحسنون الصنع في عمارة الدنيا على الوجه الذي يرضي الله، رب السماوات والأرض، ويحافظون على توثيق صلتهم بالله سبحانه، فيصلون ويزكون، والله تعالى يقول فيهم: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}[2]، ومن حقائق الإيمان أن التمكين في الأرض مرده إلى الله تعالى، ويشهد لذلك آيات الله الناطقة والمشاهدة في الواقع، وآياته الأخرى المقروءة في القرآن، فذو القرنين كان له التمكين في الأرض بأمر الله تعالى وقدرته، فقال تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً}[3]، وعبر ذو القرنين عن إيمانه بهذه الحقيقة، فذكر الله قوله: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً}.[4]

والتمكين في الأرض وعد قطعه الله لعباده المؤمنين، فقال تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.[5]

وفي مقابل الثناء على قيام المكنين في الأرض بالصلاة، وأداء الزكاة، فإن الله تعالى أنزل

1. الروم: 9.
2. الحج: 41.
3. الكهف: 84.
4. الكهف: 95.
5. النور: 55.

سخطه على الذين مكنهم في الأرض، ومنحهم نعمه وآلاءه، ثم جحدوا بآياته سبحانه بدل أن يشكروها، فقال تعالى فيهم: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}.(*)

مما يعني لزوم الحذر من الإفساد في الأرض، والطغيان فيها، وسلب حقوق أصحابها وتشريدهم عنها، أو قتلهم على ثراها، فالله للطاغين وللظالمين بالمرصاد، وهو سبحانه قادر على أخذهم أخذ عزيز مقتدر، سائلين الله العلي القدير أن يمكن لنا ديننا الذي ارتضى لنا، وأن يعيننا على حسن الاستخلاف في الأرض، وصلى الله على رسولنا الأسوة، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. الأحقاف: 26.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وما نسب إليه من حث على الأكل من زيت الزيتون والادهان به

عن عُمَرَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ائْتَدِمُوا بِالزَّيْتِ، وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فإنه من شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ).[1]

هذا الحديث اختلف في درجة صحته، فصححه بعض علماء الحديث، مثل الحاكم النيسابوري في المستدرك، وحسنه فريق، وضعفه آخرون، هذا من ناحية إسناده، أما بالنسبة إلى ذكر فضل شجرة الزيتون، فما ورد من ذكر بركتها في هذا الحديث، يتفق مع ما جاءت به الآيات القرآنية، فالله تعالى وصف شجرة الزيتون بالبركة في بضع آيات قرآنية.

وفي بعض روايات الحديث، وردت البركة وصفاً للزيت، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كُلُوا الزَّيْتَ، وَادَّهِنُوا بِهِ، فإنه مُبَارَكٌ).[2]

وزيت الزيتون يؤكل مع الخبز وغيره من الأطعمة التي يستخدم فيها الزيت إداماً، والادّهان به يكون لجلد الإنسان، وأعضائه، وشعره، فاستخدامه في هذا المجال له فوائد تجميلية وصحية عديدة، يعرف بعضها كثير من الناس.

وبمناسبة حلول موسم قطف ثمار الزيتون، من الشجرة المباركة، في أرضنا المباركة، وما يتبع ذلك القطف من عصر تلك الثمار لاستخراج الزيت المضيء منها، يحسن الوقوف عند فضل هذه الشجرة، وزيتها، وأرضها، في ضوء بعض آيات الذكر الحكيم.

ذكر شجرة الزيتون في القرآن الكريم

الزيتون وشجرته، ورد ذكرهما صريحاً في القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ

1. سنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الزيت، وصححه الألباني.
2. سنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الزيت، وصححه الألباني.

النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.[1]

وقوله تعالى:{يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.[2]

ويقول تعالى: {وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً}.[3]

ففي هذه الآيات الثلاث ذكر الزيتون في سياق عرض بعض الآيات الكونية، التي خلقها الله تعالى، وسخرها للخلق، فهي مدعاة للتأمل، والتفكير المبصر المفضي إلى تعميق جذور الإيمان.

وبالإضافة إلى ذكر شجرة الزيتون في سياق الدعوة إلى التأمل في آيات خلق الله تعالى، جاء ذكر الزيتون في سياق عرض بعض النعم التي تفضل الله بها على عباده، فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}.[4]

زيتونة لا شرقية ولا غربية

الآية القرآنية الأشهر في ذكر الزيتون، تضمنتها سورة النور، ووقفت عند تفصيل رائع لوصف شجرة الزيتون وزيتها المضيء، في سياق الحديث عن نور الله، وتشبيهه بالمشكاة، التي يكاد زيتها يضيء من غير أن تمسسه نار، فقال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ

1. الأنعام: 99.
2. النحل: 11.
3. عبس: 29.
4. الأنعام: 141.

مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.[1]

ورد في التسهيل لعلوم التنزيل، في قوله تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} أن المشكاة هي الكوة- الخَرْق في الحائط والثَّقْب في البيت ونحوه - غير النافذة، تكون في الحائط، ويكون المصباح فيها شديد الإضاءة، وقيل: المشكاة العمود الذي يكون المصباح على رأسه، والأول أصح وأشهر، والمعنى صفة نور الله في وضوحه، كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة، والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة، وإن كان نور الله أعظم؛ لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه. {يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ} الفعل مسند إلى المصباح، والمعنى يوقد من زيت شجرة مباركة.[2]

وفي التفسير الكبير ذِكْر الاختلاف في معنى وصف الشجرة، بأنها لا شرقية ولا غربية، وبعد تعداد بعض الآراء الضعيفة في ذلك، اختار الرازي ما قاله ابن عباس من أن المراد به الشجرة، التي تبرز على جبل عال، أو صحراء واسعة، فتطلع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب، وقال: هذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير، وقتادة، واختيار الفراء والزجاج، قالا: ومعناه لا شرقية وحدها، ولا غربية وحدها، ولكنها شرقية وغربية، وهو كما يقال فلان لا مسافر ولا مقيم؛ إذا كان يسافر ويقيم، واختار الرازي هذا القول؛ لأن الشجرة متى كانت كذلك، كان زيتها في نهاية الصفاء، وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم.[3]

---

1. النور: 35.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/67-68.
3. التفسير الكبير: 23/206-207.

القسم الرباني بالزيتون

افتتحت سورة التين بقسم الله تعالى بالتين والزيتون، فقال تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}[1] فالواو للقسم، والتين هو الثمرة المعروفة، التي لا عجم لها، ولا قشرة، والزيتون هو الثمرة التي منها الزيت.[2]

وفي التسهيل لعلوم التنزيل، أن التين والزيتون هنا فيها قولان: الأول، أنه التين الذي يؤكل، والزيتون الذي يعصر، أقسم الله بهما لفضيلتهما على سائر الثمار.

القول الثاني، أنهما موضعان، ثم اختلف فيهما، فقيل: هما جبلان بالشام، أحدهما بدمشق، ينبت فيه التين، والآخر بإيلياء-القدس- ينبت فيه الزيتون، فكأنه قال: ومنابت التين والزيتون، وقيل: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقيل: التين مسجد نوح، والزيتون مسجد إبراهيم، والأظهر أنهما الموضعان من الشام، وهما اللذان كان فيهما مولد عيسى، عليه السلام، ومسكنه؛ وذلك أن الله ذكر بعد هذا الطور، الذي كلم عليه موسى، والبلد الذي بعث منه محمد، صلى الله عليه وسلم.[3]

تنبت بالدهن وصبغ للآكلين

إلى جانب الذكر القرآني الصريح لشجرة الزيتون، فقد ذكرها ضمنياً كذلك، فقال تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ}.[4]

جاء في أضواء البيان أن قوله تعالى: {وَشَجَرَةً} معطوف على جنات، من عطف الخاص على العام؛ أي فأنشأنا لكم به جنات، وأنشأنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء، وهي شجرة الزيتون، كما أشار له تعالى بقوله: {يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ}، والدهن الذي

1. التين: 1.
2. أضواء البيان: 9/3.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 206/4-207.
4. المؤمنون: 20.

تنبت به هو زيتها المذكور في قوله تعالى: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ} ومع الاستضاءة منها فهي {صْبغ لِلآكِلِين}؛ أي إدام يأتدمون به، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عن الشجر، سمي جبلاً، لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء هو طور سنين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال، التي فيها شجر الزيتون.[1]

استهداف شجرة الزيتون الفلسطينية بالعدوان الغاشم

تتعرض شجرة الزيتون المباركة منذ ردح من الزمان إلى استهداف همجي غاشم، يقع عليها وعلى الأرض الفلسطينية التي تحتضنها، من قبل المحتلين الحاقدين، الذين يمثلهم قطعان المستوطنين الذين يعيثون في الأرض فساداً، حيث يقومون بتعمد اقتلاع أشجار الزيتون بحجج واهية، وتشير معطيات مكتب الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية (OCHA) إلى ارتفاع غير مسبوق في استهداف شجرة الزيتون، فقد بلغ مجموع أشجار الزيتون التي تم استهدافها من قبل المستوطنين خلال شهر كانون الثاني الماضي قرابة 1429 شجرة زيتون تم قطعها بشكل كلي، غير التي أتلفت أو خربت.[2]

إنَّ شجرة الزيتون تستغيث ربها مثل أصحابها المزارعين، يا رب؛ ارفع عنا البلاء والشقاء، واجعلنا للخير عطاء، وللظلم أعداء، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. أضواء البيان: 5/330-331.
2. المركز الفلسطيني للإعلام: 2014/3/15م.

الفهرس

الفصل الأول / عقيدة		
الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	ينعى على من لم يدخل الجنة ببر والديه	5
.2	يستغيث الله/ الحلقة الأولى	10
.3	يستغيث الله/ الحلقة الثانية	15
.4	يستغيث الله/ الحلقة الثالثة والأخيرة	20
.5	أعانه الله تعالى على الشيطان	25
.6	أمره الله تعالى أن يعبده حتى يأتيه الموت	30
.7	يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين/ الحلقة الأولى	35
.8	يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين / الحلقة الثانية	40
.9	يؤمر باتّباع الوحي والإعراض عن المخالفين/ الحلقة الأخيرة	45
.10	استقام لأمر ربه ولم يجاوز حدوده	50
.11	ودعاؤه عند الشدائد	55
.12	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الأولى	60
.13	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الثانية	65
.14	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الثالثة	70
.15	واليقين بأن النفع والضرر من عند الله/ الحلقة الرابعة والأخيرة	75
الفصل الثاني / عبادات		
الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	يحث على شد الرحال إلى مسراه	81
.2	يدعو إلى تحري هلال رمضان	86
.3	يرَغب المؤمنين في الصيام والقيام	92
.4	يقيم الليل ويرتل القرآن ترتيلاً	97
.5	يحدد صدقة الفطر وزكاة المال ومصارفهما	102
.6	يبين فضل صيام الست من شوال	107
.7	خَيَرَ المسلمين بين صيام يوم عَاشُوراء وتركه	111
.8	يؤكد فرض الحج ويبين فضله وأهميته	116
.9	يرشد الحجاج ليأخذوا مناسكهم عنه/ الحلقة الأولى	121
.10	يرشد الحجاج ليأخذوا مناسكهم عنه/ الحلقة الثانية والأخيرة	126
.11	يضحي ويبين أحكام الأضحية	131

الفصل الثالث / سيرة وجهاد وأسرى		
الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	**أثمرت هجرته في إحقاق الحق وإزهاق الباطل**	137
.2	يحث على البذل لإطلاق سراح الأسرى	142
.3	يفتح مكة منتصراً على قوى الشر	147
.4	يقود المسلمين للنصر على أحزاب الضلال	152
.5	يبين فضل الشهادة ومنازل الشهداء / الحلقة الأولى	157
.6	يبين فضل الشهادة ومنازل الشهداء/ الحلقة الثانية والأخيرة	162
.7	يبشر أمهات الشهداء	167
الفصل الرابع / مناهج وقيم		
الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	ينهاه الله تعالى عن المخاصمة لصالح الخائنين	173
.2	يأمر بالمعروف و تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة/ الحلقة الأولى	178
.3	يأمر بالمعروف و تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة/ الحلقة الثانية	183
.4	يأمر بالمعروف و تغيير المنكر وفق القدرة والاستطاعة/ الحلقة الثالثة والأخيرة	188
.5	يحث على إغاثة الملهوف	193
.6	يشيد بالصادقين/ الحلقة الأولى	198
.7	يشيد بالصادقين/ الحلقة الثانية	203
.8	يمنع نفي النسب بالشبهات/ الحلقة الأولى	208
.9	يمنع نفي النسب بالشبهات/ الحلقة الثانية	213
.10	يمنع نفي النسب بالشبهات/ الحلقة الثالثة والأخيرة	218
.11	الخير باق في أمته إلى يوم القيامة	223
.12	يبين فضل العلم وأهميته	228
.13	يرشد الأمة إلى واجبها تجاه نصرة المستضعفين	233
.14	وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ / الحلقة الأولى	238
.15	وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ / الحلقة الثانية والأخيرة	243
الفصل الخامس / زراعة وغذاء		
الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	يحث على زراعة الأرض وحسن عمارتها	249
.2	وما نسب إليه من حث على الأكل من زيت الزيتون والادهان به	254